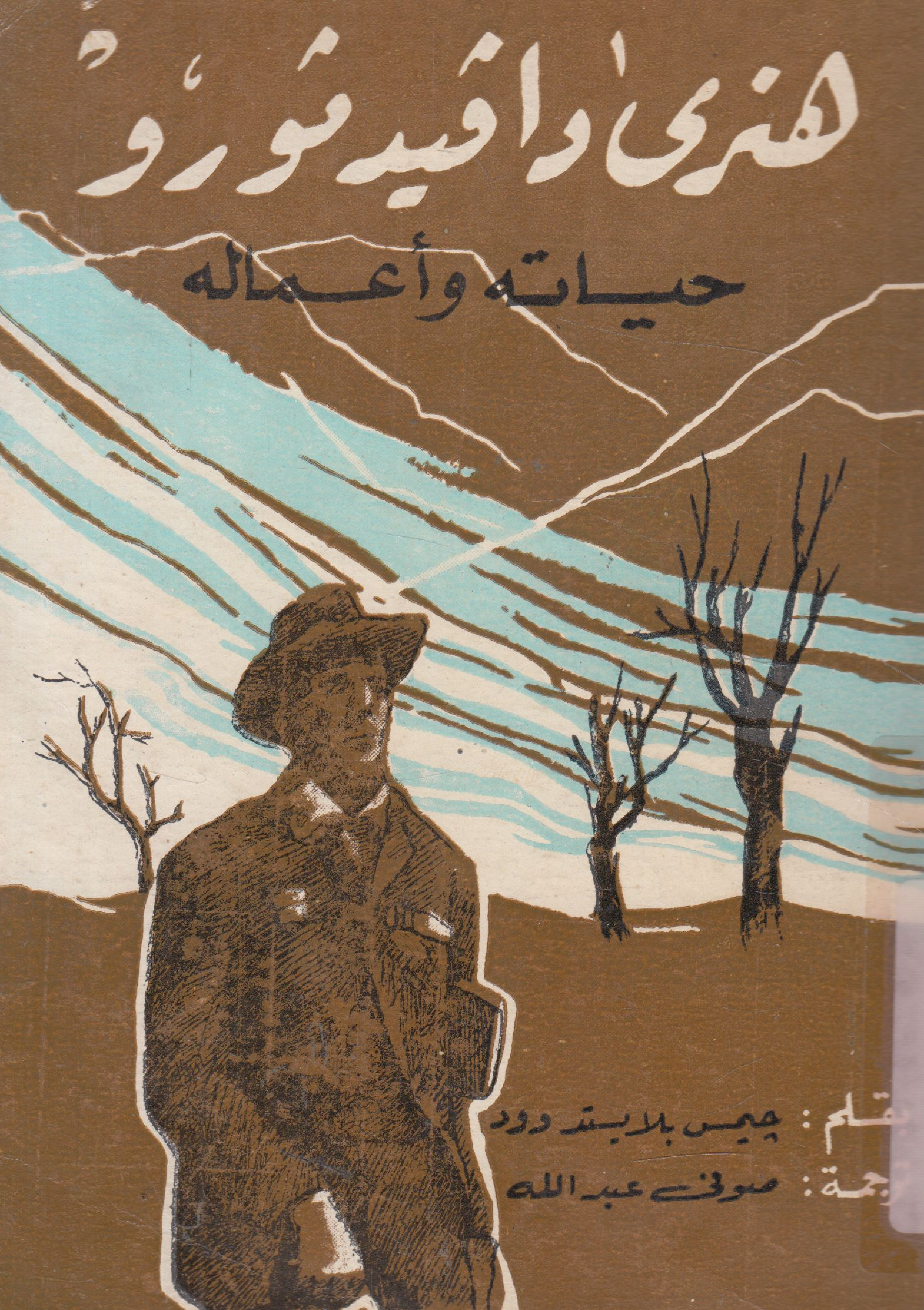

هنري دافيد ثورو
حياته وأعماله
قلم: جيمس بلايستد وود
رجمة: صوفي عبد الله

هنري دافيد ثورو

حياته وأعماله

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

أكتوبر سنة ١٩٦٦

هنري دافيد ثورو

حياته وأعماله

مكتبة

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد

بقلم

جيمس بلايستدود

ترجمة

صوفي عبد الله

الناشر

دار نهضة مصر

للطبع والنشر

القاهرة

مكتبة

المشتركون فى هذا الكتاب

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد

جيمس بلايستر وود :

ولد فى بروكلين بنيويورك . وعندما كان طالباً بالجامعة قرأ كل ما كان يقع عليه من أعمال ثورو، ثم كتب رسالة الماجستير عن ثورو . وكان وود يوجه عناية خاصة لثورو فى محاضراته عن الأدب الأمريكى بكلية أمهرست ، كما قدم لبعض أعماله فى المجموعة المئوية عن الأدب الأمريكى التى قام بتحريرها .

مؤلف معروف برواياته وقصصه الخيالية للأطفال .

صوفى عبد الله :

صحفية ومؤلفة ومترجمة بدار الهلال منذ عام ١٩٤٨ . عملت بالصحافة منذ عام ١٩٤٧ . عضو فى لجنة الجوائز الدولية التشجيعية للقصة القصيرة والرواية منذ عام ١٩٦٠ ، وفى المؤتمر العام ، ونادى القصة ، ونادى القلم الدولى ، وجمعية الأدباء ، ونقابة الصحفيين . ترجمت أكثر من خمسة وثلاثين كتاباً ورواية ، وكتبت أكثر من سبعمائة قصة قصيرة ، وسبع روايات طوال. ترجمت قصصها القصيرة إلى أكثر من لغة ، وأخرجت لها المطابع أكثر من سبع مجموعات . أول سيدة مصرية ألفت للمسرح عام ١٩٥١ ، ومثلت روايتها فى دار الأوبرا بعنوان « كسبنا البريمو». ترجمت قصة « ابنتى الحبيبة » التى نشرتها مؤسسة فرانكلين .

مصمم الغلاف : أحمد شوقى

« منذ أمد طويل ضاع منى كلب صيد ، وجواد كميت ، ويمامة قمرية ، ولم أزل إلى اليوم فى أثرها . . . وكم من رحالة حدثته عنها ، فوصفت له مسالكها وسبلها ، والنداء الذى تستجيب لدعوته . وقد لقيت شخصاً أو شخصين سمعا صوت كلب الصيد ووقع حوافر الجواد ، بل وأبصرا اليمامة تختفى خلف سحابة ، وأبديا من اللهفة على استعادة هذه الثلاثة وكأنهما هما اللذان فقداها ».

والدن

١٨٥٤

تمهيد

تحدى هنري دافيد ثورو النظام الاقتصادى ، والحكومة ، والتظاهر الاجتماعى بالتدين، على نحو ما كان سائدا فى أوائل القرن التاسع عشر بنيو إنجلند حيث عاش . بل إنه رفض أن يأخذ هذه الأمور مأخذ الجد . ولم ينجم عن ذلك تضوره جوعا ، ولا إصابته بصاعقة، بل قضى ليلة واحدة فى الحبس ، وظل سائر أيام حياته يصنع ما يشاء بالضبط ، على النحو المتاح فى ذلك السبيل لأى امرىء من البشر .

وقضى ثورو عامين من أعوام حياته الأربعة والأربعين بمفرده فى الغابة حول بحيرة والدن ، مقيما فى كوخ من حجرة واحدة شيده بنفسه . وقد جعل هذين العامين أشهر أعوام حياته بما سجله من وصف هذه التجربة فى كتابه « والدن » ، وهو — لامراء — من « الكلاسيكيات » القليلة فى الأدب الأمريكى . ولعل والدن قد ظهر فى طبعات يفوق عددها أى كتاب أمريكى آخر كتب قبل الحرب الأهلية .

وقد أثار ثورو إبان حياته اهتماما حاراً وحظى بصداقة حميمة من لدن رالف والدو إمرسون ، وظفر بالرضا من المتوحد ناثانيل هاوثورن ، وولاء وإعجاب برونسون آلكوت ، وبما يشبه التقديس من رفيق جولاته على الأقدام وليم اليرى تشاننج . وكان هؤلاء جميعا جيرانه فى كونكورد . وفى الوقت نفسه تحمل أو استمتع بالصداقة الكريمة من جانب هوراس جريلى فى نيويورك ، وبالمقت الصريح من معاصره فى هارفارد جيمس راسل لوويل ، وبالتسامح أو الزراية من أولئك الذين اعتبروه خائب القرية غريب الأطوار الذى لا خير فيه .

وفى السنوات التى انقضت منذ وفاة ثورو فى كونكورد فى سنة ١٨٦٢ وكتابه والدن وكتابه الآخر الذى طبع فى حياته وعنوانه : « أسبوع على نهرى كونكورد ومريماك » بالإضافة إلى سائر الكتب التى نشرت بعد وفاته مستقاة مما دونه فى يومياته على يد محررين شتى ، جعلت ذلك المفكر الفردى المقدام الصريح شخصية عالمية . فما كتبه ثورو عن « العصيان المدنى » أوحى إلى المهاتما غاندى بفكرة المقاومة السلبية التى وضعها موضع التنفيذ ليحصل للهند على حريتها . وثمة أقطار أخرى نشدت حريتها وأجناس قاتلت فى سبيل المســـاواة مستخدمة السلاح الذى شرعه ثورو . والمصلحون الاجتماعيون فى إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر كانوا يحملون نسخا من والدن فى جيوبهم ، وكذلك صنع رجال الخدمة العاملة الأمريكيون أثناء خدمتهم فيما وراء البحار خلال الحرب العالمية الثانية . وليوتولستوى اعترف بما كان لثورو من تأثير عميق فى تفكيره، وكثيرون غيره من كبار القصاصين وكتاب المقال والنقاد اعترفوا كتابة بدينهم العظيم لهنرى ثورو وأظهرت أفكارهم وأساليبهم مدى تأثرها القوى بكتابات ثورو وقدوة حياته .

وليس فى وسع أحد أن يقدر الألوف الكثيرة من القراءة الذين هزهم إلحاح ثورو على الحياة القريبة قدر الإمكان من الفطرة ، حيث تبرز عذوبتها فى أجلى صورة، وهزهم نداؤه المتكرر : « تبسطوا ! تبسطوا ! » فاستولى عليهم نزوع لا يقهر فى التوجه حرفيا أو مجازيا إلى بحيرات والدن الخاصة بكل منهم ، ليعيشوا حياتهم فى استقلال وفطرة . وبازدياد الحياة الحديثة تعقداً زادت جاذبية دعوة ثورو الملحة إلى البساطة والصلة المباشرة بالحياة لأن الحاجة إلى هذين الأمرين قد اشتدت . وبتضخم الدولة ، وتزايد

بفودها ، وطغيانها على شئون البشر ، ازدادت أهمية ثورو باعتباره البطل المناصر للفرد ضد سواد الجماهير .

ولئن ظل ثورو مجهولا نسبيا فى زمنه ، إلا أنه الآن قد زادت شهرته ونفوذه ففاقت كثيرين من الكتاب ممن كانوا أكثر منه شهرة وأوسع انتشاراً لدى القراء ، فكتبه الآن يطالعها الناس ، فى حين نسيت كتبهم أو طغى عليها الإهمال . بل إن كتبه تقرأ بروح من الطرافة والحيوية تدل على أنها تعنى لدينا مثلما كانت تعنيه لدى معاصريه ، أو ربما تزيد ..

وقد أبرز هنرى دافيد ثورو بقوة فى حياته وأعماله ذلك الاستقلال وتلك الفردية التى ربما اعتبرت فى وقت من الأوقات خاصة مميزة من خصائص الروح الأمريكية . فكان يحزم رأيه الخاص ويعمل بوحى من معتقداته الخاصة ، ويرفض أن ينقاد لآراء غيره وتحيزات أهوائهم ، سواء أكان هؤلاء الغير أغلبية حاكمة ، أم أقلية يعلو صوتها بالاحتجاج . ولم يكن يحب الرقابة الحكومية بأنواعها ، وتلك الرقابة التى كان يشعر بأنها تتدخل فى حرية عمله أو حرية اعتقاده ، ولم يكن يحب الضغط الاجتماعى الذى تمارسه أى جماعة بقصد إملاء إرادتها الأنانية إملاء ، فهو يأبى أن يستغله أحد ، ويأبى أن يرغمه أحد على ما لا يريد .

وإننا لنرى اليوم الحكومة فى هذه البلاد — أمريكا — وفى غيرها تمارس قدرا من الرقابة على الحياة الخاصة للأفراد أكبر بكثير مما كانت تمارسه على أيام ثورو .

فاهتمام ثورو كان منصباً على الرجل المفرد أو المرأة المفردة، سواء أكان هذا الرجل المفرد هنرى ثورو أم سواه ، وسواء أكانت تلك المرأة جارة

له أم أمرأة ليس له بها سابق معرفة . أما الاهتمام اليوم — حين يكون ثمة اهتمام — فبجماهير الناس : بالسكان أجمعين ، أو بجماعات تنحدر من سلالة واحدة، أو بمجموعات يربط بينها عامل السن، أو بمجموعات صناعية. وكثيرا ما يكون هدف العمل الحكومى أو ضغط التنظيمات التى غايتها الإحسان أو التعليم أو الإصلاح الاجتماعى تحسين المستوى المادى لجماعات معينة ، وإمداد جمهور الناس الداخلين فى صلب هذه الجماعات بمزيد من الفوائد والامتيازات ، ومزيد من الضمانات الاقتصادية .

أما ثورو فكان حرياً أن يؤثر قيام الفرد على تدبير أمر حياته بنفسه، مكافحا بجهوده الخاصة الوصول إلى ما كان يعتبره أسمى الغايات .

إن الاتجاه القوى فى الولايات المتحدة فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين نحو جعل جميع الناس يبدون ويسلكون على وتيرة واحدة بقدر الإمكان . وجانب من هذا الاتجاه يفرضه القانون عنوة ، والجانب الآخر منه يمليه الرأى العام . وقدر لا يستهان به من قوة هذا الاتجاه ناتج عن الدعاية والإغراء اللذين تصبها المطبوعات وتبثهما فى الهواء كل تلك المنظمات والمؤسسات التى تريد لكل امرىء أن يفكر كتفكيرها، وأن يصنع كصنيعها — على نحو ما يجتهد المعلن فى حمل كل امرىء على أن يشترى ويستخدم علامته التجارية المعينة من السيارات ، أو « معجون الأسنان » ، أو صبغ الشفاه ، أو الجعة ، أو شفرة الحلاقة . أما ثورو فكان حقيقاً أن يحزن ! فقد كان يستنكر التضييق على الحريات ، وحمل الناس على التماثل كأنهم جنود فى فيالق وكان يبغض الاستغلال ، ويفضل آراءه الخاصة على تلك الآراء التى يجتهد الآخرون فى إدخالها فى الأذهان بالغاً ما بلغ نصيب آرائهم هذه من دقة

التدبير وحنكته ، بالغة ما بلغت من براعة الصياغة ، لذا كان حرياً أن يكره تلك القوى الراسخة التى يتزايد عددها ونفوذها باستمرار والتى توجه همها إلى طمس معالم الفرد .

لقد كان ثورو يمارس البساطة والبهجة بالأمور البسيطة ويدعو إليهما : من قبيل بلوط المستنقعات ، أو شراع على صفحة النهر ، أو بروز غلام صغير أو رجل مسن وما صدر عنها من أحاديث ، أو اكتشاف حقيقة واقعية أو حقيقة مثالية . وكان يزدرى التعقيدات التى لا لزوم لها ويندد بها ، واجتهد أن يجعل حياته بسيطة قليلة المطالب ما أمكن ، وحث سواه من الناس على تخليص حياتهم من المعوقات حتى يتاح لهم التحرر ليعيشوا ، وهذا النهج الحديث فى الإعلان الذى لا يفتر ولا يكف عن الضجيج كان حريا أن يثير غضبه الشديد . وهدف الإعلان الذى يستعين على إنجازه بكل ما يستطيع تدبيره من الوسائل أن يجعل الناس يشتهون مزيدا من الأشياء الجديدة جدة مطردة ، وأن يشتروا منها المزيد بعد المزيد : مزيدا من البيوت ، ومزيدا من السيارات ، ومزيدا من الأجهزة والملابس والبهارج والآلات .

فالإعلان يسعى إلى جعل البشر عبيداً أرقاء لمقتنياتهم ، وثورو كان يسعى لتحريرهم من هذا الرق . ولو جوبه بإرسال التليفزيون التجارى لكان حقيقا إما بالذهول غير مصدق ما يرى وما يسمع ، وقد أخذ بمجامعه الروع ، وإما بالانفجار فى عاصفة من الغضب الجائح .

وقد صدرت ست من تراجم الحياة المطولة لثورو ، ومقالات لا تحصى تعالج سيرته وتقومها بمعايير النقد . وترك إمرسون وهاوثورن وآلكوت

لنا انطباعاتهم عن هذا الرجل الذى عرفوه عن كثب. وكل من وليم اليرى تشاننج ، وف .ب ستانبورى ، كتب تاريخ حياة صديقه. فمنذ وفاة ثورو لم ينقطع افتتان الانجليز والفرنسيين والأمريكيين من كتاب تراجم السير به، ما بين المحللين الأكاديميين ، والنقاد الدراميين فى برودواى ، ورؤساء التحرير فى نيويورك ، والمعلقين المحترفين فى الصحف .

وترجمة الحياة — أى السيرة — فن غير دقيق على أحسن الفروض ؛ فما من إنسان يستطيع أن يكتب عن إنسان آخر من جميع النواحى وبدقة تامة ؛ فالرجال والنساء أشد تعقداً ، وأشد تناقضا من ذلك . فالرجل الواحد إنما هو فى العادة عشرة رجال ، والرجل الذى ينظر إليه إنما هو فى الواقع عشرة رجال آخرين . ولهذا السبب مامن رجل يستطيع أن يعرف نفسه معرفة كافية لرسم ملامح نفسه رسماً يتجاوز الشبه السطحى لأصله الصحيح . بل إن ثورو نفسه الذى جاهد طيلة حياته كى يصدق نفسه فى العمل والمعرفة ، واستخدم ذاته موضوعا لجميع كتاباته تقريبا ، لم يستطع أن يترك صورة تامة الأجزاء لهنرى دافيد ثورو .

ولا مراء فى أن كتاب سيرة ثورو إنما رأوه من خلال أمزجتهم الخاصة ، ومعتقداتهم الخاصة ، ومن خلال ما يحبون وما يكرهون وما ينحازون له من آراء سابقة . فهذا اليرى تشاننج العاطفى الرومانسى يكتب فى حماسة النشوة عن ثورو « الشاعر الطبيعى » . وهذا آلكوت يكتب عنه باعتباره جارا دمثا ربما كان فى بعض الأحيان محبا للحكمة لا يخلو من جفوة . وكتب إمرسون عن ذلك الشاب الواعد ، ثم عن الرواقى قاطن الغابة الذى خيب آمال حاميه الدنيوية . أما جيمس راسل لوويل فنبذ بازدراء ساكن الكوخ الريفى الذى أساء إلى ما كان يعتبره الجانب الأرقى

من ميوله الذوقية وتحضره الثقافي . وأن ارتد روبرت لويس ستيفنسون عن رأيه الأول فيما بعد إلا أنه أعلن في البداية أن ثورو — بكلمة واحدة جاءت في ختام مقاله التشهيري الجارح — إنما هو متهرب من الحياة ، نا كل عنها لجبنه. والدكتور ادوارد والدو امرسون تكلم وكتب بإعزاز عن ثورو صديق الطفولة ورفيقها . وآني راسل ماربل دافعت باستنكار شديد عن بطلها ضد نقاده الذين هاجموه .

وفي العقد الثالث من القرن العشرين نبذ مارك فان دورن ، وبروكس اتكنسون، أسطورة حب ثورو الباكر باعتبارها ضئيلة الأهمية ، أو كما وصفها اتكنسون : « أحدوثة يلغط بها اللاغطون ». وفي سنة ١٩٣٩ وجد هنري سيدل كانبي الذي كتب سيرة تعتبر أتم وأفضل سيرة كتبت في القرن العشرين لثورو من وجوه كثيرة — إن غرام ثورو بإلين سيوول كان عاملا حاسما في حياته ، وافترض وجود علاقة حب مكتومة بالضرورة وغير معترف بها لدى الطرف الآخر ، وهي ليديان الزوجة الثانية لامرسون . كما أنه أطنب في أثر نساء كثيرات في حياة رجل كان غيره من كتاب السير يعتبرونه جلفا متأبداً عاجزا عن العاطفة القوية .

ورغم كل ما كتب عن ثورو يبدو أن المصنفات الموضوعة خصيصا للقراء من الشبان عن هذا الرجل وكتاباته قليلة جداً . مع أن هنري ثورو يعتبر قبل كل شيء كاتب الشباب الذي يكتب للشباب . فهو ثاقب النظرة ، جم التساؤل ، مستقل الرأي ، يسلك طريقه الخاصة ، مكونا ملاحظاته الخاصة ، ومستنبطا منها نتائجه الخاصة . وهكذا كان ثورو يجتذب الشباب دائما ، ويجتذب من ظلت أذهانهم وعواطفهم محتفظة بشبابها . ثم هو

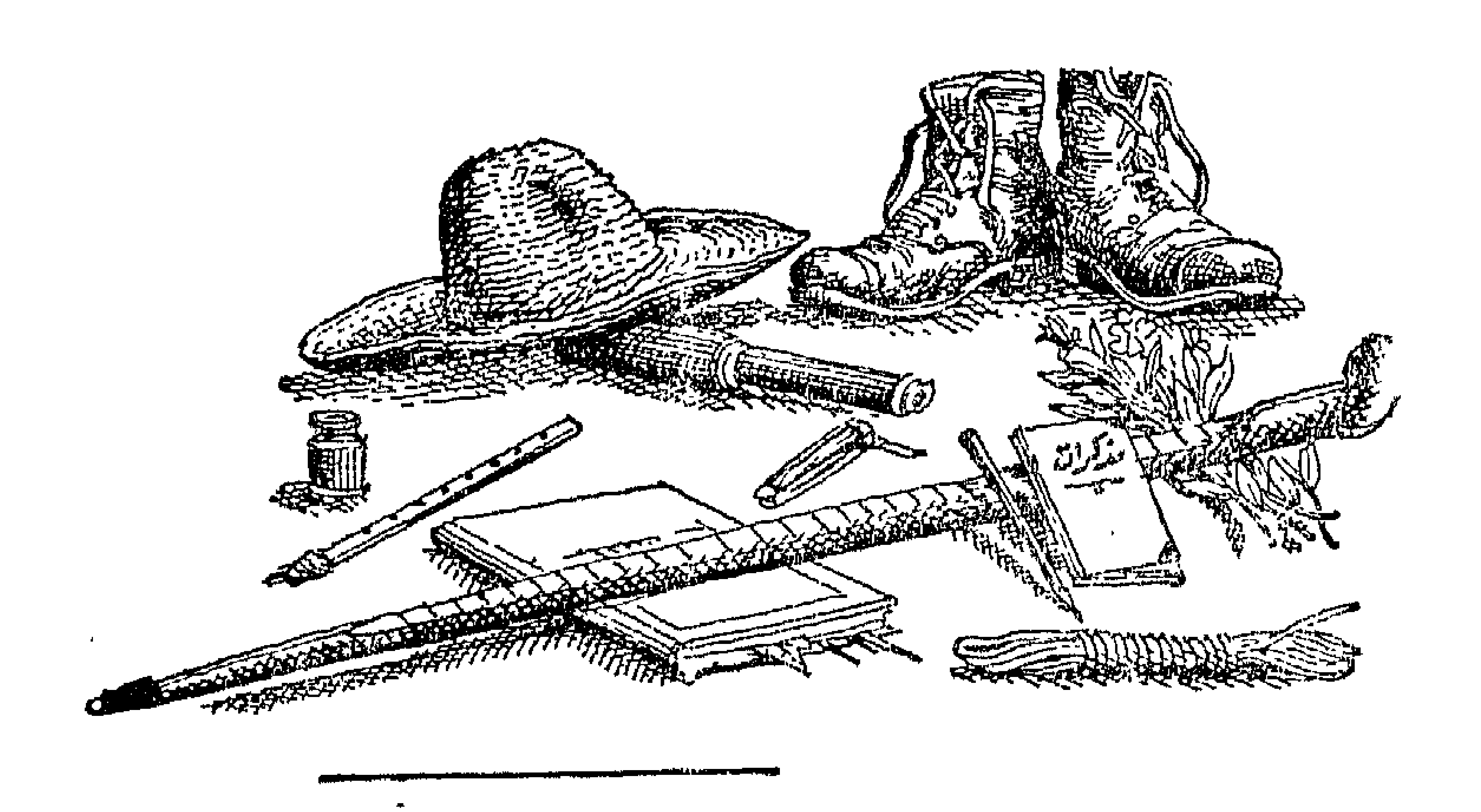
قد كتب معظم أعماله المشهورة وهو شاب ، وعاش بما عرف عن الشباب من عمق الإحساس والأمانة التى لا تعرف المساومة. وكان شابا — شيئاما — عندما مات .

وهذا الكتاب الذى يدين بالكثير لكل ما كتبه الكاتبون عن ثورو ، ممن ذكرنا أسماءهم فيما سبق ، أو سنشير إلى أعمالهم فى مواضعها التالية من كتابنا ، لاشك أنه غير مبرأ من النقائض ؛ إلا أنه — فيما أرجو — محاولة أمينة لتزويد القراء الشبان بصورة صادقة لحياة وأفكار رجل أمين صادق .

وكالمألوف أتجه بشكرى إلى زوجتى إليزابث كريج وود لما بذلته لى من عون فى البحث .

ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن النصوص الواردة فى هذا الكتاب من أعمال ثورو مستمدة من مطبوعة والدن لكتابات هنرى دافيد ثورو الصادرة سنة ١٩٠٦ . وهذه النصوص بإذن خاص من شركة هوتون وميفلين للنشر.

(ج.ب.و.)



الفصل الأول

ولد دافيد هنرى ثورو — وكان ثورو نفسه هو الذى غير وضع كلمات اسمه فيما بعد — فى ١٢ من يولية سنة ١٨١٧ فى قرية كونكورد بولاية ماساشوسيتس . وتقع هذه القرية على بعد عشرين ميلا تقريباً إلى الشمال الغربى من مدينة بوسطن . وجاء ترتيبه الثالث بين الأطفال الأربعة لجون ثورو وسنثيا دنبرثورو . وكانت هيلين كبراهم ثم جون ، ثم هنرى ، ثم صوفيا .

وكان نسب ثورو شديد التباين من جانبى أبيه وأمه . فأسرة أبيه من المهاجرين الفرنسيين والاسكتلنديين ، أما أسرة أمه فمن الإنجليز الذين يدينون بالولاء الذى يربطهم بانجلترا ، وقد استقروا فى نيو إنجلند (أى إنجلترا الجديدة) عدة أجيال ومن أصل اسكتلندى .

واسم أسرة ثورو فرنسى . فعند نقض مرسوم نانت فى سنة ١٦٨٥ ،

ذلك المرسوم الذى كان يتيح للهوجنوت (أى البروتستانت) ، حرية العبادة والحريات المدنية ؛ فر أجداد ثورو الفرنسيون عبر القنال الإنجليزى إلى جزيرة جيرسى .

وهناك عاش جداه الأكبران فيليب ثورو ومارى لوجاليه . ومن هناك هاجر ابنهما جون ثورو جد هنرى إلى أمريكا قبل الثورة الأمريكية مباشرة ، وافتتح متجراً على الطوار « الرصيف » الطويل فى ميناء بوسطن ، ثم نقل متجره بعد ذلك إلى شارع الولاية فى بوسطن نفسها .

وفى سنة ١٧٨١ تزوج جين بيرنز — وهى ابنة لرجل اسكتلندى من أتباع طائفة الكويكر (أى طائفة الأصحاب أو المهتزين) وولد ابنهما جون ثورو الذى أصبح فيما بعد والد هنرى فى الثامن من أكتوبر سنة ١٧٨٧ . وتوفيت جين بيرنز ثورو جدة هنرى لأبيه فى سنة ١٧٩٦ . وهى فى العام الثانى والأربعين من عمرها . وبعد وفاتها بزمن ارتحل جد ثورو الفرنسى — الذى كان قد أصبح تاجراً ناجحاً من تجار نيو إنجلند — إلى قرية كونكورد حيث عاش سنة واحدة فقط ومات فى سنة ١٨١٠ .

وفى سنة ١٨١٢ تزوج ابنه جون ثورو من سنثيا دنبر التى أصبحت فيما بعد والدة هنرى دافيد ثورو .

وأحد أجداد هنرى ثورو من جهة أمه هو الكولونيل أليشع جونز وكان من أثرياء ملاك الأراضى وتجار الرقيق فى جهة نيوتن بولاية ماساشوستس . وكان للكولونيل جونز أربعة عشر ابنا كلهم من أنصار الولاء لبريطانيا الناشطين أثناء الثورة الأمريكية . وكانت النتيجة أن ثمانية منهم نفوا بعد أن تم النصر لأمريكا ، وصودرت جميع أملاك آل جونز .

وحبس اثنان من أولاد الكولونيل باعتبارهما من أعضاء حزب المحافظين فى سجن كونكورد . وهو السجن الذى قضى به هنرى ثورو إحدى ليالى شهر يولية بعد ذلك بجيلين ، وهرب هذان الابنان بعد أن قام بعض أنصارهما بتهريب مبردين إليهما أخفوهما فى الطعام .

وفضلا عن أبنائه هؤلاء كان للكولونيل جونز ابنة اسمها مارى . وقد تزوجت جدة هنرى ثورو هذه من آسادنبر ، المتخرج فى هارفارد سنة ١٧٦٧ ، ثم أصبح أول الأمر ، قسا محفليا فى بدفورد وفى سالم ، وبعد ذلك احترف المحاماة عقب الثورة الأمريكية فى كين بولاية نيو هامبشاير . وبعد وفاة دنبر جد ثورو تزوجت جدته مرة أخرى . وهكذا صارت مارى جونز - التى كان اسمها مدة زواجها الأول مارى دنبر - تدعى مارى مينوت زوجة جونس مينوت المزارع فى كونكورد . وفى بيت جدته هذه ، وهو بيت أشهب غير مطلى فى مزرعة يطل على طريق فيرجينيا القديم عند مشارف قرية كونكورد كانت ولادة هنرى دافيد ثورو . فى ذلك الحين كان والده يحاول بدون نجاح كبير أن يدير مزرعة حماته .

وهؤلاء هم أجداد هنرى ثورو المباشرون . أحد جديه - جون ثورو - مهاجر عميق التدين شديد الجد فى عمله ، حتى لقد ارتقى إلى مكانة مرموقة باعتباره تاجراً بمدينة بوسطن . وجده الآخر آسادنبر كان متخرجا فى هارفارد وقساً ومحامياً ناجحاً . فمن أسلاف ثورو المتعلمون أصحاب المهن الحرة ، كما أن منهم أيضاً التجار ذوى الحصافة . وفيهم المهزوزون مثل بعض أجداده من آل بيرنز . وفيهم أيضاً أهل التحدى والعناد من الموالين لبريطانيا ، مثل آل جونز . وفى وسع ثورو أن يحصى بين أجداده من

يتكلمون الفرنسية ، وكانوا معروفين بالثراء الطائل فى سانت هيلييه بجزيرة جيرسى ، وأن يعتز من جهة أمه بأجداده من الأرستقراطيين ملاك الأراضى فى نيو انجلنـــد . فثورو ينحدر من رجال ذوى بأس ونساء يعرفن ما يردن ، على نحو ما عرف هو فيما بعد ما يريد .

وكان والد ثورو ووالدته مختلفين أشد الاختلاف. فجون ثورو يفتقر إلى همة والده الفرنسى المهاجر أو إلى حصافته ، أو إلى هاتين الخصلتين جميعا . وكان قصير القامة هادئا أصم ، لبث سنوات كثيرة حليف الفشل فى كل ما حاوله من مشروعات متباينة للإثراء . وكان قد نشأ فى مهنة إدارة المتجر ، وتعلم هذه المهنة ومارسها فى بوسطن وسالم ، ولـكنه اقتحم ميدان إدارة المخازن التجارية مستقلا ، وسرعان ما خسر المال الذى كان قد اقترضه من حماته بضمان ضيعة والده ، وهى يومئذ البقية الباقية من تركته . وغادرت الأسرة كونكورد فى سنة ١٨١٨ ، أى بعد مولد هنرى بسنة ، كى يتسنى لجون ثورو أن يجدد محاولته مرة أخرى .

وفى هذه المرة افتتح جون ثورو متجراً فى شلمسفورد بولاية ماساشوستس،حيث اشتغل بطلاء اللافتات وكتابتها أيضا . ولـكى يتاح له أن يبيع المشروبات الروحية فى متجره شهد الدكتور عزرا ريبلى — وهو زوج جدة رالف والدو إمرسون،وكان رجلا قوى المراس وجيه المنظر — بأن جون ثورو حسن السير والسلوك .

وحرر القس الهرم — وهو الذى تولى تعميد هنرى ثورو ، ولهنرى يومئذ من العمر ثلاثة أشهر فلم يبك — شهادة أكد فيهـــا استقامة ابن أبروشيته ، وأنه قديم العهد بإدارة المخازن التجارية من هذا النوع ، وأنه على خلق حسن .

وبديهى أن المتجر المفتتح فى شلمسفورد كسد أيضا ، وأن اشتغاله بطلاء وكتابة اللافتات بعد ساعات العمل لم يدر عليه دخلا يفى بحاجة الأسرة . وسرعان ما اتجه والد ثورو إلى التدريس فى إحدى مدارس بوسطن . وفى بوسطن بدأ هنرى ثورو حياته المدرسية فى مدة إقامة أسرته بشارع بنسكنى . وفى سنة ١٨٢٣ وقد بلغ هنرى السادسة من عمره عاد آل ثورو إلى كونكورد .

وكونكورد قرية نهرية متخلفة وادعة وسط ريف مترام من المزارع وأراضى الغابات ، وكانت تعتبر فى ذاك الحين مكانا عتيقاً له وضعه المقرر الراسخ فى التاريخ . فهى أول بلدة فى ولاية ماساشوستس تأسست فى الداخل بعيداً عن ساحل المحيط الأطلنطى . ولها أهمية تاريخية تتجاوز ذلك أيضاً فبعد المؤتمر الإقليمى الأول لولاية ماساشوستس المنعقد هناك فى أكتوبر سنة ١٧٧٤ ، والمنعقد هناك مرة أخرى فى أبريل سنة ١٧٧٥ ، غدت كونكورد مخزنا للأسلحة والذخائر للثوار الأمريكيين، ومن أجل ذلك زحفت عليها قوة انجليزية قادمة من بوسطن فى ١٩ من ابريل سنة ١٧٧٥ . وبعد الاشتباك الأول من اشتباكات حرب التحرير الثورية بالقرب من لكسنجتون زحف البريطانيون ليجدوا أنفسهم فى مواجهة خمسمائة من المتطوعين المنجدة عند قنطرة كونكورد، وكان قد أثارهم للتجمع والقتال بول ريفير وروفوس داوس فى ركوبهما المشهور . وهناك — على حد ما كتب رالف والدو امرسون فى سنة ١٨٣٧ — « وقف المزارعون على أهبة القتال وأطلقوا نيرانهم التى سمع دويها فى جميع أنحاء العالم » .

وحينما عادت أسرة ثورو إلى هناك فى سنة ١٨٢٣ كانت كونكورد

قـــد غدت مركزا للتقاضى فى مقاطعة ميدلسكس . وكانت كذلك بلدة تجارية تقام بها سوق نافقة ، وتحفل بصفوف طويلة من العربات تجرها الخيول قادمة من داخل الإقليم ، وبعضها قادم من أماكن بعيدة مثل فيرمونت ونيوهامبشاير شمالا ، وتتوقف هذه العربات كل ليلة عند الخانات والحانات فى البلدة وهى فى طريقها إلى بوسطن ، أو منحدرة منها محملة بالسلع والمحصولات . لقد كانت التجارة ناشطة فى متاجر كونكورد عندما يمر بها أصحاب العربات ، وكانت العادة الجارية أن يكافأ العميل مهما تبلغ ضآلة ما يشتريه بكوب من شراب الروم .

وفى هذه المرة قرر جون ثورو ألا يجرب حظه فى إدارة المتاجر ، كرة أخرى ، وبدلا من ذلك شرع فى حرفة صناعة أقلام الرصاص — وهى حرفة كانت قد أنشئت فى كونكورد قبل ذلك باثنتى عشرة سنة على صورة أعمال عائلية — فهى صناعة منزلية تجرى ممارستها فى بيوت عديدة ببلدة كونكورد حيث عاش آل ثورو ، أوفى عريشات ملحقة بهذه البيوت . وفى بعض الأحيان تمارس الحرفة فى البيوت والعريشات معا . ووالد ثورو كان على الدوام صانعا قديرا ، وإن لم يكن على الدوام تاجرا مفلحا ، ولذا كتب له فى هذه المحاولة الأخيرة مزيد من التوفيق . وبدأت صناعة أقلام رصاص ثورو متواضعة فى أول الأمر ، ثم مع ازدياد الربح اكتسبت هذه الصناعة مزيدا من التقدم . وكانت الأسرة لاتزال على شىء من الفاقة ، إلا أنهم استطاعوا بالجمع بين صناعة أقلام الرصاص وتأجير بعض حجرات البيت للنزلاء المقيمين ، أن يتدبروا أمر معاشهم بصورة لا بأس بها .

وكانت سنثيا دنبر ثورو شخصية أشد حيوية وازدهارا من زوجها

بكثير ، فهي أطول منه قامة بمقدار نصف ارتفاع الرأس ، وهي ثرثارة بقدر ما كان صامتا ، وإيجابية بقد ما كان يبديه من السلبية. ولذا كانت الشخصية المهيمنة فى دار آل ثورو ، وكان صاحب ثورو الحديث السن وكاتب سيرته المبكرة ، فرنسكلين بنيامين سانبورن ، يقيم فيما بعد ذلك من السنين بدار تشاننج عبر الشارع . بيد أنه — شأنه فى ذلك شأن كثيرين غيره — أقام زمنا بين نزلاء دار آل ثورو ، ولذا كان فى وسعه أن يتكلم عن دراية مباشرة عن « نشاط مسز ثورو المرح الدائب الذى لا يخلو من خبث » ؛ فهى على ما وصفها سانبورن : « امرأة حصيفة عطوف ، تزينها تقاليد تشى بالعراقة وعواطف سمحة . بيد أن طبعها لا يخلو من ومضات حادة فجائية من الغيبة والخبث الذى لا يرقى مطلقا إلى سوء الطوية » ، ولكن يبدو من لهجة سانبورن أنه كان يشعر أحيانا أنها تقترب من ذلك المدى. ومن المعلوم أن وليم اليرى تشاننج صديق ثورو الحميم وكاتب سيرته الأول لم يكن يحب والدة ثورو على الإطلاق . ونعلم من مصادر أخرى أن مسز ثورو كانت فخورا بسلالتها من آل دنبر وآل جونز وبما تمتلكه من خزف، وكانت مشاءة ، ومحبة للطبيعة ، علمت أولادها هاتين الخصلتين . وكان لها صوت حسن فى الغناء ، وهى مزية تحظى بالإعجاب عادة فى تلك الأيام. ولئن كان لديها ما تقول فى كل موضوع بحيث يفضل كلامها كلام معظم الناس سواها، فقد كانت أيضا يقظة شديدة الطموح فيما يتعلق بأسرتها. فقد وطدت سنثيا ثورو العزم على أن يحصل بنوها على أفضل تعليم ممكن . ودبرت حصولهم عليه فعلا . وكانت تعنى بأناقة ورهافة ملبسها فى سنواتها المتأخرة بقدر ما كان هنرى ثورو مهملا أو يتصنع الإهمال فى كل ما يتعلق بملبسه .

ولئن كانت لسنثيا ثورو منافسة فى لقب أشد نساء كونكورد ثرثرة

فهذه المنافسة كانت الآنسة ماري مودي إمرسون، عمة رالف والدو إمرسون الصغيرة الحجم السريعة البديهة الحادة اللسان . وقد توجهت مسز ثورو مع ابنتها الصغرى صوفيا لزيارة الآنسة إمرسون فى سنة ١٨٥٧ . وفى ذلك الحين كانت والدة ثورو فى السبعين من عمرها . أما الآنسة إمرسون ففى الرابعة والثمانين . وجرى الحديث عن هنرى الذى كان معجبا بالآنسة إمرسون ، وكانت هى راضية عنه . وعندما نهضت الزائرتان للانصراف أشارت الآنسة إمرسون إلى أمر لم يجر ذكره فيما سبق من الحديث إلا أنه كان شديد الوضوح فى حينه، قالت : « لعلك لاحظت يامسز ثورو أننى ظللت مغمضة العينين أثناء زيارتك . وقد تعمدت ذلك حتى لا أرى تلك الأشرطة التى تتحلين بها ، فهى لا تلائم ابنة من بنات الرب ، ولا تناسب سنك » !

ولو أن عمة إمرسون عن لها أن تتحلى بأشرطة صفراء تزين بها قلنسوتها — وهو ما اعتبرته مثار استياء من جانب مسز ثورو — فلعلها كانت حرية أن تتخير هذه الأشرطة ضعفها فى الطول وضعفها فى البريق . وكانت حرية أن تدافع عن اختيارها هذا جماليا ولاهوتياً ، أو على الأقل فندت بنظرة ازدراء أى تلميح بالانتقاد ، لأنها كانت امرأة ذات شموس لا يثنى . فهى عندما يحلو لها ذلك تركب صهوة جواد ركوبا جانبيا فوق سرج من سروج الرجال، وقد ارتدت شالا أحمر زاهيا فوق الكفن الذى أعدته لجنازتها ، وكانت ترتديه عادة . وكونكورد حافلة بالشخصيات المتميزة فى مدة حياة ثورو، مابين شعراء، ومصلحين، ومتعصبين وأعيان قرويين متخطرسين ، وصعاليك سعداء يكرهون الاغتسال ويعاقرون الخمر فى الحانات الرخيصة أو يصيدون السمك على امتداد ضفتى نهر كونكورد . وثمة أيضا أقطاب

من قبيل صمويل هور ودانيال وبستر الذى كان يكثر من زيارة كونكورد وهناك أيضا عمال أيرلنديون يقيمون فى أكواخهم الصغيرة على امتداد الطريق الحديدى ، وحطابون كنديون فرنسيون يسكنون الغابات .

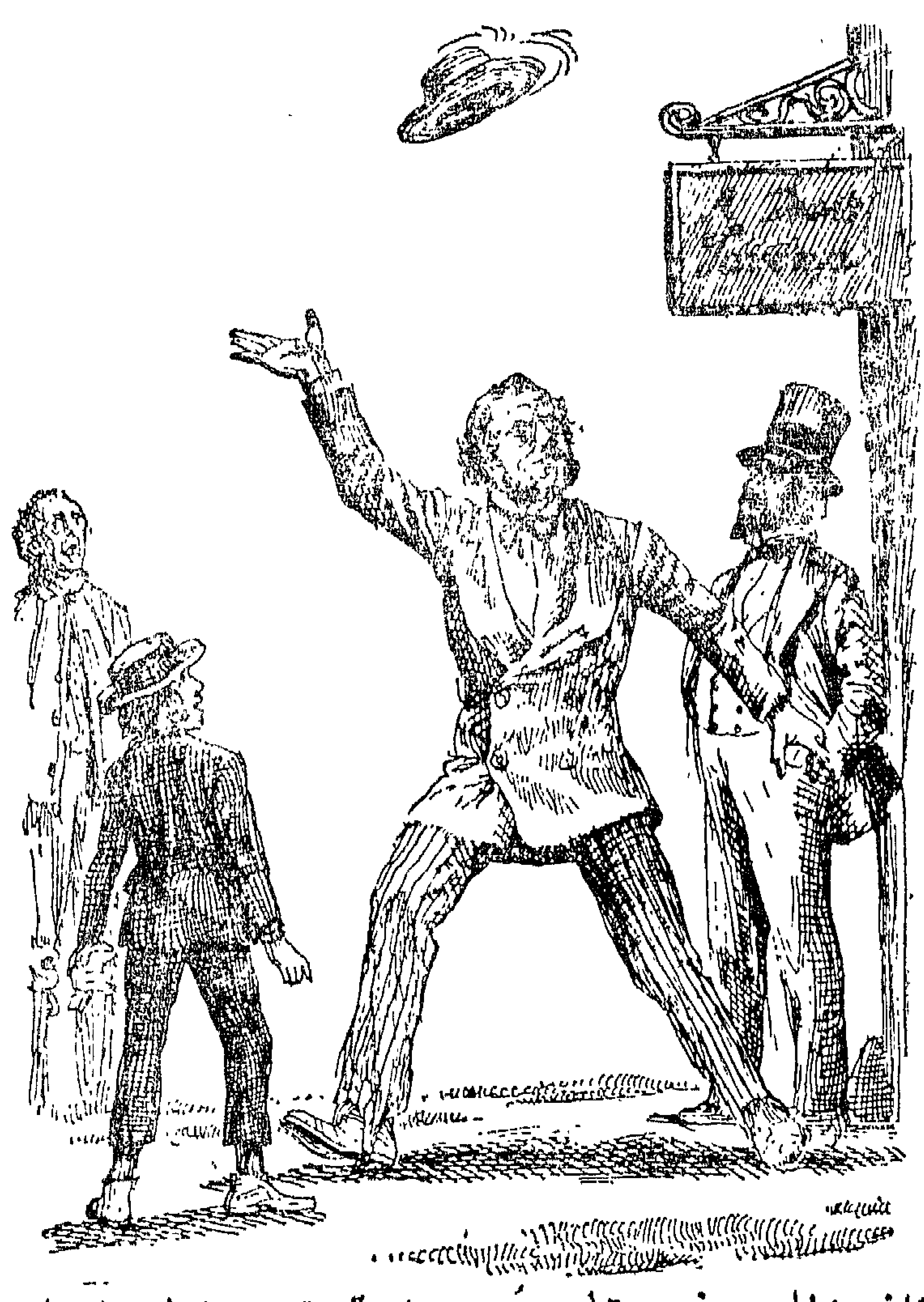
وقد حظى ثورو بشخصية أخرى متميزة بلونها الخاص أقرب من هؤلاء إلى بيته عندما كان غلاما ؛ فقد كانت والدة مسز ثورو وأختاها الخالة سارة والخالة لويزا مقيمات فى كونكورد وكذلك أخوها وهو خال هنرى واسمه تشارلس دنبر الذى كان يتردد على بيت آل ثورو كثيراً . ولم يتزوج تشارلس دنبر إطلاقا ، ويبدو أنه لم يمارس أى عمل فى حياته أو على الأقل لم يمارس قط عملا لمدة طويلة . وما كان أشد إعجاب ابن أخته الصغير به ؛ لأنه كان مصارعا ومشعوذا مشهورا ، فى استطاعته أن « يبتلع أنفه » ! وقـــد علم هنرى كيف يبتلع أنفه كذلك ! و فى الحانة كان بوسعه أن يبتلع ما بين يديه من سكين وشوكة وصحفة ثم يتعهد بإخراجها من فمه مرة أخرى إن أعفاه رب الحانة من ثمن عشائه !

وفى وسع تشارلس دنبر أن يستغرق فى النوم فجأة وهو يحلق لحيته ، كما أنه خليق أن يوقظ ابن أخته بزعقة عظيمة فى منتصف الليل ليضيف عبارة ختامية إلى ما كان بينهما من حديث فى المساء . وفى وسعه أيضاً أن يقوم بحيل أوراق اللعب كالمحترفين . ويستطيع أن يصارع أى شخص مراهنا على إسقاط قبعته ، إلا أنه لم يكن يسقط قبعته أبدا ، بل يرسلها دوارة فى الهواء ثم يتلقاها ببراعة فوق رأسه . ومن بواعث سرور هنرى أيضاً أن خاله لم يكن فى فمه ضرس واحد مفرد ، بل كانت جميع أسنانه مزدوجة ؛ ومع أن تشارلس دنبر كان نجل قس محام إلا أنه لم يكن من

المتنطسين فى الدين ، بل يشرب الجن ، ويتعاطى السعوط . وروى ثورو بإعجاب عن خاله أنه لم يسكر قط ولم يحمل فى جيبه سعوطا اشتراه من ماله قط ، وكان يبتز طباقه من الناس بالحيلة . لقد كان فى دار آل ثورو إذن سرور وضحك ، وغناء وموسيقى ، وهذر وحديث جاد ، وعمل شاق أيضاً . فجون ثورو الخجول غير المغامر كان مشغولا بصنع أقلام الرصاص وبيعها . وكان — كما كتب ثورو عنه بعد ذلك بأمد طويل — خبيراً عارفاً بشارع القرية يتذكر عن أشخاص البلدة أكثر مما يتذكره أى إنسان آخر . ولعل أباه كان يشعر بمزيد من الألفة فى المنطقة التجارية المتوسطة للبلدة ، ويؤثر ذلك الضرب من الحديث الذى يتناقله أصحاب المتاجر فيما بينهم وهم يتفحصون الشارع بأنظارهم تسقطا للعملاء ذلك وهم يكنسون ما يقع أمام متاجرهم من الممرات فى الصباح .

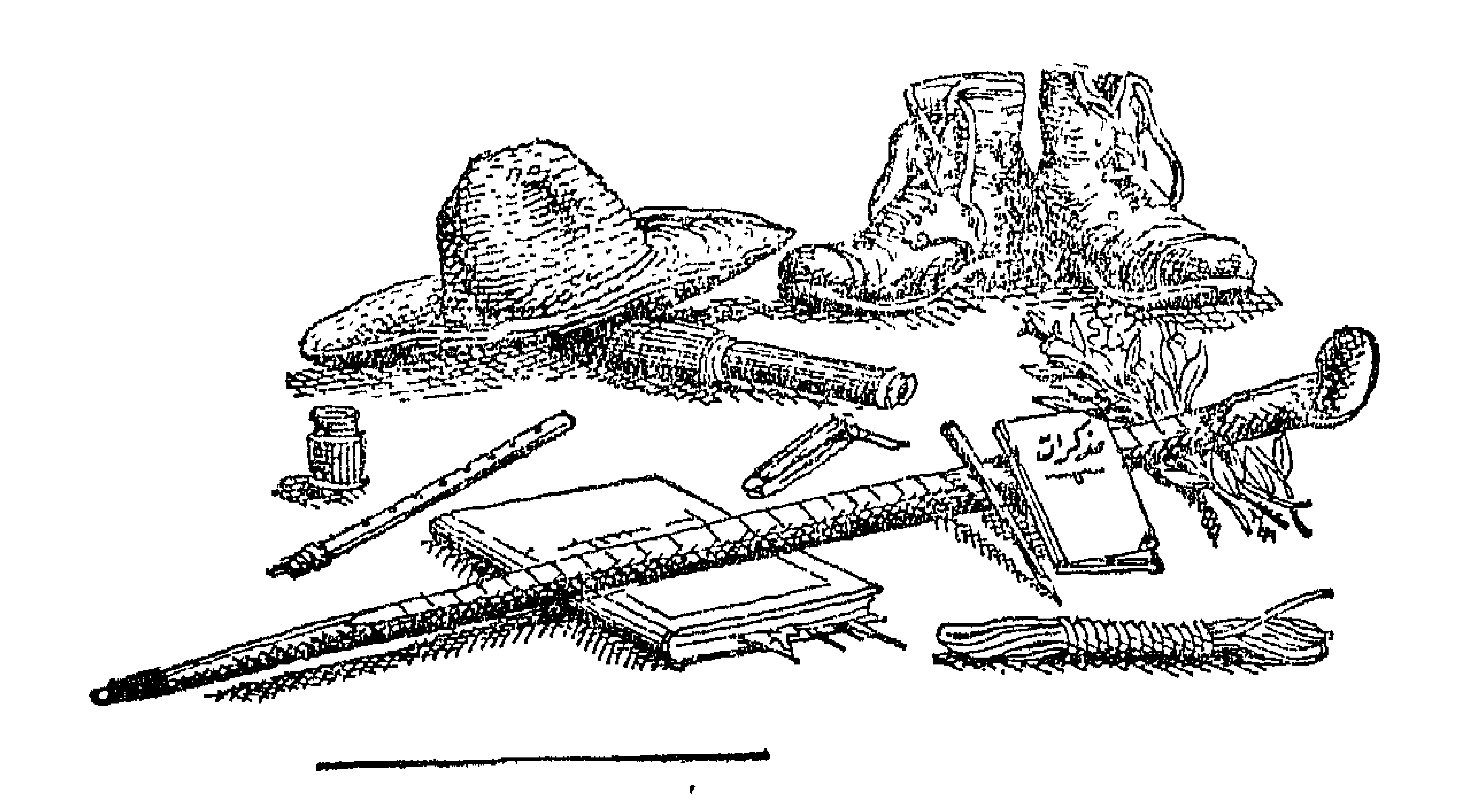
وكانت مسز ثورو تترأس المائدة فى مهابة ، وتتحف أسرتها والنزلاء فى دارها بأحاديث طريفة بهيجة عن أحوال القرية ، وعن الإصلاحات الشعبية (التى كانت تناصرها جميعا) ، وبوابل من التعليقات على المواليد والوفيات بين صفوف الجيران ، وعلى عظة يوم الأحد ، ووصفات تخزين المؤن ، وقضيات آل جونز وخزفهم ، ومساوىء الرق . وكانت الفتاتان هيلين وصوفيا تتأهبان لتصبحا معلمتين . وكذلك شقيق هنرى الأكبر جون المرح الدمث كان يتأهب للاشتغال بالتعليم أيضاً .

وكان آل ثورو من الطارئين على كونكورد نسبيا ، ففى هذه البلدة أسر استقرت بها منذ قرابة مائتين من السنين . إلا أن آل ثورو كانوا



كان شارلس دنبر يستطيع أن يرسل قبعته دوارة فى الهواء ، ثم يتلقاها ببراعة فوق رأسه .

منحدرين من جانب واحد على الأقل من أرومة عريقة فى إنجلترا الجديدة، ولذا رضى الناس عنهم . وكانت الأسرة معروفة بالجد فى العمل وتظن بهـا البراعة فيه مع شيء من حسن الحيلة . وهذا أمر ترضى عنه جماعه أهل البلدة أيضا . فكونكورد الفخور بماضيها الطويل لا تجد بأسا فى شيء من التفرد فى الطباع والخروج اليسير على المألوف . وكانت تلك البلدة أيضاً بسبيل أن يستجد لهـا نخر بالحركات الثقافية الجديدة البازغة فيها .



الفصل الثانى

ومع أن ثورو جعل من جميع كتاباته سيرة ذاتية لنفسه الباطنة وأفكاره وانفعالاته وملاحظاته عن الطبيعة ورحلاته ، إلا أنه لم يكتب إلا القليل عن أحداث طفولته الواقعية . وكان يميل فى المرحلة المتأخرة من حياته إلى الاعتقاد بأنه كان طفلا حقيقيا للطبيعة ، يعيش على وفاق واتساق مع عالمها الفطرى فى ضرب من الفرح الغريزى . وكانت ذكرياته عن طفولته تتخذ صورة التوافق والاتحاد فى نشوة مفراح مع الأرض والسماء .

وفى زمن طفولته كانت شعائر ومراسم المتطهرين (كبار البيوريتان) الخاصة بيوم الأحد لم تزل مرعية رعاية دقيقة فى بلدة كونكورد ، فمن غروب الشمس فى يوم السبت ما كان ليسمح للأطفال باللعب أو تسلية أنفسهم على أى وجه من الوجوه التى كانت تعتبر يومئذ غير لائقة وكان كل شىء تقريبا يعتبر غير لائق — بسبب الرب . وقد كتب ثورو فى هذا

الصدد : « عندما كنت وأنا حديث السن أجبر على تمضية يوم الأحد فى البيت من غير أن أستعين على تمضيته بالكتب المثيرة لاهتمامى ، كان من عادتى أن أقضى ساعات طويلة حتى موعد غروب الشمس المرتقب بلهفة فى ملاحظة طائر الخطاف فى تحليقه وتحويمه » . وملاحظاته عن الأشجار والأزهار وحياة الطير والحيوان التى تكونت لديه ونمت أثناء نزهات الأسرة على الأقدام،أو أثناء هذه النزهات مع والدته وخاله تشارلس ، ترجع بدايتها إلى تلك المرحلة المبكرة . بل إن لديه ذكريات أقدم من هذا عهداً عن حياة الطير ؛ فهو يذكر مثلا أنه رأى سرباً من الأوز يقوم باستعراضاته أمام الدار التى ولد بها ، وهى الدار التى غادرها آل ثورو وعمره يومئذ سنة واحدة !

والكثير من معارفه التالية لذلك العهد ، تلك المعارف التى تكاد تربطه بصلة الرحم بالحقول والغابات ، بدأت فى صباه الباكر ، فغدا سباحاً مجيداً وأتقن الانزلاق على الجليد والجرى وصار نوتياً نهرياً بارعاً فى ملاحة الزوارق . وقد علق إمرسون على براعته فى هذه الفنون كلها ، وأبدى هاوثورن دهشته لمهارة ثورو فى تسيير زورقه . وقد شرع ثورو منذ سن باكرة فى صيد السمك والقنص ، وفى دراسة الغابات والحقول والجداول على نحو ما ينبغى للقناص وصياد السمك أن يعرفهـــا . وكتب فى ذلك يقول : «إن شغف الصبى من أبناء الريف يجب أن يكون مقسما بين الساعة والبندقية. بيد أن من هم أوفر نشاطاً ورجولة يؤثرون حمل البندقية . وقد غبر على زمن كنت أحمل فيه بندقية فى يدى طول النهار وأنا ماض فى رحلة طويلة من غير أن أشعر بثقلها يبهظنى ، وإن لم أستخدمهـا فى ذلك الحين مرة واحدة» . وفى مرحلة تالية من عمره أبى ثورو أن يمارس القنص

بالبندقية حتى لا يقتل الحيوانات التى يعرفها معرفة وثيقة . إلا أنه ثابر على صيد السمك معترفاً بما فى ذلك من تناقض

بل إن ثورو أبدى وهو فى سن أحدث من فترة صباه التى تعلم فيها إتقان القنص وصيد السمك جانباً من السمات التى غدته فيما بعد من مميزات رجولته . فقد قيل له وهو لم يزل بعد فى العام الثالث أو الرابع من عمره مقيما فى تشلمسفورد ، إنه صائر يوماً ما — شأن سائر البشر — إلى الموت، وعندئذ يمضى إلى السماء ، فإذا به يعلن — وكان قد عاد لتوه من السير الطويل على الساحل — أنه مصمم على ألا يقع له شىء من ذلك . لأنه لا بد أن يأخذ معه إلى السماء زلاقته ، ولما كانت إطاراتها غير مكسوة بالحديد فلن تكون لائقة لدخول السماء !

وعندما بلغ العاشرة من عمره كان الجد الشديد يبدو على سحنته ، حتى لقبه الغلمان الآخرون : « القاضى » بل وكان فيه أيضاً شىء من صفات ذلك الرواقى الذى سوف يكتب إمرسون عنه بعد ذلك بسنوات طوال . فقد كان فى مقدوره أن يفعل ما يفعله الهنود الحمر الذين درسهم وأعجب بهم طيلة حياته من الاقتدار على كبح مشاعره ، أو عدم السماح لها بالإعلان عن نفسها . فقد حدث ذات مرة عندما احتاج إلى نقود لمصروفه الخاص أن حمل دجاجاته المدللة ليبيعها لصاحب خان . وكى يتسنى لرب الخان رد السلة التى أحضر فيها الصبى الدجاج إليه ، عمد إلى إخراج الدجاجات ، ثم جعل يقصص أعناقها واحدة واحدة أمام الصبى المصدوم ، فلبث يرقبه دون أن ينبس .

وكان ثورو يشبه أباه فى مهارته اليدوية ؛ فقد طلب إليه أحد رفاق

لهوه أن يبرى له قوساً ونشاباً ، ورفض ثورو طلبه ببرود ، ولم يشأ أن يفصح عن السبب عندما ألح عليه فى ذلك . فقد أبت عليه كبرياؤه أن يعترف بأنه لا يملك مبراة . وكان شأنه فى ذلك شأن رالف والدو إمرسون فى صباه قبله بأكثر من اثنتى عشرة سنة يقتاد بقرة أمه إلى المرعى ذهاباً وجيئة ؛ فقد كانت هذه المهمة توكل إلى معظم صبيان القرية .

وقد بدأت حياة ثورو المدرسية الأولى فى بوسطن ، ثم استؤنفت فى المدرسة القروية بكونكورد . ولم يكن هذا التعليم كافياً فى نظر أمه الطموح ، فساقت جون وهنرى معاً إلى مدرسة للبنات ليتلقيا تعلما فيما بعد ساعات الدراسة الرسمية . ومن هذه المدارس الأولية مضى ثورو إلى أكاديمية كونكورد التى تأسست سنة ١٨٢٠ وكانت مدرسة جيدة تلقى فيها تعلما أساسياً راسخاً فى اللغتين اللاتينية والإغريقية اللتين كانتا ضروريتين لدخوله جامعة هارفارد .

ولا بد أن قرار إرسال هنرى إلى جامعة هارفارد كان قراراً هاماً طالت مناقشته فى بيت آل ثورو . ولا بد أن الإعداد الفعلى لما كان حرياً أن يحتاج إليه هناك من الملابس والمقتنيات الأخرى كان شيئاً مثيراً ومزعجاً معاً للصبى الذى أزمع أن يغادر بيته للمرة الأولى . وكان ثورو يتطلع إلى مغريات كمبردج ، إلا أنه كان شديد التعلق ببيته وبلدة كونكورد . وكان شغفه بالكتب قد اشتد ، وهارفارد تعنى فى نظره ثروة من الكتب ، بيد أنه كان يحب أيضاً العالم الدافىء الذى عرفه . ولعله مثل كثيرين سواه — كان لا يثق بالعالم الخارجى البارد الذى يجتذبه وينفره فى آن واحد . ثم إن المسألة تعنى كفاحاً مالياً عنيفاً بالنسبة لهم جميعاً . أجل لقد حصل على منحة دراسية مما يبذل لذوى الحاجة من الطلاب ، وقد سدت هذه المنحة

جانباً من نفقاته ، إلا أن والديه وخالاته وأخته هيلين التي كانت قداشتغلت عندئذ بالتدريس فعلا ، كان لا بد لهم جميعاً أن يمدوا يد العون ، وهكذا دخل ثورو جامعة هارفارد فى سنة ١٨٣٣ .

وفى العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣٠ — ١٨٤٠) لم يكن يدخل الجامعة من الشباب على الإطلاق غير عدد قليل نسبياً ، وإنما كان معظمهم يتدربون على المهن المتباينة ، كما كان ثورو حرياً أن يتدرب ، أو يمضون مباشرة من المدارس الدنيا إلى العمل فى تجارة الأسرة أو زراعتها. فمن كانوا يمضون إلى الجامعة ؟ كانوا الصفوة والخلاصة من أبناء الأثرياء ، أو أبناء الأسر التى عرف أفرادها بالتبحر فى العلم من بين القسيسين . وكلية هارفارد فى كمبردج عبر نهر تشارلس تجاه بوسطن مباشرة كانت قد بلغت قرابة المائتين من السنين عندما دخلها ثورو . فهى قد تأسست سنة ١٦٣٦ ، وهى بذلك أحدث سناً من قرية كونكورد بعام واحد بالضبط ، فقد تأسست كونكورد فى سنة ١٦٣٥ . وهارفارد أقيمت لتكون مركزاً للاهوت التطهرى (البيوريتانى) يتدرب فيه الشبان على الخدمة الكهنوتية، ولبثت على مدى السنين المركز الثقافى لنيو انجلاند ، فهى عتيقة أرستقراطية ولئن بدت هارفارد بنت ١٨٣٣ بسيطة ساذجة فى أيامنا هذه ، فقد كانت ضاربة فى الحضارة متمرسة محنكة إلى مدى كاف فى تلك الأيام ، فخوراً بامتياز كليتها وبروز شأن كثيرين من المتخرجين فيها ، ومكانها المرموق فى المحيط الأكاديمى .

وتختلف المصادر حول سنوات ثورو الأربع فى الكلية . أما أنه كان جاداً وطالباً مجداً فى المواد التى تثير اهتمامه ، يقرأ قراءة واسعة المدى متعمقة ، فذلك واضح من الموضوعات الجامعية التى كتبها ومن الرسائل

التى كتبها زملاؤه فى الدرس ، والعادات الدراسية التى جرى عليها فى حياته كلها بعد مغادرة الكلية . ويقول هنرى سيدل كانبى إن ثورو كان على الدوام بين فئة الحائزين على مرتبة الشرف فى فرقته الدراسية ، وإنه كان ذات مرة فى عداد الثمانية الأوائل ، وبسبب درجاته العالية كان من بين الطلاب الذين دعوا للكلام فى حفلة الافتتاح . ويقول ف.ب . سانبورن إن ثورو كان فيما يبدو طالبا ضعيف المستوى فى الموضوعات المنصوص عليها فى البرنامج . ويذهب إلى الظن بأن ثورو كان يستملح — ولعله كان يشارك أيضا — فى لون نمطى من ألوان العبث الصبيانى الذى يغرم به طلبة الكلية ، ألا وهو بث الروائح الكريهة فى أرجاء قاعة الدرس المخصصة للكيمياء . وإنه لصحيح يقينا أن درجات ثورو فى عامه الأخير هبطت كثيراً إلى حد تعريضه لفقدان منحته الدراسية .

وكان ثورو بعد كل شىء فتى قرويا من أسرة فقيرة يعرف فئران الجبل والثعالب ، ويعرف كيف يصنع أقلام الرصاص ، وكيف يسوس زورقا مصنوعا صناعة منزلية فى مجرى نهر كونكورد . وخاله علمه كيف يبتلع أنفه ، وكان أنفاطويلا معقوفا اوهى مزايالاتكاد تقع موقعا حسنامن أقطاب هارفارد أو تحببه إلى نفوس زملائه فى الدرس من الآخذين بنصيب من الرقى المدنى ، فليست لديه ما لكثيرين من معاصريه من عدة قوامها آداب السلوك والثياب المناسبة. ثم هو يفتقر إلى كياستهم الاجتماعية ولا نكاد نشك فى أن ثورو كثيرا ما شعر بعدم الارتياح فى هارفارد . ونحن أقل شكا فى أن هنرى ثورو — وهو من هو — كان يحاول إخفاء حرجه تحت قناع من التظاهر بالاستقلال والتباعد ، وربما أيضا بالضراوة . فثورو المفطور

على الـكبرياء كان يشعر بلا شك بأنه ند لخير زملائه ، ولـكن لعله أيضا كان يعلم أن هذه الحقيقة غير واضحة لـكثيرين من الناس عداه .

وثورو — بقامته القصيرة ، وكتفيه المنحدرتين ، وذراعيه الطويلتين، ورجليه القصيرتين القويتين ، مع ضخامة فى يديه ورجليه — لم يكن جذاب المنظر . وكان أنفه الطويل المعقوف ينحنى فوق شفة عليا رخوة ، ثم هو يرتدى سترة خضراء رثة — لعله لا يملك سواها — لممارسة التدريبات فى ملاعب الـكلية بدلا من السترة السوداء المطلوب من التلاميذ أن يرتدوها. لذا وجده زملاؤه فى فرقته شخصا غريب المنظر ، يذرع فناء الـكلية بخطوة متخطرة كتلك التى يتخذها الهنود الحمر فى سيرهم ، ويبدو متحفظا قليل الاكتراث .

وكان ثورو يمشى وعيناه البارزتان الرماديتان الضاربتان إلى الزرقة مطرقتان إلى الأرض . وإذا مد يده للمصافحة أحس من يصافحه بها ندية رخوة ، ولا يثبت نظره فيمن يحدثه ، بل كأنما يخترقه بنظراته ويتجاوزه إلى ما وراءه . وفى بعض الأحيان كان يبدو وعلى شفتيه ابتسامة تـكاد تنم على الرضا عن النفس وكأنه يزدرى الناس . وكان من العسير أن يفطن الناظرون إلى تلك الدرع الواقية التى يتخذها هذا الفتى الحساس — أو لعله مفرط فى الحساسية — ويرتديها بطريقة عجلى . فعندما كان دافيد هنرى ثورو فى مسقط رأسه كان يبدو فى نظر الناس فتى لامعا من أسرة موهوبة. أما فى هارفارد فهو نـكرة ، بيد أنه « نـكرة » مصمم على أن يسلك طريقه الخاص إلى غايته الخاصة .

ودرس ثورو الإغريقية واللاتينية والفرنسية . وكان مدرسه فى الألمانية هنرى وادزورث لونجفلو فى مفتتح حياته التعليمية فى هارفارد

على أثر عودته من إقامته الثانية خارج البلاد ، وكانت الرياضيات والجدل مواد إجبارية ، وكان ثورو — على عادته السابقة فى كونكورد — يقرأ قراءة متصلة لهوايته الخاصة ، لذا كان يرتاد مكتبة هارفارد التى ظل مثابراً على استخدامها على طول حياته مطالعا بدأب خاص وعمق آثار الشعراء الانجليز ابتداء من تشوسر إلى العصر اليصاباتى .

ويبدو أن ثورو كان يتردد أثناء إقامته فى هارفارد على موطنه قدر المستطاع ، فلم يكن ذلك الموطن يبعد على كل حال أكثر من عشرين ميلا تقريبا ؛ ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الراحة هناك ، ويشعر بحاجته إلى ما تبثه فيه من الثقة روح القرية والغابات والحقول والنهر . وفى سنة ١٨٣٦ توجه إلى رحلة لتوزيع أقلام الرصاص مع أبيه إلى نيويورك ، وذلك ضرب من النشاط الخارجى لا يكاد يظفر بالرضا عند صفوة أهل المجتمع فى بوسطن وكمبردج ، ويبدو أن هذه الزيارة كانت أول لمحة يحظى بها ثورو من تلك المدينة التى زارها مرة أخرى بعد ذلك ببضع سنين ، ومال إليها لأنها — على حد قوله — قدمت إليه شيئا يصب عليه كراهيته.

وأثناء الإجازات كان ثورو يعلم فى مدارس مختلفة فى البلدان الصغيرة القريبة من موطنه كى يحصل على ما يحتاج إليه من المال . وفى ديسمبر سنة ١٨٣٥ علم فترة أطول من المعتاد ، وكان من المسموح به فى ذلك الحين لطلاب هارفارد الحاصلين على منح دراسية أن يتغيبوا فترة طويلة واحدة يزاولون فيها التعليم . وذهب ثورو إلى كانتون بولاية ماساشوستس حيث علم فى مدرسة بها سبعين تلميذا . وقد أقام تلك المدة فى كانتون فى دار القس المحترم اوريستيس أوغسطس براونسون الذى كان قد اطلع على مؤهلاته وزكى ثورو لهذا المنصب . وقد وجد ثورو فى

براونسون رجلا فذ لبه ، وقدح فى ذهنه وأفكاره الشرر من مخيلته . فبراونسون ابن فيرمونت البالغ طوله ست أقدام (١٨٠سنتيمترا)، والذى لم يتلق سوى تعليم رسمى يسير ، كان مفكرا راديكاليا من أنصار الحرية ومصلحا متحمسا . وكان قد نبذ الكنيسة المسيحية واعتنق مبادىء الكنيسة العالمية . ثم بعد ذلك تركها إلى كنيسة الموحدين . فهذا الرجل كان شديد الضيق بالمذاهب والعقائد المقفلة ، ولذا كان ينأى بنفسه فى كل مرة من هذه المرات عما كان يعتبره أغلال الدين ليقترب مما يعتقد أنه لباب الشعور الدينى ومغزاه الحقيقى . وفى الفترة التى عاشها ثورو معـــه كان الاثنان يتحدثان معا حتى موهن من الليل ، وكان براونسون فى ذلك الحين يضع الخطة لإنشاء وتنظيم كنيسة خاصة به من بين العمال فى بوسطن . وكان مشغولا أيضا أشد الانشغال بتدبيج كتابه الأول الذى هاجم فيه الكاثوليكية والبروتستانتية معا ونادى بإقامة « كنيسة المستقبل » .

ولابد أن الفارق الكبير بين براونسون النارى والأساتذة المحافظين ذوى الوقار البارد فى هارفارد قد صدم هنرى ثورو وهزه بشدة وهو فى الثامنة عشرة من عمره . وتبين له أن قواعد هارفارد ليست القواعد الوحيدة فى الدنيا . وهكذا كانت الأسابيع الستة التى قضاها مع براونسون — كما كتب إليه على أثر تخرجه بوقت قصير — فترة حاسمة بارزة فى حياته ، بمثابة يقظة أو فجر يبشر بيوم جديد .

ولابد أن كمبردج بدت جافة عقيما فى نظر ثورو بعد هذا الوابل الهتان الذى حظى به من لدن براونسون. فهارفارد تمثل الموافقة والامتثال للعرف السائد ، وبراونسون ينادى بالتغيير والتفكير المستقل ، وبمـــا يعتقد أنه يمكن أن يكون عالما أفضل . وقد سلخ ثورو فترة وجيزة فى

صحبة هذا الرجل القوى الذى يسيطر على سامعه بحديثه . وها هو ذا الآن ينبغى له أن يرتد طالبا مطيعا يدبج بعناية مقالات فى مستوى عادى عن الموضوعات التى يعنيها الأستاذ الجبار ادوار تيرل تشاننج . وعليه أن يرد إلى ذلك المعلم المدقق الحاد فى نقده ذلك الطراز من المنطق والأفكار الذى يعلمونه فى هارفارد ويطالب تشاننج تلاميذه به .

وفى خلال سنته النهائية لزم ثورو البيت مريضا فترة من الزمن ، فلما عاد إلى كمبردج هبطت درجاته عن المعتاد ، ولعل السبب فى ذلك شىء آخر غير مرضه . فهو قد التقى فى شخص براونسون برجل يضاهيه فى الاستقلال، وتراءت له لمحة من عالم جديد. فلعل جانبا من عزوفه عن السير فى طريق هارفارد المطروق قد نجم عن هذه الإثارة ، مثلما نجم عن ثبوط الهمة نتيجة مرضه.

وكائنا ما كان السبب ، فقد بات الموقف المالى لهذا الطالب المعوز حرجا . وتلبية لرجاء مسز ثورو (والدة هنرى) قام رالف والدو إمرسون — الذى كان قد استقر فى موطن آبائه كونكورد منذ سنه ١٨٣٥ — بالكتابة إلى يسوع كوينسى رئيس هارفارد متشفعا لثورو. وقد رد الرئيس كوينسى بخطاب مهذب على خطاب إمرسون فى ٢٥ من يونية سنة ١٨٣٧ ، وجاء فى هذا الخطاب أنه مستعد لارجاع إخفاق ثورو فى المحافظة على المنحة الدراسية إلى مرضه الأخير . إلا أن ثمة إهمالا ملحوظا من جانب ثورو لدروس الكلية ، مما جعل معلميه يرفعون عنه التقارير بأنه لا يكاد يبذل جهدا ، أو لا يبدى ميلا على الإطلاق لبذل الجهد فى دراسته . وبرغم هذه التقادير المضادة كتب الرئيس كوينسى إلى إمرسون بأنه قد فعل كل ما فى استطاعته لثورو . وكانت النتيجة أن حصل ثورو على خمسة وعشرين دولاراً من المنحة الدراسية ، فى حين كان الحد الأقصى أربعين

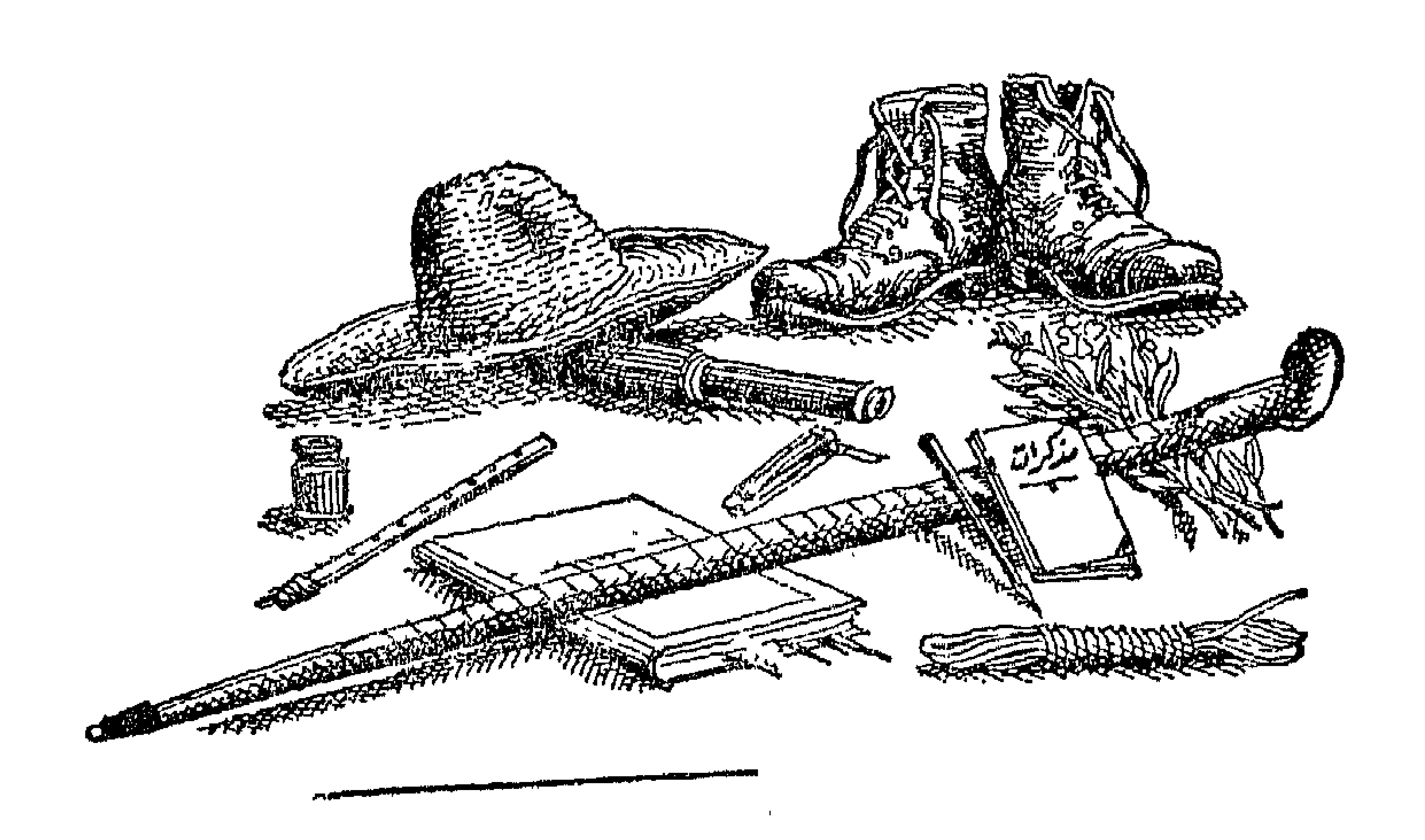
أو خمسة وثلاثين دولاراً . وكانت هذه المبالغ بطبيعة الحال تساوى فى سنة ١٨٣٧ أضعاف قيمتها اليوم مرات كثيرة .

وقد أتيحت لثورو أول فرصة كى يذيع على الملأ أفكاره ومشاعره الحقيقية فى حفل افتتاح العام الدراسى فى هارفارد يوم ١٦ من أغسطس سنة ١٨٣٧ وهاك ما كتبه وتلاه على الناس :

فليحرص الناس — مخلصين لطبائعهم — على تنمية ميولهم الأخلاقية ، كى يعيشوا حياة مستقلة حافلة بالرجولة . . فلا يأسن البحر، وتسترد الأرض خضرتها كسالف عهدها، ويظل الهواء طلقا نقيا . إن العالم العجيب الذى نقطنه يتصف بالغرابة أكثر مما يتصف بالملاءمة ، ويتصف بالجمال أكثر مما يتصف بالفائدة ، وهو أجدر بالإعجاب والمتعة منه بالاستخدام . وهذا الترتيب أحرى أن يقلب رأسا على عقب ، فيكون اليوم السابع اليوم الذى يكد فيه المرء ليكسب عيشه بعرق جبينه ، وأما الأيام الستة الباقية فتصبح السبت المخصص للعواطف والروح ، يتفرغ فيها الإنسان للتجوال فى هذه الجنة المترامية والارتواء من هذه المؤثرات والمناعم التى تتكشف عنها الطبيعة الرائعة المجيدة .

وهكذا كان بزوغ ثورو فى صورة تكشف عن خصائص الرجل ومعتقداته وطريقته فى التقرير ، تلك الطريقة التى سيكتب بها فى السنوات المقبلة من حياته . والفكرة المثيرة — بما فى مضمونها من مفارقة شديدة — أنه جابه الناس فى صورة تقريرية بفكرة تتعارض تمام المعارضة مع الرأى السائد المقرر .

وفى هذه الكلمة الوجيزة أيضا يبرز اقتصاده الصارم فى التعبير ، وإلحاحه على خطر الروح والأهمية القصوى للطبيعة ، مما سيقف حياته على مناصرته وفى الكلمة أيضا شىء يذكر المرء بالشاعر وردزورث، وشىء كثير مما يذكر بامرسون ، بيد أن ثمة ما يرجح على ذلك كله من ثورو المتميز فى هذا الإعلان الباكر ، لا عن سلوكه فحسب ، بل وأيضا — سواء قصد ذلك حرفيا أم لم يقصده فى ذلك الحين — عن خطة حياته .



الفصل الثالث

ومهما يكن من شيء فقد أصبح دافيد هنرى ثورو — أو هنرى دافيد ثورو كما شرع يدعو نفسه — متأهبا فى الظاهر كى يبدأ حياته العملية. وهو أسعد طالعا من معظم الناس؛ إذ أعدته لهارفارد أكاديمية كونكورد، ثم أعدته هارفارد للحياة، فصار أهل كونكورد يتوقعون منه جلائل الأمور التى يتوقعها الناس هناك من متخرج فى هارفارد عام ١٨٣٧ .

ولئن كانت صناعة الأسرة إنتاج أقلام الرصاص، فقد كانت مهنة الأسرة هى التعليم، فوالده مارس التعليم فترة من الزمن فى بوسطن، وهيلين كانت معلمة، وشقيقه جون كان معلما، وهنرى ثورو نفسه حصل خبرة فى التعليم أثناء عطلاته وإجازته التى رخص له أن يتغيبها عن هارفارد

وبعد تخرجه فى الكلية بشهر واحد بدأ يعلم فى مدرسة بلدة كونكورد ولبث فى هذا العمل أسبوعين ، لأن هنرى ثورو ألقى بالمنصب فى وجه لجنة مدرسة البلدة على أثر أول مشكلة علنية بينه وبين المجتمع المنظم . فأساطين التربية فى تلك الأيام كانوا يؤمنون أتم الإيمان بالشعار القائل : « إذا أنت لم تستخدم العصا فقد أفسدت الطفل » . ولم يكن هنرى ثورو يؤمن بهذا الشعار . وعندما تسلم مهام منصبه أعلن أنه لن يجلد تلاميذه ... وبعد ذلك بأسبوعين قام مندوب اللجنة بزيارة المدرسة وقال له إنه يجب أن يجلد تلاميذه... ولكى يظهر ثورو استهانته بهذه الوسائل عاقب فى ختام اليوم المدرسى ستة تلاميذ اختارهم حيثما اتفق — ومن بينهم الخادمة التى تعمل فى بيته — ثم انصرف .

ولما كان قد أخطر لجنة المدرسة فى ثورة بأن عليهم أن يقوموا بالتدريس بأنفسهم منذ اليوم لأنه لن يقبل التدخل من جانبهم ، فلم تكن ثمة جدوى فى نشدان ثورو منصبا آخر من مناصب التدريس فى كونكورد ، ولذا قضى بقية السنة يساعد أباه فى صنع أقلام الرصاص ثم قرر البحث عن عمل فى مكان أبعد عن بلده ، وكتب فى الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٣٧ إلى اورستس براونسون يسأله العون قائلا : « إنى أنشد العمل مدرسا فى مدرسة صغيرة ، أو مساعد مدرس فى مدرسة كبيرة ، أو ماهو أفضل من ذلك: معلما ومربيا خاصا فى أسرة سيد محترم.. ففى وسعى أن أجعل التربية شيئا محببا للمعلم والطالب معا . . وسوف أكون شاكراً لفضلك غاية الشكر إن تجشمت مشقة إخبارى بأى منصب من هذا القبيل يصل إلى علمك ، وفى وسعى أن أذكر بين كفلائى مستر إمرسون ، ومستر هور ، والدكتور ربلى » .

وقال ثورو فى خطابه ما هو أكثر من هذا القدر بكثير ، ولكنه — شأن أى شاب حديث التخرج — يبحث عن عمل فى أمل وفى مشقة فهو يبدو أشد تواضعا مما كان عند مغادرته مدرسة كونكورد . ولما لم يجد عملا أقرب من بلدة « مين » رحل إلى تلك البلدة فى سنة ١٨٣٨ للبحث عن عمل ، وحمل معه رسالة من الدكتور ربلى موجهة إلى أصدقاء التربية « يزكى فيها الراعى الهرم الشاب ثورو باعتباره مدرسا للفروع العليا فى الأدب المفيد » ، وأعطى أيضاً ذلك الباحث عن العمل قائمة بأسماء القساوسة فى بورتلاند وكيينبونك وكمدن وغيرهما من البلدان المحيطة بمين ، ممن قد يكون نفوذهم نافعا له .

وحمل ثورو أيضاً رسالتى توصية ، إحداهما عبارة عن خطاب رسمى من كوينسى رئيس هارفارد يزكى فيه تلميذه المشكل السابق باعتباره « حسن التأهيل للتعليم فى أى مدرسة عامة أو خاصة ، أو فى أسرة » والتوصية الأخرى كانت خطابا من رالف والدو إمرسون يزكى فيها ثورو بحرارة لدى من عساهم يفكرون فى استخدامه . وقد جاء فى هذه التوصية : « إن لى أعظم الثقة بسجايا مستر ثورو الخلقية وقدرته الثقافية ، فهو عالم ممتاز ، وفيه نشاط ودقة ، وفى حسبانى أن البلدة التى تظفر بخدماته سعيدة الطالع » .

ولم يستطع مثول ثورو ولا تأييد صديقه الشهير وإغراؤه أن يظفرا له بمنصب تعليمى فى مين ، فعاد إلى كونكورد . وخامره الأمل فترة من الزمن أن يعين فى مدرسة بولاية فيرجينيا ، ثم قرر هو وشقيقه جون أن يرحلا للتعليم فى مدرسة بمدينة لويزفيل فى ولاية كنتوكى ، ثم عدلا عن الرحيل .

والبواعث البشرية قلما تكون فرادى ، وأسباب العمل أو الإحجام عن العمل قلما تكون بسيطة . وربما شعر ثورو بالسرور لإخفاقه فى محاولاته بمنطقة مين وفشل خططه لغزو الجنوب ؛ فهو بعقله الواعى كان يبحث عن عمل ملائم أينما تيسر له ذلك ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يحب كونكورد ولا يريد أن يغادرها .

وذات مرة كان قد سأل أمه أى مهنة يختار بعد تخرجه فى الكلية؟ فأجابته باستخفاف : فى وسعك عندئذ أن تحمل حقيبة متاعك على كاهلك وتهيم بعيدا بحثا عن الثروة والحظ فانفجر هنرى باكيا ، وأحاطته أخته هيلين بذراعيها وقبلته قائلة له إنه لن يكون مجبرا على الرحيل بل « ستبقى فى الدار وتعيش معنا » وهذا بالضبط ما صنعه ثورو معظم حياته . فى يونية سنة ١٨٣٨ افتتح مع جون مدرسة خاصة فى دار آل ثورو . وفى السنة التالية نقلا المدرسة إلى مبنى أكاديمية كونكورد التى كانت قد أغلقت أبوابها .

وكان جون مدرسا متمرسا أثيرا لدى تلاميذه ، كافلا لهم . وكان بعضهم يقيمون نزلاء فى بيت آل ثورو . أما هنرى فكان يعلم اللاتينية والإغريقية والفرنسية والرياضيات ، ومرة فى كل أسبوع كان الأخوان المعلمان يأخذان تلاميذهما فى رحلات بين الحقول لدراسة الطبيعة ، وكان ذلك العمل بدعة فى ذلك العصر . ثم إن مدرستهما كانت خالية من العقوبات البدنية فازدهرت ، وسرعان ما امتلأت بخمسة وعشرين طالبا فضلا عن « قائمة انتظار » .

وكانت مدرسة ثورو ماضية فى سبيلها على خير حال حقا عندما قام جون وهنرى فى سبتمبر سنة ١٨٣٩ برحلة فى زورقهما فى نهر كونكورد ،

ثم مصعدين فى نهر مريماك حتى بلدة كونكورد بولاية همشاير الجديدة وكان يبدو أن المدرسة والأخوين ينتظرهم مستقبل زاهر مضمون، ولكن ماحدث كان عكس ذلك المأمول ؛ فلسبب ما — وقد يكون ثمة أكثر من سبب — أغلقت المدرسة أبوابها فجأة فى مارس سنة ١٨٤١ . وما من شك فى أن هنرى ثورو نفسه كان من أهم تلك الأسباب ، فما إن يصنع شيئا على مرامه حتى تزايله الرغبة فى الاستمرار فى القيام به ؛ فعندما تم له استحداث تحسينات فى صناعة أقلام الرصاص أتاحت له إنتاج قلم رصاص ممتاز أزجيت إليه التهانى على ذلك التفوق وعلى ما ينتظر بسببه من ازدهار فى أعمال آل ثورو، وإذا بثورو يعلن ببرود أنه لن يقوم بصنع قلم رصاص من بعد ، وإن كان قد أذعن للضرورات الاقتصادية وصنع أقلاماً أخرى ومن المؤكد كذلك أن سببا آخر قويا من أسباب اعتزال ثورو مهنة التدريس يرجع إلى رالف والدو إمرسون ؛ فالتهمة التى كثر توجيهها وكثر تفنيدها فى كل مرة ، وفحواها أن ثورو كان مجرد تلميذ أو مريد ، وأنه كان مقلدا سخيفا لامرسون ، إنما هى زعم متهافت ؛ فما من رجل أشد استقلالا من ثورو . وعزمه على أن يكون ذاته ، ويحقق ما يريد لا ما يطلبه العالم منه لم يزده مرور الأيام إلا تصلبا . فها هو ذا الشاب قد أصبح رجلا ذا غاية لا يعرف الانثناء عنها .

ومع هذا فمن الحق أيضا أنه لولا وجود إمرسون لجاز ألا يبرز إلى الوجود ثورو مؤلف «والدن» و «أسبوع على نهر الكونكورد ومريماك» ولجاز ألا يدرج إلى النضج إطلاقا ذلك الرجل الذى غاص فى أعماق الطبيعة هذا الغوص حتى أوشك أن يغدو جزءا لا يتجزأ منها ، وعاش حتى وجد نفسه يكتب عن نفسه وعن العالم هذا البيان بتعبيره الرنان ...

ولم يكن رالف والدو إمرسون يعرف ثورو عندما كتب إلى رئيس هارفارد يستشفع له، بل كان يؤدى بذلك خدمة لشاب ترمى إلى سمعه أنه ذو موهبة مثمرة. ولكنه عندما كتب مزكيا له لمهنة التعليم كان قد عرفه، فقد التقى إمرسون الذى كان قد أدركته الشهرة وهو يومئذ فى الرابعة والثلاثين من عمره بابن العشرين ثورو فى عام ١٨٣٧، وهو عام تخرج ثورو فى هارفارد. وكان ثورو قد عرف إمرسون محاضرا وكاتبا، فقد سمعه متحدثا فى لوقيوم كونكورد، وكان قد طالع كتاب «إمرسون» عن «الطبيعة» المنشور فى سنة ١٨٣٦، وكان يعرف أيضا — بل لعله سمع إمرسون وهو يتلو — خطابه فى جمعية «الفلسفة نبراس الحياة» (*) وموضوعها «الجندى الأمريكى»، وقد ألقاه فى هارفارد سنة ١٨٣٧، وهذان العملان (كتاب الطبيعة والخطاب) كلاهما رسالة مثيرة لأذهان الشباب فى ذلك الحين...

ورالف والدو إمرسون ينحدر من سلالة القس المحترم بيتر بلكلى، أول قس بيوريتانى (متطهر) فى كونكورد، وكان قدوم هذا القس من إنجلترا فى سنة ١٦٣٤، وجده القس المحترم وليم إمرسون هو الذى شيد بيت راعى الكنيسة فى كونكورد حيث قضى إمرسون عاما من طفولته، وفيه أيضاً سيقيم هاوثورن ويذيع شهرته تحت اسم «بيت راعى الكنيسة العتيق». أما والد إمرسون قس الكنيسة الأولى القديمة فى بوسطن فكان كاتباً ومحرراً صحفياً أيضاً..

(*) أقدم جمعية أمريكية لأبناء كلية من الكليات الجامعية، وقد تكونت سنة ١٧٧٦ فى فرجينيا أولا، ثم فى ييل وهارفارد، وبعد ذلك فى سائر جامعات أمريكا - وتعرف باسم «فى بيتا كابا» — المترجمة.



كان "رالف والدو إمرسون" مدرسا "لثورو" وجاره وصديقه الكريم

وقد ولد إمرسون بمدينة بوسطن فى ٢٥ من مايو سنة ١٩٠٣ وظهرت عليه أمارات النبوغ منذ باكورة أعوامه . وبعد وفاة والده فى ١٨١١ أصرت عمته المتوقدة الغريبة الأطوار مارى مودى إمرسون على أن يتلقى أولاد أخيها تعليما يعدهم ليكونوا شعراء وخطباء ووعاظا ومفكرين . وكانت هذه السيدة كاتبة ، مما جعل لها تأثيرا قويا فى تفكير إمرسون البازغ وكتابته فدخل إمرسون المدرسة اللاتينية ببوسطن وكان بعد ساعات الدراسة يذهب إلى مدرسة خاصة يتعلم فيها الكتابة . ولما دخل كلية هارفارد فى سنة ١٨١٧ حظى بطعامه وحجرته فيها مقابل عمله ساعيا لرئيس الكلية . وبدأ وهو فى سنته الأولى بهارفارد كتابة يومياته . وبفضل هذه العادة التى ثابر عليها طول حياته — وهى أن يسجل يوميا الأفكار والتخيلات والآراء والنثر والشعر الذى يرد على خاطره . — استطاع أن يجد الينبوع الذى أمده فيما بعد بالمادة التى استخدمها فى محاضراته وكتبه .

وعندما تخرج إمرسون — وكان قد أصبح شاعراً ذا مكانة — افتتح مدرسة لإتمام تثقيف الفتيات مع شقيقه وليم ، وكان قد اكتسب خبرة بممارسة التعليم فى مدرسة عمه فى ولثام أثناء العطلات الجامعية . وفى سنة ١٨٢٥ دخل مدرسة اللاهوت فى كمبردج واعتلت صحته فترة من الزمن فتوجه إلى جورجيا وفلوريدا انتجاعا للعافية . وذهب إلى كونكورد فى ولاية نيوهمشاير ، وهو لم يزل طالبا كهنوتيا ، كى يلقى المواعظ هناك ، وهناك التقى بزوجته الأولى الين تكر . وكانت عروساً لما تجاوز الثامنة عشرة عندما تزوجا فى سنة ١٨٢٩ ، وقد ماتت بعد ذلك بأقل من سنة ونصف سنة . وفى مارس سنة ١٨٢٩ أصبح إمرسون راعيا مساعداً للكنيسة الثانية فى بوسطن . وفى مدى بضعة أشهر أصبح قسيسها .

وكان إمرسون واعظا شعبيا مؤثرا ، إلا أنه منذ كان طالبا فى مدرسة اللاهوت استشعر شيئا من الشك فى صدد مسائل العقيدة . وفى سنة ١٨٣٢ اعتزل منصبه الرعوى على الرغم من احتجاج رعيته لأنه شعر بعجزه عن الاستمرار فى تقديم الأسرار المقدسة بقلب سليم . وكانت هذه نقطة التحول فى حياة إمرسون المفكر والكاتب ، فأبحر إلى أوروبا حيث التقى بولتر سافدج لاندر وجون ستيوارت مل وصمويل تيلور كولريدج . وكان أولئك هم الشعراء والفلاسفة الانجليز فى ذلك العصر . وكان أهم من ذلك فى نظر إمرسون التقاؤه بالشاعر الرومانسى ولم وردزورث ، وكاتب المقالات والفيلسوف الاسكتلندى توماس كارلايل، فى هذين الرجلين المتأثرين بالكتاب المثاليين الألمان وجد إمرسون الآراء والمثل العليا التى شارك فى اعتناقها أعمق المشاركة . وعاد إمرسون إلى بلاده بعد أن تلقى الإلهام والوحى، فسوف تكون مهمته منذ الآن أن يتحدث ويكتب عن الجمال ، وعن روح الإنسان ، وعن الحب والصداقة والواجب ، وعن اتحاد الصوفى بين الله والإنسان من خلال الطبيعة . وشرع يلقى المحاضرات فى هذه الموضوعات على الجماهير المبهورة بما يخرج من فمه فى بوسطن .

وكان إمرسون يؤمن بأن الإنسان مفطور على الخير ، وبمسئولية الإنسان الفرد عن تحقيق ذاته المثلى على أصدق وجه . وتحدث بطريقة شديدة الإيحاء عن هذه الأمور جميعا، فكأنما ينوم الناس بكلامه مغناطيسيا ومحاضراته التى صارت الأساس فيما بعد لمقالاته الشهيرة عن الحب والصداقة والاعتماد على النفس والروح العليا — بل ولكل مقالاته فى الواقع — مستمدة من يومياته ، فهى لا تسير على نهج منطقى من التفكير المتماسك المتصل . وإنما هى إسهام على وجه من الاتساق الموسيقى والعاطفى فى كل

ما كان يعتقده أو يعبر عنه بصدد موضوع ما من الموضوعات فى أزمنة شتى . وعلى حد تعبير أحدهم لا تبدو عبارات إمرسون مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض ، وإنما ترتبط كل عبارة منها باللهعلى حدة . فهو مقنع بإخلاصه وجمال تعبيره أكثر مما هو مقنع بمنطقه وحجته . وما كان الناس يتقاطرون ليسمعوا ماذا يقول إمرسون ، بل ليسمعوا إمرسون وكفى . فوحدة آرائه والمثل التى تؤيدها هذه الآراء ، لا وجود لها فى أفكاره المتفرقة ، بل إنها فى شخصه .

وفى سنة ١٨٣٣ انتقل إمرسون مع والدته إلى كونكورد . وفى شهر سبتمبر سنة ١٨٣٥ تزوج ليديا (وقد حول اسمها إلى ليديان) جاكسون من مدينة بليموث . واشتريا دارا على أطراف البلدة وولد لهما أربعة أطفال ، وقد مات أولهم ، واسمه والدو ، وهو فى الخامسة .

وكان إمرسون يكتب فى الصباح ، ويتمشى بعد الظهر ، ويسمر متحدثا إلى أسرته وأصدقائه فى الليل ، ويحاضر، ثم يحاضر، ثم يحاضر . وكان منبر اللوقيوم ساحة السوق بالنسبة لرجل الأدب والفكر ، وكثيرا ما كان أيضا المورد الأساسى لدخله . فهذه المحاضرات كانت التسلية الشعبية فى كثير من مدن انجلترا الجديدة وبلدانها والمواطن النائية . وكان إمرسون يزورها جميعـــا .

وقد نشر كتابه الأول « الطبيعة » فى سنة ١٨٣٦ ، وفيه قال إن روح الإنسان على اتصال بالله خلال الطبيعة . فالطبيعة ما هى إلا ثوب الرب أو ظله . ولئن كان فى شكل العالم وألوانه كثير من الجمال ، فجماله الحقيقى فى الربوبية الكامنة فيه .

وقد أطلق أوليفر وندل هولمز — الذى حصل على إجازة الطب من

هارفارد فى العام السابق — على خطبة إمرسون التى عنوانها «المثقف الأمريكى» والتى ألقاها فى هارفارد سنة ١٨٣٧ ، لقب « إعلان الاستقلال الثقافى » . وقال لويل عنها إنها حدث لا نظير له فى سجلات الحياة الأمريكية الأدبية ، فهى نداء مثير يدعو إلى الأصالة فى التفكير والكتابة الأمريكيين . وأنذر إمرسون جمهور سامعيه أن ينفضوا يدهم من أوروبا والثقافات الميتة ليقيموا فى أمريكا صلة أصيلة بالآراء والفنون التى تعبر عنها ، ولا سيما فن الكتابة . فالمثقف يجب أن يكون ذا رسالة . يجب أن يكون « الإنسان مفكراً » . يجب أن يدرس الطبيعة ويدرس الماضى ويعبر عن نفسه فى أفعاله. فمهمة المثقف — فى اعتقاد إمرسون — أن يكون عقل العالم وقلبه ، وينبغى لذلك أن يعرف نفسه ويعرف الطبيعة . يجب أن يكون مستقيم النظر شمولى النظرة ، بحيث لا يرى لنفسه فحسب، بل للناس جميعا . وقال إمرسون فى معرض كلامه بلسان المثقفين الأمريكيين «سنسير على أقدامنا نحن ، وسنعمل بأيدينا نحن ، وسنعبر عما يجول بأذهاننا نحن » .

وقد تأثر هنرى ثورو تأثراً عميقا برالف والدو إمرسون ، بل لعل تأثره به كان أعمق مما يدرى ، قبل أن يتاح له التعرف إلى الرجل شخصيا . وقد تم اللقاء بينهما فى سنة ١٨٣٧ عندما تحدثت مسز لوسى براون — وهى شقيقة زوجة إمرسون وكانت نازلة بدار آل ثورو — عما قاله إمرسون فى إحدى محاضراته ، فقالت هيلين ثورو إن أخاها عبر عن مثل هذه الأفكار فى يومياته ، وأحضرت اليوميات وأطلعت مسز براون على الفقرات المشابهة لكلام إمرسون . وكان ثورو قد فعل ما فعله إمرسون الذى كان ينصح الشبان بحياة التوحد وكتابة اليوميات ، فشرع يسجل أفكاره يومياً وهو لم يزل طالباً فى الكلية . وسارعت مسز براون إلى ترتيب مقابلة بين الشاب

وزوج أختها . وكانت قد علمت من أمر هنرى ثورو شيئاً أكثر مما يبدو من ظاهر شأنه . وأخت ليديان إمرسون امرأة جذابة من بليموث يكثر زوجها من الغياب فى أسفاره سعياً فى سبيل أعماله . وكان ثورو ابن العشرين يومئذ نصف مغرم بهذه المرأة فى أخريات الثلاثينيات من عمرها . ولئن كان ثورو ــ شأنه شأن غيره من أمثاله ــ يدعى مزهواً حصانته أمام الوجوه الملاح ، وينحى باللائمة على بلاهة الشابات حليفات المآدب والحفلات ، إلا أنه كان شديد الولع بذوات الجاذبية من النساء كمعظم الشبان ، بل لعله كان أشد قابلية لذلك من الكثيرين منهم . وشأن معظم الشبان أيضاً ممن تجتذبهم امرأة خفيفة الظل كشف عن مشاعره لها ، وهو الحرى أن يخفى تلك المشاعر عن سواها ، أو ينكرها إن اتهم بشىء منها .

ويروى سانبورن أن ثورو كتب فى مايو سنة ١٨٣٧ قصيدة على قصاصة من الورق دسها فى حزمة من أزهار البنفسج ثم قذف بها على طريقة العشاق من خلال نافذة لوسى براون المفتوحة . والمقطوعتان السداسيتان الأوليان من القصيدة تجريان على النحو التالى :

أنا حزمة من الأشواق الذاهبة سدى

ربطتنـــا المصادفة معـا

نمونا هنا وهناك ، وحلقاتنا

واسعة متباعدة

أكبر الظن

لتعيش فى جو أرق

حزمة من البنفسج بدون جذورها

يخالطها نبات الحميض

طوقتها أعواد من الحشائش
كانت يوماً ما تلتف حول سوقها

فكانت القانون
الذى يربط بعضنا ببعض

وعندما نشر ثورو هذه القصيدة فى كتابه الأول بعد إحدى عشرة سنة لم يصف الحادث كما وقع فعلا ، بل قال فقط : « كنت قد رأيت حزمة من البنفسج فى أصيص (زهرية) من الزجاج مربوطة بأعواد من العشب ربطاً غير وثيق ، ذكرنى بنفسى » . وكثيراً ما كان ثورو ينتهج عزل نفسه عن مشاعره الحارة التى كثيرا ما انتابته متصنعاً البرود حتى لا يشى بعواطفه الحقيقية . وتدل هذه القصيدة على تأثره بقراءة الشاعر الإنجليزى جورج هربرت ، ولكنها فى الوقت نفسه اعتراف شاب بأشواقه التى تنزع به إلى ما لا يدرى ، وبمشاعره غير المستقرة .

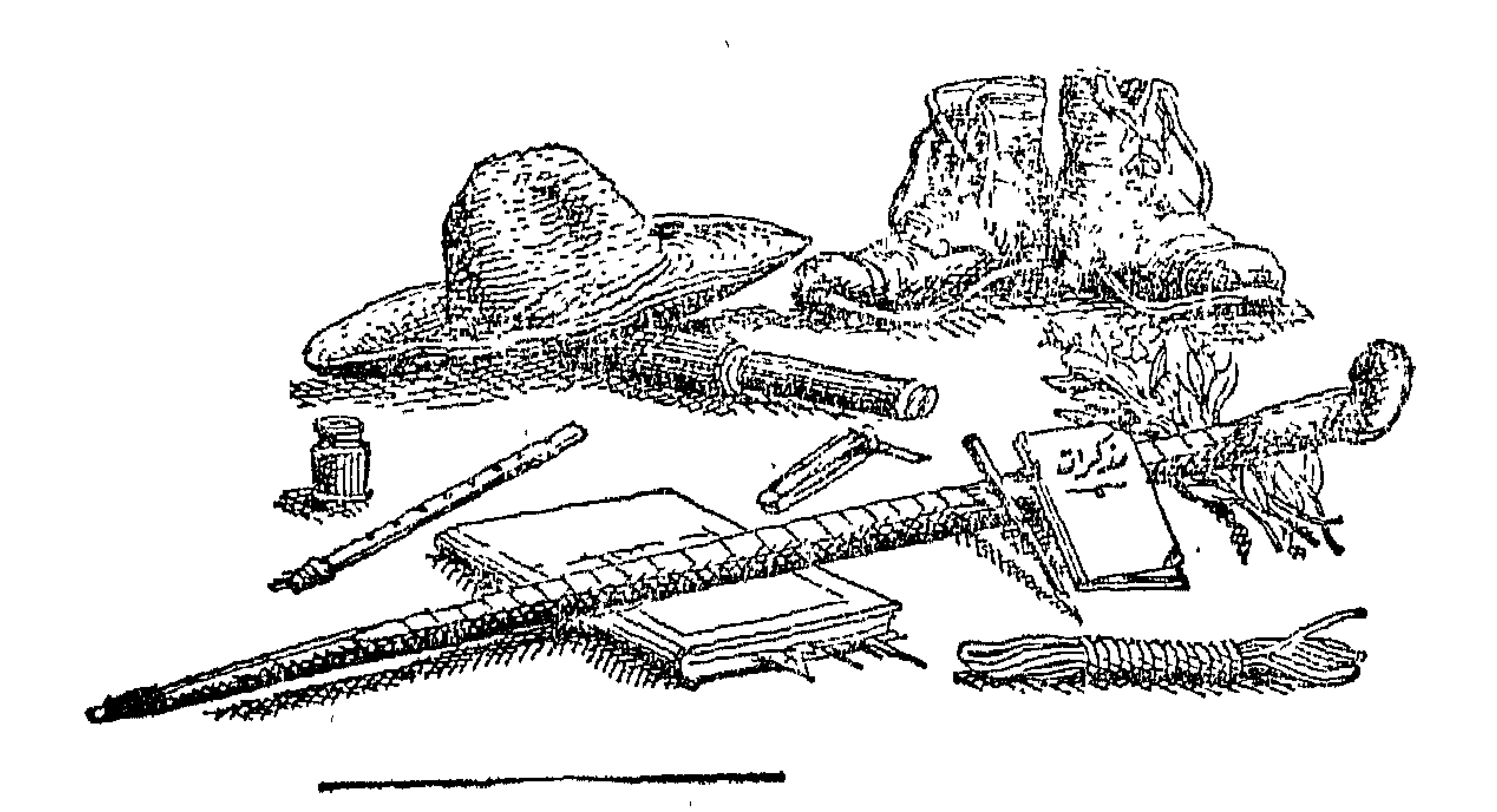
ولما التقى بامرسون ابتهج الرجل بمعرفة ذلك الشاب الذى يصغره بأربعة عشر عاماً وأبهجته القصيدة ووجد فيها باكورة واعدة بأن يغدو ثورو شاعراً . بل وأبصر فيه ما هو أكثر من هذا ؛ فقد وجد فى هذا الشاب حديث التخرج فى الكلية « ذهناً من أشد الأذهان التى قابلها تحرراً وتيقظاً » وسرعان ما أطلق عليه اسم « رجل كونكورد » . وفى أوائل سنة ١٨٣٨ كتب فى يومياته : « لقد جعل هنرى ثورو الطيب فترة ما بعد ظهر اليوم مشرقة دفيئة ببساطته وإدراكه الصافى ، ولولاه لكان الوقت موحشاً . . فكل ما يقوله هذا الفتى يشيع المرح فى الحاضرين ، وإن لم يكن شىء أشد من مضمونه رصانة » .

لقد وجد إمرسون فى ثورو — بصورة غير تامة التكوين بعد — المادة الممكنة للرجل الذى تصوره فى محاضرته عن « المثقف الأمريكى » ، فهاهنا يمكن أن يلتقى البصير بالفعال والشاعر اللصيق بالطبيعة . وكان إمرسون على دأبه المعلم الجواد ببواعثه وأعماله . فابتهج بهذه الفرصة المواتية لصياغة فطرة أصيلة وتمكينها من النمو ، وقد رأى فيها مستقبلا أدبياً عظيما مرجواً .

وفى وسعنا أن نقارن مقابلة ثورو لإمرسون بنبذ إمرسون للكهنوت ، فقد كانت هذه المقابلة نقطة التحول فى حياة ثورو ، على نحو ما كان اعتزال إمرسون لمنصبه الرعوى فى الكنيسة الثانية ببوسطن نقطة التحول فى حياته وكل الفرق أن هذا التحول حدث فى حياة ثورو فى فترة مبكرة عشر سنوات عن أوان حدوثه فى حياة إمرسون ، وأن إمرسون شق طريقه بنفسه ، وأما ثورو فوجد منذ ذاك الحين فى شخص إمرسون المشجع والحامى ، فتفتح ثورو وترعرع فى مجتمع إمرسون ومجتمع غيره ممن اجتذبهم إمرسون إلى كونكورد ، ولابد أن ثورو قد استشعر مالاسبيل له إلى التعبير عنه من جيشان نفسه وفرط سعادته .

وكان إمرسون بهيئته الهادئة المطمئنة وشهرته النامية وثقته بالعالم الأثيرى الذى يعيش فيه ويحلم بمثابة النبى والعبقرى والرائد للفكر الأمريكى المثالى والشاعرى على نحو لا يكاد يستقيم فهمه اليوم ، ولعله لم يكن مفهوما تمام الفهم يومئذ ، وحضر ناثانيل هاوثورن — الذى كان دائما ثاقب الملاحظة — فأقام مع عروسه فى بيت الراعى القديم بكونكورد سنة ١٨٤٢ . وقد اكتشف فى إمرسون مفكراً أصيلا عظيما يستهوى تأثيره المستفيض رجالا من جميع الأشكال ومذاهب الرأى .

وقد كتب هاوثورن فى سنة ١٨٤٥ — على نحو ما رواه سانبورن عنه:
« إن عقله يؤثر فى العقول الأخرى ذات التكوين المعين تأثيراً مغناطيسيا رائعا حيث يجتذب رجالا منهم كى يحجوا إليه بأسفار بعيدة ليتحدثوا إليه وجها لوجه . فثمة شبان من أصحاب الرؤيا يرون فى موهبة البصيرة المستبطنة التى أوتوها وسيلة لجعل الحياة من حولهم متاهة ، فهم يأتون إليه يلتمسون الدليل الذى يهديهم للخروج من تيههم الذى فرضوه على أنفسهم . وثمة أصحاب نظريات شابت نواصيهم وقد كبلتهم النظم الفكرية التى ابتدعوها داخل نطاق حديدى ، فهم يتجشمون السفر ليطرقوا بابه ، لا ليسألوه الخلاص ، بل ليوجهوا الدعوة إلى الفكر الحر كى يدخل فى إسار رقهم . وثمة أناس هبطت عليهم فكرة جديدة أو خيل إليهم أنها جديدة يأتون إلى إمرسون كما يهرع من يعثر على خرزة متألقة إلى خبير الأحجار الثمينة ليستوثق من كنهها وقيمتها .



الفصل الرابع

وكان إمرسون قد عاون فى سنة ١٨٤٦ على تأسيس جماعة «المأدبة» (*) التى أصبحت تعرف فيما بعد باسم « المنتدى الترانسندنتالى » ، وهى جماعة كانت تلتقى فى بيته للتحدث فى شئون الحياة والكتب والآراء والمثل العليا . وما من أحد وفق إطلاقاً فى تعريف الترانسندنتالية الاستشرافية . فأصل المادة فعل معناه الارتفاع فوق مستوى الحدود المعتادة ، وبذلك تكاد الترانسندنتالية أن تكون بهذا التحديد مستعصية على كل تحديد أو تعريف. فهى متصلة بالأفكار والمشاعر التى تتحدى التصنيف الدقيق لأنها تتجاوز نطاق التجربة المعتادة والأشياء المألوفة التى يمكن إدراكها بالحواس . وهى ليست مذهباً منطقياً ولا تفسيراً للعالم المادى أو الخلق .

(*) المأدبة محاورة شهيرة لأفلاطون يناقش فيها موضوع الجمال — المترجمة .

ولعل الترانسندنتالية (الاستشرافية) الأمريكية انبثقت إلى حد ما من آراء طائفة من الكتاب الألمان ، ومن كتابات وردزورث وكارلايل فى انجلترا ، ولعلها انبثقت إلى حد أكبر من الصوفية الكامنة فى صميم المذهب التطهرى (البيوريتانى) ؛ فقد كان ثمة دائماً جانب بهيج للتطهرية : جانب يعترف بجلال الرب وجمال الطبيعة . بيد أن الترنسندنتالية فى أمريكا تعتبر من حيث جوهرها باثقة ومرتبطة برالف والدو إمرسون ، فهى عقيدته فى المعرفة الحدسية أو الإلهامية الكامنة فى الروح ، وفى اتصال الروح مباشرة بالله ، وفى جمال الحقيقة الخلقية ، وفى الطبيعة باعتبارها رمزاً للرب والحقيقة والجمال . وحول هذه الموضوعات ، حول الشعر والحب والصداقة واستلهام الطبيعة ، كان حديث أعضاء الجمعية الترانسندنتالية يدور كلما اجتمعوا .

ومع أن هنرى ثورو كان أحدث من سائر الأعضاء سنا بكثير إلا أنه قبل عضواً فى المنتدى الترانسندنتالى وأبيح له حضور اجتماعاته . وكان إمرسون وبرنسون وآلكوت ومرجريت فولر أقطاب هذه الجمعية ، التى تضم اليزابيث بيبودى أخت زوجة هاوثورن ، ووليم أليرى تشاننج الأصغر الذى سيصبح فيما بعد رفيق ثورو فى مسيراته . وجورج ربلى الناقد الأدبى ، وزائرين عرضيين مثل أوريستس براونسون وجونز فيرى و ك.ب.كرانش . ومعظم الرجال من خريجى هارفارد مثل إمرسون وثورو . بل إن مرجريت فولر الموهوبة نشأت فى جو كمبردج أيضا .

ومن بين هؤلاء الترانسندنتاليين كان آلكوت وتشاننج ومرجريت فولر بالإضافة إلى إمرسون ألصق الناس بثورو . وقد ظل الرجال كلهم من أفراد هذه المجموعة الصغرى أصدقاء ثورو طيلة حياته .

وعاموس براونسون ألكوت متصوف من أصحاب الرؤيا والتجلي ، وهو محدث لامع وإن كان ميالا للاستطراد ، ومثالى لا سبيل إلى تطبيق أفكاره عملياً ،وقد انتقل إلى كونكورد فى سنة ١٨٤٠ ليكون بقرب إمرسون وحاول أن يجد المورد الكافى لإعالة أسرته بفلاحة فدان من الأرض يحبط بالكوخ ويدبعه فى الايجار السنوى المقدر له بمعدل خمسين دولاراً .

وكانت ولادة آلكوت فى مقاطعة كونيكتيكت من أسرة عريقة بانجلترا الجديدة ، ولم يتلق إلا تعليما محدوداً فى مدرسة المنطقة ثم تأدب بعض الشيء على يد طائفة من رجال الدين المقيمين فى الجوار ، وبعد ذلك انبرى لإقناع وتبشير العالم أجمع بشتى النظم الاصلاحية والتعليمية والاجتماعية التى كان يؤمن بها إيماناً حازماً . ولما أعياه أن يجد مدرسة يعلم بها جاب أرجاء ولايتى فيرجينيا وكارولينا الشمالية مدى خمس سنوات تقريباً فى صورة مروج بضائع وسلع متنوعة من أبناء الشمال ، ثم عاد إلى الشمال وتزوج ابنة قسيس من رجال كنيسة التوحيد فى بوسطن ،ومارس التدريس فى مدارس مختلفة بولاية كونيكتيكت ، وفى جيرمان تاون خارج فيلادلفيا ، وفى بوسطن واتخذ اليزابث بيبودى معاونة له ، وافتتح مدرسة فى المعبد الماسونى ببوسطن ، وبدأ يمارس فيها التعليم بطرق غير معترف بها ولاسيما بطريقة السؤال والجواب كى يثير مخيلة تلاميذه وليشجعهم على التفكير المستقل فى أمور الدين . فهاجمته بعض الصحف بتهمة الزندقة حتى اضطر لبيع أثاث المدرسة ومكتبتها بالمزاد العلنى فى سنة ١٨٣٩ . وبذلك حلت الفاقة به وهو والد فتيات خمس سوف تذيع شهرتهن ابنته لويزا ماى آلكوت فى قصتها الشهيرة « نساء صغيرات » ، وقد صار آلكوت صديق ثورو الحميم ، وزميله أحيانا فى حرث حديقة إمرسون ، والمعجب به الذى يتحدث عنه بأرق

العبارات . وفى سنة ١٨٤٢ توجه ألكوت — مزوداً بمبلغ منحه إياه إمرسون — إلى انجلترا حيث التقى بكارلايل وقد وصفه كارلايل بقوله: « إن آلكوت الطيب ، بما فى وجهه وقامته من طول ونحول ، وما فى عارضيه من شيب وذبول ، وما فى عينيه من دماثة وتألق ، وما فى نفسه من إيمان كلى بإنقاذ العالم عن طريق الارتداد إلى حياة الفطرة وعصرها الذهبى ، يبدو أمام المرء وكأنه دون كيشوت وقور ، لا يسع أى إنسان أن يضحك منه من غير أن يحبه » .

أما سارة مرجريت فولر فما أقل ما فى شمائلها من لطف ورقة فهى المحامية التى لجت فى الدفاع عن حقوق المرأة : لا تكف عن الكلام ، ومثقفة واسعة الاطلاع . وكانت قد بدأت تحرز شهرتها بأحاديثها التى تعقد لها الندوات فى صالونات بوسطن ، حيث حظيت باعجاب الأخوات بيبودى ومسز هوراس جريلى وعشرات من السيدات المثقفات فى العاصمة الفكرية لانجلترا الجديدة . وهى ابنة محام تلقى علومه فى هارفارد وعضو فى مجلس الكونجرس أشرف بحماسة وغيرة على التعليم الذى فرضه على ابنته المتوقدة ، فدرست مرجريت فولر اللاتينية وهى بنت ست سنين ، وقرأت أوفيد وشكسبير وسرفانتس فى السن التى يكافح فيها أترابها لتعلم حروف الهجاء . وقد جعلتها مخالطتها المبكرة لرجال من طراز القس المحترم وليم هنرى تشانتج وجيمس كلارك ، ومطالعـــة كارلايل شديدة الإقناع بالترنسندنتالية ونصيرة لها بقوة لسانها. ولئن كانت موضوعات كلامها شديدة الاختلاف عن موضوعات كلام والدة ثورو ، إلا أن مرجريت فولر كانت ندا لها فى الشغف بالكلام ، فكانت تقول : « إن الحديث عنصرى

الطبيعي ، ولابد لي من أحد يستثيرني للكلام ، فما من مرة فكرت فيها وحدي من غير أن أتصور معي رفيقاً » . وهي كما صورها هاوثورن في شخصية زينوبيا في كتابه « قصة بلاذ ديل العاطفية » امرأة مرهوبة ، فهذه المرأة نصف المقعدة التي أوتيت طاقة شيطانية ، ومعتقدات متطرفة ولسانا أشد تطرفاً وحدة لابد أنها أضنت أعصاب ثورو ، بيد أنها كانت له خير معوان من حيث هي عامل تنشيط وتقويم نقدي حازم .

وقد عمل ثورو مع مرجريت فولر عند ما كانت في أوج قواها اللسانية والإبداعية والأدبية، وكان هو في بداية اشتغاله بالكتابة . وكان الترنسندنتاليون بحاجة إلى وسيلة نشر خاصة بهم ويبسطون فيها ما يعبر عن آرائهم ، فأنشأ إمرسون لهذا الغرض مجلة « المزولة » في سنة ١٨٤٠ . ومن سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٤٢ كانت مرجريت فولر محررة هذه المجلة بمرتب قدره مائتا دولار سنوياً، وكان جورج ريبلي مساعداً لها. ومع أن المزولة لم تعمر في السوق أكثر من أربع سنين إلا أنها غدت فيها أشهر مجلة أدبية في تاريخ الأدب الأمريكي كله، وقد شهد ثورو أول عمل مطبوع له عندما نشرت « المزولة » قصيدته « تعاطف » ، وقد قبلت مرجريت فولر مزيداً من قصائده ، ورفضت قصائد أخرى شافعة رفضها ذاك بالنقد السافر الفاحص وبمضي الوقت صار ثورو مساعداً لمرجريت فولو ثم لإمرسون في تحرير وإصدار المجلة ، وظهرت في كل عدد منها تقريباً قطع شعرية أو نثرية مستمدة من يومياته . وهكذا تحالف إمرسون ومرجريت فولر والمزولة ثلاثتهم — مع أن المجلة لم يكن في مقدورها أداء أجور إلى المسهمين في تحريرها — على جعل هنري دافيد ثورو مؤلفاً .

أما وليم إليرى تشاننج المتزوج من إلين شقيقة مرجريت فولر فقد أقام فى كونكورد حيث جاء — شأنه فى ذلك شأن ألكوت — كى يكون بقرب إمرسون . وهو سمى وابن شقيق القس المحترم وليم اليرى تشاننج قسيس بوسطن ونصير إلغاء الرق الذى سبق إمرسون بسبع سنين إلى الكلام عن وجوب استقلال الأدب الأمريكى عن أوروبا. وتشاننج الشاب مرح خفيف الروح غريب الأطوار متقلب الأهواء فرمن هارفارد حيث يعمل أبوه أستاذاً بمدرسة الطب ، كى يتفرغ لكتابة الشعر . وقضى فترة من الزمن فى مزرعة بولاية إلينوى ، ثم فى سنسناتى ، وجاء إلى كونكورد عندما تزوج فى سنة ١٨٤٢. ولابد أن ثورو الذى كان يزدرى شعر صديقه قائلا إنه يكتب بأسلوب رث جانح إلى الفخامة قد أحب شخصه مع ذلك ، لأن تشاننج غدا ألزم صاحب له فى ترحاله وأكثر رفاقه صحبة له فى رحلاته القصيرة أو الطويلة .

وأولاء هم الرجال والنساء الذين دخل هنرى ثورو فى زمرتهم عن طريق مصادقة نزول لوسى براون للإقامة فى منزل أمه ، وهم من أرقى العقول الأدبية فى الولايات المتحدة لذلك الحين ، يستلهمون كل ماهو طريف مثير فى الفكر والأدب الأمريكيين ، وكانوا بأحاديثهم وكتاباتهم مصدر إلهام لغيرهم . وقد غدا إمرسون وآلكوت وتشاننج أهم الشخصيات فى حياة ثورو بكونكورد . فالترنسندنتاليون كانوا يسيرون ورؤوسهم محلقة بين السحب ، ويستنشقون الهواء الأثيرى الملطف الذى كان ثورو نفسه يصبو إلى تنسمه . وقد كان وجه الاختلاف الباقى بينهم وبين ثورو أن ثورو كان يسير بينهم وقدماه ثابتتان على وجه الأرض .

وكانوا جميعاً أشباهاً فى الحياة الخالية من الزخرف والتفكير السامى مما اشتهرت به كونكورد حينئذ ، بيد أن ثورو كان عملياً مثلما كان مثالياً فى ذلك ، فهم جميعاً بصورة أو أخرى — أللهم إلا آلكوت الدءوب على الكتابة حيثما اتفق — كانوا ذوى دخل كاف كى يعيشوا عليه فى مستوى لا بأس به على تواضعه . أما ثورو فكان لابد له من كسب عيشه بالتعليم أو بصناعة أقلام الرصاص ، أو بأى وسيلة يستطيعها . فإما أن يثابر على ذلك ، وإما أن يستغنى عن كسب معاشه ، وهو قرار قدر له أن يتخذه بعد قليل . وكان من أبناء القرية المولودين بها ، على خلاف الآخرين جميعاً . وهم كانوا يحبون الطبيعة على طريقة ورد زورث التى توله الكون وتنتشى به طربا . أما ثورو فكان يعرف الطبيعة ويحبها بحكم مولده وباعتبار أنه يعيشها جزءاً منها لا يتجزأ عنها .

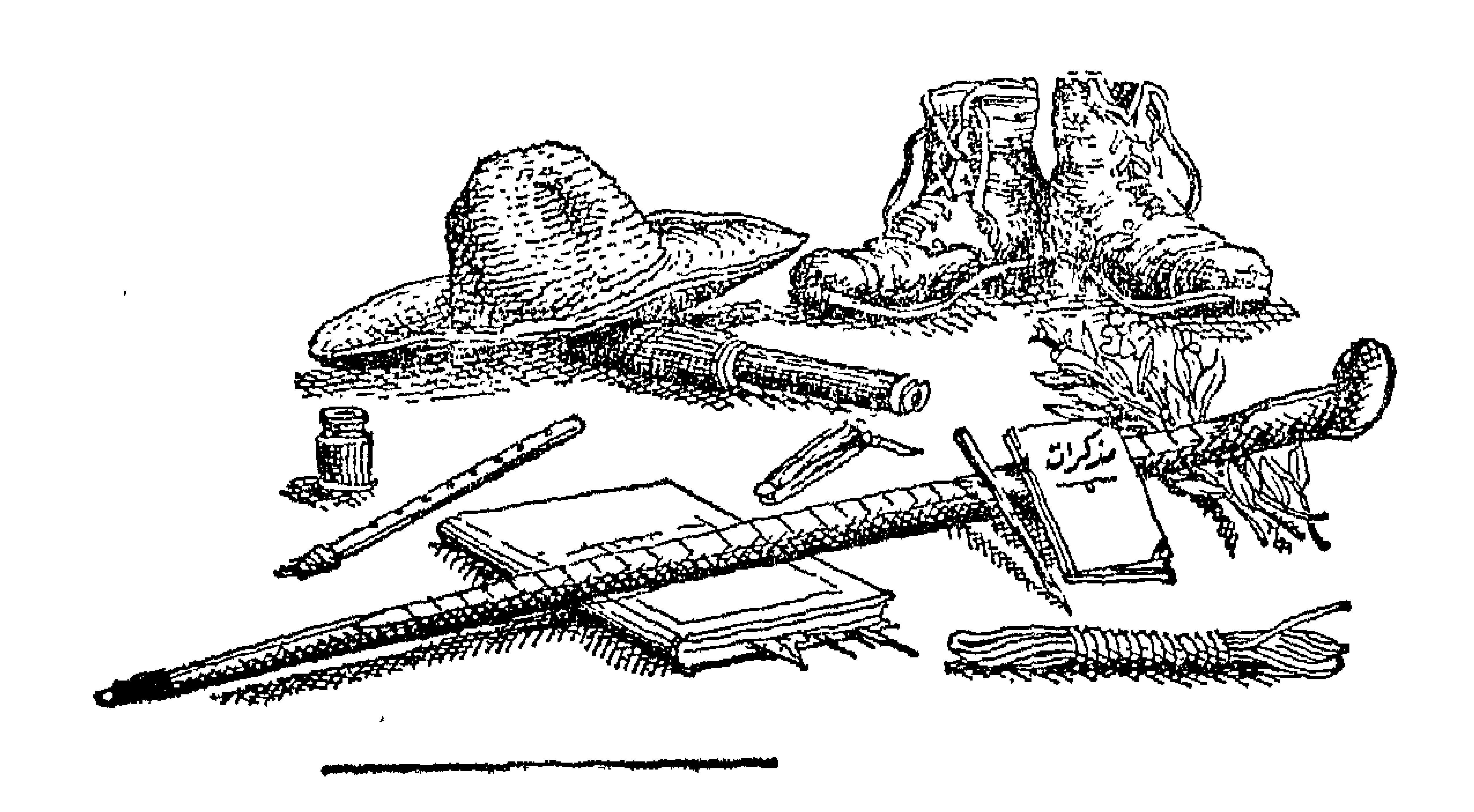
وإنها لتجربة تسكر جوانحه أن يلفى نفسه واحداً من الصفوة فى الجماعة التى كانت تعتبر أشد الجماعات الثقافية تنشيطا للفكر فى أمريكا . وبحكم ما للوهلة الأولى من وقع مربك مضطرب لم يسع ثورو إلا أن يكتفى بالإصغاء فى بادىء الأمر ، ثم سرعان ما انطلق يتكلم كسواه ، وإن كان حديثه أقل رشاقة من حديثهم وأشد حدة ، يضفى عليه الإخلاص وحرارة الاقتناع شيئا من الخشونة فى التعبير ، مع نفاد صبر — شأنه دائما — حين يتصل النقاش مع الأدعياء أو بلداء القرائح .

وقدر لآلكوت ومرجريت فولر وآليرى تشانتج أن يغدوا جميعاً ذوى أهمية لدى ثورو وأن يكونوا — بصورة أو أخرى — أصدقاءه الحميمين . إلا أن ثورو كان مصدر إلهامهم جميعاً ، وكان ثورو يعلم هذا ، وفى البداية لم يكتب عن إمرسون فى يومياته إلا قليلا . وفى ذلك القليل كان يقارنه بكارلايل . وكانت هذه المقارنة مألوفة للناس حينئذ حتى إن إحدى

مجلات فيلادلفيا الكثيرة امتدحت أحـــد النقاد لأنه لم يقارن بين هذين الاثنين . أما ما كتبه ثورو فى يومياته فها كموه :

« وإمرسون أيضاً ناقد وشاعر وفيلسوف ، ولـكن موهبته ليست شديدة البروز ، ولاهى كفاء مهمته التى تصدى لها . فميدانه أرفع مدى ، ومهمته أصعب مراما . إنه يعيش حياة أعمق ، محاولا تحقيق حياة قدسية ، الأمر الذى جعل مشاعره وذهنه ينموان على حد سواء . وبتقدمه فى أشواطه تفتحت أمامه سماوات جديدة ، فالحب والصداقة والدين والشعر والقداسة مألوفة كلها له . يعيش حياة الفنان التى تمتاز بمزيد من الألوان ومزيد من الملاحظة ونصيب أرهف من الإحساس ، وليس على نصيب كبير من الصلابة ، فهو مرن ، وعملى إلى حد كاف فى ميدانه الخاص ، أمين . صائب الحكم على الرجال . وليس له نظير من حيث هو ناقد عام للرجال والأشياء ، ولا يضاهيه أحد فى جدارته بالثقة وفى أمانته . فالعنصر الإلهى قد تحقق فيه نصيب منه أوفى مما تحقق فى أى إنسان . وهو ناقد شعرى ، إذا ما استبقينا الأسماء المجردة من النعوت للآلهة .. إن لإمرسون مواهب خاصة لا تبارى . . وتأثيره الشخصى فى الشباب أعظم من تأثير أى إنسان آخر . فى عالمه ينبغى أن يكون كل إنسان شاعرا ، والحب ينبغى أن يسود ، والجمال ينبغى أن يتجلى ، والإنسان والطبيعة ينبغى أن يتوافقا» .

وهذا التقويم المدقق المكتوب بهذا الأسلوب المقتضب كثير الفواصل لايشبه كثيراً نثر ثورو المحبوك المتقن الصياغة ، وهو أسخى مما ينتظر منه ومما ستكون عليه حاله فيما بعد بالنسبة لصاحب الفضل عليه . فهذا كلام ثورو الشاب عند اقتحامه الحلقة المسحورة ، وقد أدفأ قلبه وتملق مشاعره ثناء من كان ثناؤهم ذا قيمة غالية لديه . وكما توقعت كونكورد من قبل عظائم الأمور من المتخرج الشاب فى هارفارد ، كذلك توقع الترنسندنتاليون عظائم الأمور أيضاً ، وعلى وجه السرعة ، من هذا الشاب المشمول برعاية إمرسون ، فما كان التدريس العادى فى المدارس ليبدو بعد ذلك عملا ذا خطر فى نظر هنرى ثورو .



الفصل الخامس

وبداية قصيدة « تعاطف » وهى أولى قصائد ثورو التى نشرت فى صحيفة المزولة :

أخيراً — وا أسفاه — عرفت فتى رقيقاً

جميع سماته مصبوبة فى قالب الفضيلة ...

ومضت القصيدة لتحدثنا أن الشاعر كان حرياً أن يحب الفتى لو أن حبه له كان أقل مما هو . ويقول ف . ب سانبورن إن قصيدة « تعاطف » وقصيدة « إلى صبيةٍ من الشرق » — وهى من قصائد ثورو التقليدية التى يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٣٧ أو سنة ١٨٣٨ - كلتيهما موجهة فيما قيل لنا إلى الصبية نفسها التى أغرم بها على ماتروى الأسطورة كل من هنرى وجون ثورو ، وتقول الأسطورة أيضا إن هنرى تنحى إكراما لأخيه . وقد لعبت النزيلات لدى أمه دورا هاما فى حياة هنرى ثورو ، كانت إحدى

النزيلات وهى برود نس وارد قد أحضرت معها إلى بيت آل ثورو ابن أخت لها فى الحادية عشرة من عمره اسمه ادموند سوأول وأدخلته مدرسة ثورو ، وفى يولية سنة ١٨٣٩ حضرت أخت الغلام وهى فتاة مليحة فى السابعة عشر من عمرها قادمة من سيتيويت حيث يعمل والدها قسيساً فى كنيسة الموحدين . ولبثت الصبية ثلاثة أسابيع قام خلالها جون الخلى البال وأخوه هنرى الجاد بتعريفها بمعالم القرية والريف المحيط بها . وقصيدة تعاطف كتبها فعلا عن إدموند لا عن أخته . وفى يوميات ثورو إشارات ضمنية فى ذلك الحين أمكن تأويلها بأن ثورو كان مفتوناً افتتانا عميقا بإلين سوأول إلا أنه ضحى بفؤاده المحطم فى نبل كى يبقى على فؤاد أخيه سليما معافى .

ويقال إن هذه القصة كانت معروفة فى جميع أنحاء كونكورد . وفى سنة ١٩٠٢ حاولت آنى راسل ماربل فى كتابها «ثورو : بيته وأصدقاؤه وكتبه» أن تفسر حياة ثورو بأسرها على اعتبار أنها رد فعل لهذا الحب المنكود ولوفاة أخيه الفاجعة فى سنة ١٨٤٢ ، فكانت هاتان الصدمتان فى رأى المؤلفة هما السبب فى دفع ثورو إلى أحضان الطبيعة والوحدة التماسا للسلوان ، وجعلته تحت تأثير المفكرين من جماعة إمرسون . وقد أبرز كانبى فى كتابه «ثورو» قرينة جديدة يعزز بها أهمية ذلك الغرام الفاشل ، وأوضح أن هنرى ثورو بعد أن تقدم جون يعرض يده على الفتاة ورفض ، تقدم هو أيضا إلى إلين وقوبل بالرفض .

وأحسب أن ثورو كان حريا أن يمط حاجبيه فى دهشة مستنكرة أمام هذه التأويلات العاطفية الرومانسية لحياته المليئة التى أرادها لنفسه ولعله كان عسيا أن يقلب شفتيه ثم يمضى مشمئزا .

ومن المحتمل جداً أن ثورو، وهو فى الثانية والعشرين سريع التأثر، قد وقع فى شراك الحب . بل إن العجيب ألا يكون قد أحب أحداً : لوسى براون أو إلين سوأول أو كلتيهما . أما إخفاقه وحزنه الشديد لموت جون واعتبارهما سبب اعتزاله للدنيا فتلك فكرة رومانسية ، بيد أنها لا تكون مطابقة للحقيقة . فثورو كان سويا إلى حد يكفى لاجتذابه إلى النساء الشابات وكان سويا أيضا فى سنوات تكوينه هذه بحيث يشتد غرامه بنفسه وباتصالاته الجديدة المثيرة ، وبفكرة نجاحه الأدبى الوشيك المؤكد ، وهى الفكرة التى شجعه عليها إمرسون والمحيطون به . ومما لاشك فيه أن ثورو فى حداثة سنه وحرارته ربما عرف شيئا من النشوة والعذاب نتيجة علاقة لعل إلين سوأول لم تجد فيها سوى صبوة مرحة من صبوات الصيف ، إلا أن ذلك كله كان حريا أن يندمج ويتلاشى بسرعة فى حماسته المسرفة لحياته الجديدة .

كان ثورو فى ذلك العهد لم يتم تكوينه وفيه قابلية شديدة للتأثير ، لذا أغرم ببطله كأى شاب برزت مكانته من اهتمام إمرسون وحظى بمثل رضاه الواضح عنه . فكان تأثير إمرسون عليه من الجسامة حتى إن زميله فى الدراسة بالكلية دافيد هاسكنز عندما زار إمرسون — وهو من أبناء خالته الأسن منه — دهش للتغيير الذى طرأ على ثورو وسجل هذه الدهشة قائلا إن صوت ثورو غدا شديد الشبه بصوت إمرسون حتى إنه إذا أغلق عينيه لم يكد يميز من المتكلم منهما . وزعم أيضا فى تهكم تمازجه جرعة كبيرة من الخبث أن ثورو أخذ أنفه فى العلو أيضا كأنف إمرسون .

وجيمس راسل لوويل « البارع فى شىء من الحياء والمطمئن إلى مكانته المستقرة باعتباره من رجال كمبردج بمعنى الكلمة » — كتب عليه

أن ينتجع الريف فى كونكورد أثناء سنته الأخيرة فى هارفارد عام ١٨٣٨. فقد أخفق فى الانتظام فى كنيسة يمارس فيها الخدمة الإجبارية ويؤدى عملا منظماً ، ففرضت عليه الكلية أن يدرس فى بيت القس المحترم برزيلاى فروست من أواخر الربيع إلى بداية الفترة الدراسية فى أغسطس . وقد كتب لوويل فيما يكاد يطابق عبارات هاسكنز ، وكان لوويل يكن البغضاء لرفيقه فى الكلية منذ البداية : « لقد قابلت ثورو الليلة الماضية ، ومن المسلى للغاية أن يرى المرء إلى أى حد يقلد نبرة إمرسون وطريقته فى التعبير . فلو أغمضت عينى لما ميزت بينهما » .

ولعل ثورو لم يكن يدرى مدى تبلج إعجابه بإمرسون ،ولعل إمرسون لم يكن خالى الذهن من هذا التقليد الذى يقال إنه أصدق ضروب التملق . ولعله استشعر سروراً بريئاً لهذه الآية من آيات التقدير لدى «الفتى» كما كان يسمى حواريه الجديد فى كثير من الأحيان

ومع أن إمرسون كان رجلا غير دنيوى من وجوه كثيرة إلا أنه على خلاف الحالمين غير الفعالين من المحيطين به كان رجل أعمال متمرسا عمليا. فلم يشجع ثورو فحسب ، بل بذل خير مافى وسعه لاسترعاء اهتمام من عساهم يفيدون ذلك الشاب فى تحسين حياته وفى أواخر أبريل سنة ١٨٤١، أنزل ثورو الذى تعطل بعد إغلاق مدرسته إلى بيته الخاص بمثابة مساعد عام فى جميع الشئون.وكان إمرسون كثيرا مايغيب عن البيت لإلقاء محاضراته فكان ثورو ينال خدمات الإعالة والسكن فى حجرة بالبيت مقابل أى عمل يحلو له أن يقوم به فى أنحاء البيت والحديقة . وبابتعاد ثورو عن النزلاء فى بيت أمه وعن صناعة أقلام الرصاص وعن ثرثرة والدته حظى بمكان هادىء يعيش فيه ويكتب .

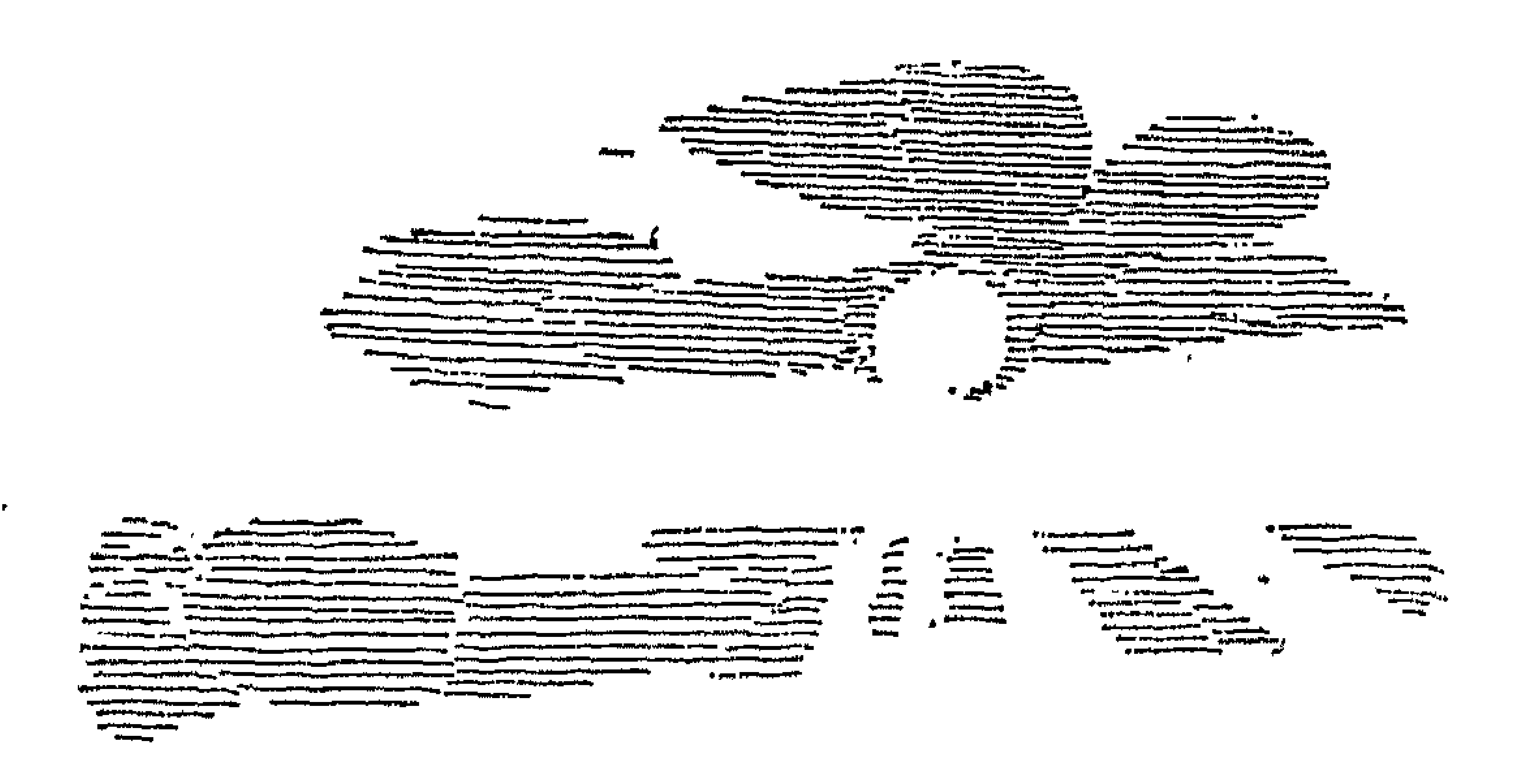
وفى حماسة كتب إمرسون إلى توماس كارلايل :.إن قارئا من قرائك المحبين يقيم الآن فى بيتى إلى أمد أرجو أن يصل إلى اثنى عشر شهرا قادمة واسمه هنرى ثورو وهو شاعر قد تعتز به يوما ما، وشاب نبيل فيه رجولة ويفيض بالشاعرية والابتكار . وفى النهار نعمل معا فى حديقتى فاكتسب عافية وقوة » ، وقال إمرسون عن ثورو فى هـذه الرسالة إنه « رجل أشبه فى معدنه بحد الحسام الدمشق » .

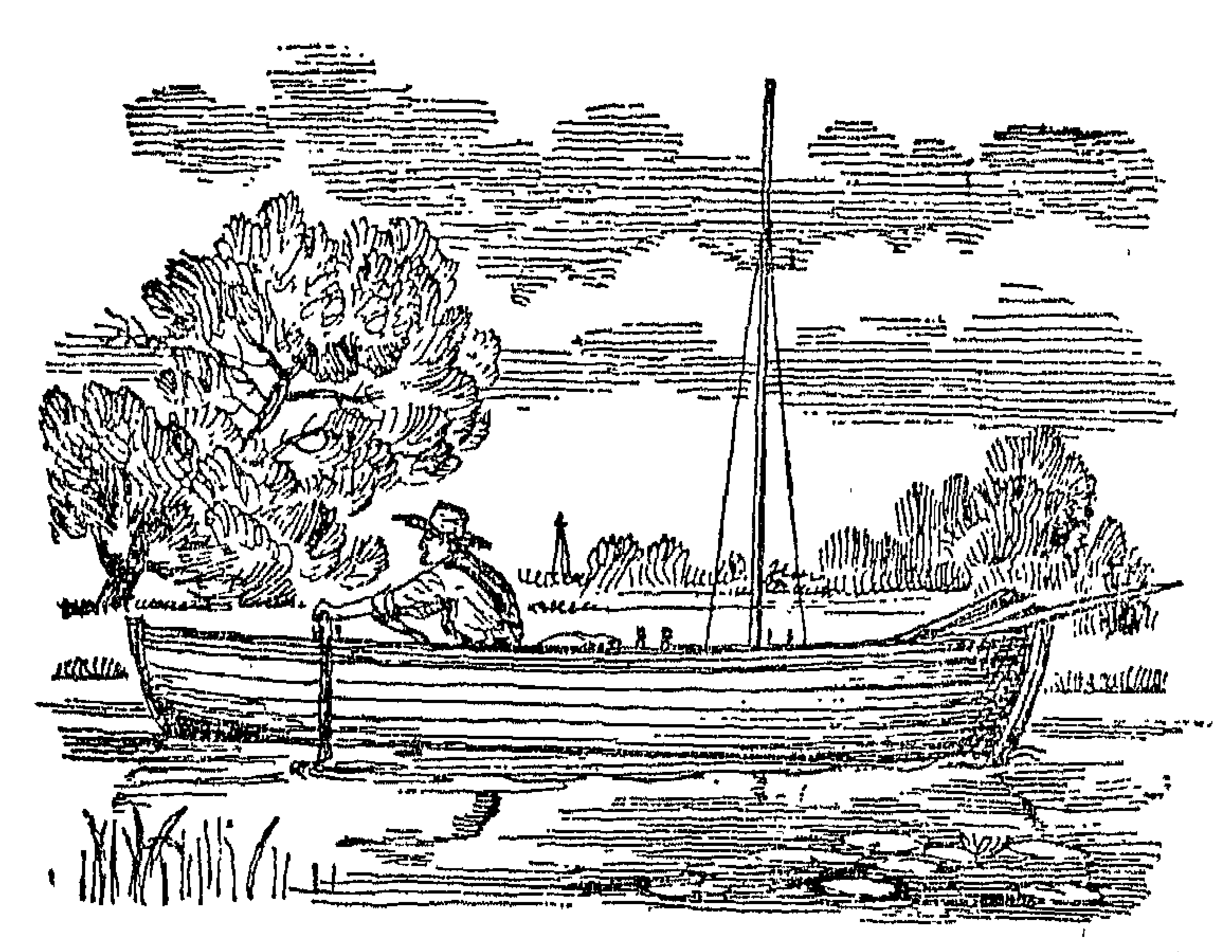
وكان الاتفاق الأصلى يقضى بأن يقيم ثورو فى بيت إمرسون سنة واحدة . ولـكن السنة صارت سنتين . وفى خلال إقامته مع آ ل إمرسون مخالطا حميا للأسرة وللجماعة الترنسندنتالية التى يلتئم شملها فى بيت إمرسون نزلت المأساة الحقيقية بثورو . فمن الأسباب العملية لإغلاق مدرسة آ ل ثورو أن أخاه جون مرض بالسل . وكان السل لعنة ذلك الزمن ، وفى أسرة ثورو لوثة من هذا الداء ، فمن أفراد الأسرة السابقين من ماتوا به، كما ماتت به زوجة إمرسون الأولى . وقد أصيب به جون ثورو الذى كان الرفيق الحميم لأخيه فى البيت والعمل وفى كل مجال برا وبحرا ، ولـكن إصابته لم تـكن قاضية فـكانت وفاته بعد احتضار أليم بسبب التيتانوس فى الحادى عشر من يناير سنة ١٨٤٢ . فكانت هذه الفجيعة لطمة لم يبل هنرى ثورو من عواقبها قط ، فحاول أن يسكن ثائرة أساه بقرض الشعر ، وأهدى كتابه الأول إلى جون . وبلغ من شدة وقع النازلة على ثورو أن الأسرة لم تجرؤ قط على الإشارة إلى وفاة جون بمحضر منه . ولم يتكلم ثورو عن موت أخيه إلا وهو بعيد عن بلده فى خطاباته إلى أسرته . وبعد ذلك بأعوام عندما تحدث عنه إلى دانييل ريكنسون فى بدفورد الجديدة شحب وجهه فجأة وفر من الحجرة .

وما كانت وفاة جون لتساعد على تلطيف المظهر الذى كان هنرى ثورو قد شرع يبديه للعالم من نفسه ، فرجريت فولر وآلكوت ، بل وإمرسون نفسه فى بعض الأحيـــان وجدوا فيه وعورة . فثورو النامى الآخذ فى التصلب أخذ مابينه وبين الفتى السريع التطبع والتأثر فى الانقطاع ، فهو جانح الآن إلى الاستقلال والحران ، وما أكثر مابدا منه الميل إلى المخالفة والنقاش ، بل إنه فى بعض الأحيان كان يبدو شكسا .

ولما اشتد شعوره بالثقة بعزمه الباطنى على تحقيق ذاته إلى أقصى حد وجعل يومياته سجلا عاما لأفكاره الداخلية الحميمة والانصراف إلى إلقاء المحاضرات وتأليف الكتب ازداد بذلك ميله إلى التباعد . ولكن التوفيق لم يواته باليسر والسرعة اللذين لعله كان يتخيلهما ، فكان يبدو فى بعض الأحيان عنيداً عن عمد رغم مافيه من حسن التمييز . حتى إن إمرسون اضطر إلى الاعتراف ذات يوم بأن « هنرى على وعورته عذب » .

وقد ترك معظم أصدقائه مما يدل على انطباعاتهم عن ثورو وعما وجدوه أثيراً من سماته وما وجدوه منها مزعجا ومحيراً فى كثير من الأحيان . فقد أخذ يتجلى للعيان مافى طبيعة هذا الشاب صعب المراس الذى يكاد يطالب أصدقاءه بمثل مايطالب به نفسه. وهذا ناثانيل هاوثورن الذى آثر الوقوف فى تباعد المتشكك بالنسبة لجماعة الترانسندنتاليين قد ترك صورة واضحة لما كان عليه ثورو فى ذلك الحين ، فكل من ثورو وهاوثورن يبدو أوفر حظا من الفحولة من بعض المفكرين والكتاب الآخرين فى كونكورد ، ولعلهما كانا يشعران شعوراً خفياً بهذا الشبه فيما بينهما ، فقد أحب هاوثورن ثورو الذى يصغره فى السن منذ أول لقاء ، وكتب فى دفتر مذكراته بتاريخ الأول من سبتمبر سنة ١٨٤٢ :





كان قاربنا الذي جشمنا أسبوعاً من العمل في الربيع شبيهاً
في شكله بزورق مسطح القاع من زوارق الصيادين .

« تعشى مستر ثورو معنا بالأمس . . وهو ملاحظ ثاقب النظر مرهف الفطنة للطبيعة — ملاحظ أصيل — وهى خلة فيما أحسب تكاد تضارع فى ندرتها موهبة الشاعر الأصيل . ويبدو أن الطبيعة قد قابلت حبه لها بنوع من التبنى فاعتبرته طفلها الأثير ، وأطلعته من أسرارها على مالا يطلع عليه الا القلائل من الناس .. ومن سماته المميزة مايكنه من اعتبار عظيم لذكرى قبائل الهنود الحمر الذين كانت حياتهم المتأبدة حرية أن تلائمه خير الملاءمة . وهو فضلا عن هذا يتحلى بما يجاوز فى قيمتـــه وحقيقته القشرة السطحية الزائفة من الأدب ، فلديه ذوق عميق وحقيقى للشعر ، ولا سيما مانظمته قرائح قدماء الشعراء . وهو كاتب مجيد ، أو هو على الأقل قد كتب بحثا جيداً عبارة عن مقال فنى تحليلى فى مسائل شتى تتصل بالتاريخ الطبيعى فى العدد الأخير من صحيفة المزولة ، وقد أخبرنى أنه استمده من ملاحظاته الشخصية التى دونها فى يومياته . وفى اعتقادى أن هذا المقال يعطينا صورة صائبة جدا لتفكيره وطبعه من حيث هو صاحب ملاحظة صادقة فطرية ودقيقة دقة حرفيـــة . بيد أنه يقدم للقارىء روح مشاهداته الى جانب قالبها الحرفى .. وفى المقال أيضا فضلا عن هذا فقرات تسودها الميتافيزيقا الضبابية الحالمة بحيث تبدو أفكاره وكأنها تتسق وتتواكب فى نسق شعرى . والحق أن فى هذه الفقرات شاعرية صادقة . وفى المقال عموما أساس متين من البديهة السديدة والحقائق الخلقية ، فهو من هذه الجهة أيضا انعكاس لطبعه ، فهو ليس طائش الفكر أو الإحســاس . وإنى لأجده رجلا صحيح النفس سليم الفطرة تطيب معرفته »

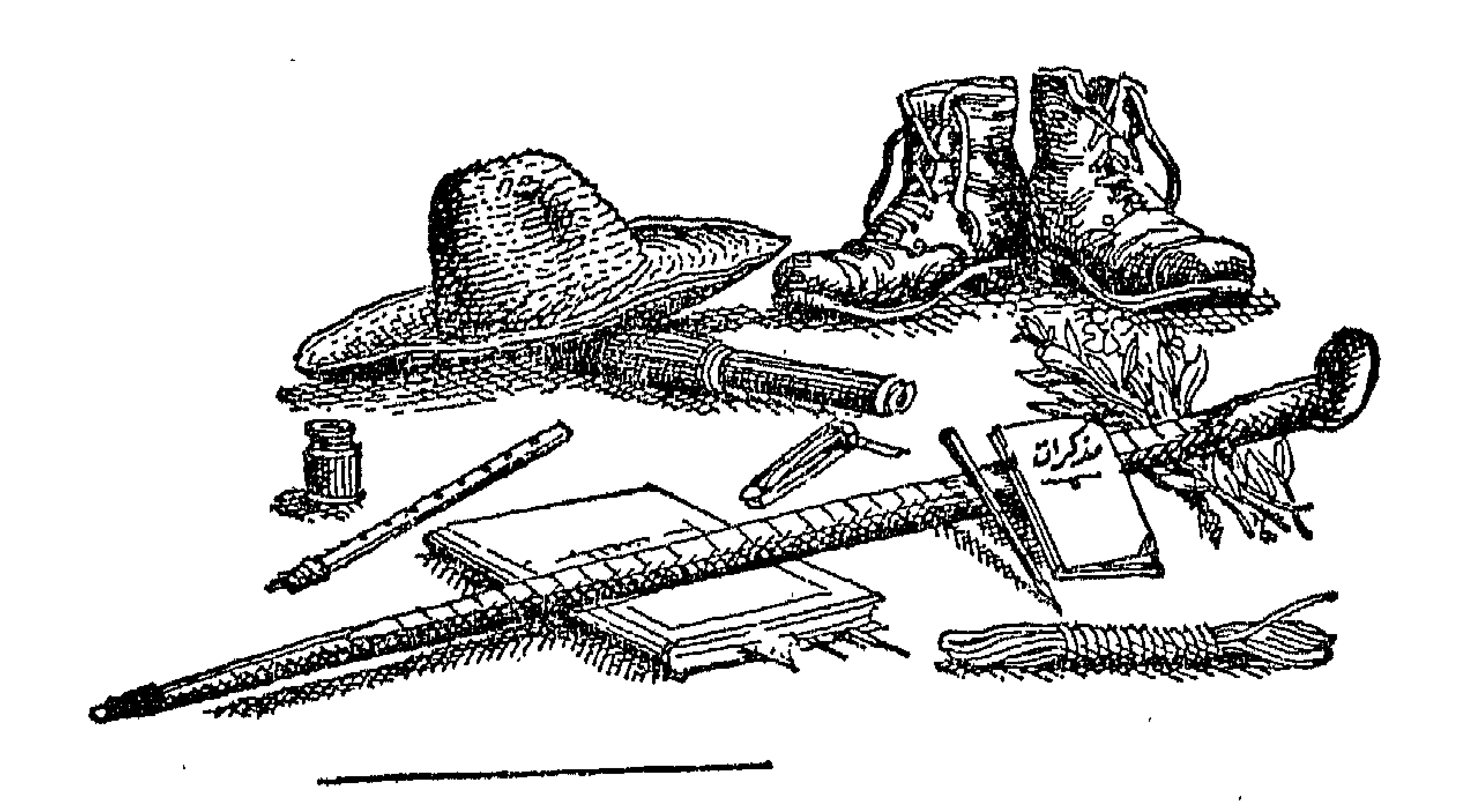
ومن هذا المقال الواحد فى صحيفة المزولة كون هاوثورن رأيه الذى اكتشف به معظم الخصائص التى سيتميز بها إنتاج ثورو الأدبى بأكمله وأدرك بلمحة واحدة مافى ثورو من ضراوة ليست جزءا من الاستشرافية بل من طبيعة ثورو الأساسية .

وبعد العشاء فى ذلك المســـاء توجه هاوثورن وثورو للنزهة فى نهر كونكورد الهادىء راكبين زورق ثورو، وهو ذلك القارب المسطح القاع الذى يبلغ طوله خمس عشرة قدما وعرضه ثلاث أقدام ونصف قدم فى منتصفه ، وكان هنرى وجون ثورو قد قضيا أسبوعا فى بنائه فى ربيع سنة ١٨٣٩ . وهو مطلى باللون الأخضر ومصبغ باللون الأزرق ، وبه «طاقمان» من المجاديف وشراعان . وقد استخدم الأخوان شراعا منهما عمودا لخيمتها فى رحلتهما النهرية خريف ذلك العام. ولاحظ هاوثورن أن ثورو يسوس القارب بمهارة تامة كأن ذلك غريزة فيه . وروى له ثورو بزهو أن بعض الهنود الحمر ممن زاروا كونكورد منذ بضع سنين اكتشفوا أنه يتبع وهو لايدرى طريقتهم فى تسيير القوارب النهرية ، وعنــــدما هم ثورو بمغادرة كونكورد لأول مرة باع زورقه مسكيتكويد لهاوثورن الذى قال إنه يتمنى لو استطاع أن يقتنى أيضا براعة مالكه الأصلى فى شئون الملاحة . وسلمه ثورو الزورق فى اليوم التالى ». ولما كانت المروج مغمورة بماء الفيضان فقد جذف ثورو بالزورق حتى أرساه مباشرة أسفل بستان بيت راعى الكنيسة القديم فوق ما كان كومة من العشب قبل أيام قلائل . وسر هاوثورن بسبب اعتلال صحة ثورو — أن يراه يغادر البلدة التماسا لتغيير المناظر وتبديل العمل ، بيد أنه أسف لرحيله من أجل نفسه . وقد كتب هاوثورن يقول: « كنت أوثر أن يبقى معى هنا لأنه من الأشخاص القلائل

فيما أحسب الذين أحس من اتصال الحديث معهم وكأنى أصغى لهزيم الريح بين أغصان شجرة فى الغابة . فمع مافيه من تحرر فطرى وضراوة أجد فيه أيضا تهذيبا كلاسيا ساميا » . وعاد ثورو إلى بيت الراعى القديم فى اليوم التالى ليجذف مرة أخيرة فى الزورق الذى غير هاوثورن اسمه فأطلق عليه « زنبقة البحيرة » ، وليترك لدى هاوثورن صندوقه الموسيقى الذى يعتز به.

وغادر ثورو كونكورد هذه المرة إلى جزيرة ستاتن عبر نيويورك من جهة منهاتان ليكون مؤدبا خاصا لأبناء وليم إمرسون . ومن المحتمل جدا أن إمرسون كان قد رتب هذا العمل مع شقيقه مواصلا بذلك سلسلة جهوده لتحسين مستقبل حواريه العظيم القدر الذى أخذت وعورة طبعه فى الازدياد المطرد . ولعله قد بدا واضحا للعيان وضوحا لا مزيد عليه أن ثورو كان مستعدا للتنزه على قدميه (وهى نزهات كان إمرسون يسر بها عندما يشاركه فيها) والتحدث وكتابة يومياته والقيام بالأعمال المتناثرة قانعاً بأن يكون ذلك كل همه واهتمامه ، إذ يبدو أنه تخلى عن كل تفكير فى العثور على مهنة ، وأن مايكتبه لصحيفة المزولة لم يدر عليه دخلا ولم يذع له صيتا .

إمرسون إذن قد دفع بالفتى إلى الدنيا لينشد لنفسه الصيت والثروة فيما وراء حدود كونكورد .



الفصل السادس

لعل إمرسون ورفاقه والقرويين من أهل كونكورد خالوا ثورو متبطلا لا مهنة له ، بيد أن ثورو كان أعلم منهم بحقيقة حاله . فهو قد يبدو عليه أنه يعيش للحظته الراهنة غير ملق باله إلى ما يكون فى غده . ومن المقطوع به أنه ليس سائراً على الدرب فى الطريق إلى الغنى . بل ولا فى الطريق إلى كسب معاشه بصورة من صور اليسر ، إلا أنه كان ذا مهنة . ففى نظر نفسه كانت مهنته مهنة رجل العلم الدارس والشاعر على نحو ما وضع إمرسون تعريف هذه الأعمال، وعلى نحو ما تراءت لنظر ثورو . فهو رجل النظر والعمل والقول الذى وقف حياته كلها على المهمة الوحيدة التى استوعبته بأسره ، وبلغ من جسامة أهميتها لديه أن وقته لم يعد فيه متسع يسعه على أى مشغلة اخرى .

إن مقالات ثورو الإنشائية وهو طالب بالكلية ، وأشعاره الأولى ، وبواكير نشره لها التى حاولها حينئذ ، كانت أعمالا تغلب عليها المحاكاة الجافة على نحو ما يبدو من أى شاب وهو يتعلم الكتابة ، أو أى طفل وهو يتعلم الكلام مقلداً من هم أكبر منه سناً . وعن طريق المحاولة والخطأ ، وعن طريق مخالطته للمحيطين بإمرسون ، وعن طريق معرفته بالغابات والحقول راح يصوغ لنفسه مادة وأسلوبا خاصين به .

وعندما كان ثورو فى الثالثة والعشرين ، فى سنة ١٨٤١ ، كتب يقول : « ما من شىء فى الكتابة الإنشائية يأتى نتيجة للحظ والمصادفة . فالكتابة الإنشائية لا تسمح بمثل هذه الحيل السهلة ، فأفضل ما تستطيع أن تكتبه هو الممثل الحقيقى لأفضل ما فيك،وكل جملة إنما هى ثمرة اختبار طويل.وشخصية المؤلف يطالعها المرء من صفحة العنوان إلى كلمة الختام » . ومعنى هذه العبارة أن ثورو توصل إلى معرفة هذه الحقيقة القاسية عن فن الكتابة .

وفى تلك السنة عينها كتب أيضاً يقول ثمة طبقتان من المؤلفين : طبقة تكتب تاريخ زمنها . والطبقة الأخرى يكتب أفرادها تاريخ حياتهم » . ولم يكن ثورو منطويا إلا على أقل الاهتمام بتاريخ أوائل القرن التاسع عشر . فاهتمامه متجه إلى ذات نفسه ، ومتجه عن طريق التعميم من ذات نفسه إلى الذات الإنسانية فى سائر البشر : أى الذات الفردية ؛ فقد كان يعيش حياته ويكتب سيرته الذاتية الكلية . فكان بذلك لديه العمل المستوعب الذى يحتاج إليه ، وهو فى الوقت نفسه أكثر الأعمال عائداً معنوياً على صاحبه ، فلئن لم يكسبه مالا ولا استحسانا، إلا أنه لم يكن بحاجة إلى عمل سواه . وفى ١٧ من مارس سنة ١٨٤١ كتب فى يومياته يقول : « ينبغى ألا أفقد شيئا

من حريتى بالعمل مزارعا وصاحب أرض . فمعظم من ينخرطون فى أى مهنة مقضى عليهم بهلاك أنفسهم » .

لم يكن ما يحبه ثورو فى المزرعة أعمال الزراعة ، بل كان يحب فيها ما يسمعه من صلصلة نواقيس الأبقار . فهذه الصلصلة كانت آثر لديه من الرنين المنبعث من أطنان المعدن المعلقة فى أبراج الأجراس بالكنائس . كان يحب الطبيعة على نحو يختلف عن حب الشاعر لها فى تصور تشاننج مثلا لحب الشاعر للطبيعة ، ولا كحب إمرسون لها . فقد كان يشعر بامتزاجه بالطبيعة الفطرية الضارية الغفل ، وبأنه جزء ضار غفل منها .

وهذه الهوية الجوهرية البعيدة أشد البعد عن عبارات التعجب المشوشة حول الألوان فى زهرة أو على صفحة السماء من الأمور التى جعلت ثورو عسير الفهم جداً على أصحابه ورفاقه ، بل إن ذلك أزعجه شخصيا أيضا فى بعض الأحيان . فقرب نهاية سنة ١٨٤١ كتب يقول : « يبدو لى أننى أرى طحالب البحر التى تكسو الصخور أقرب آصرة إلى نفسى من كل ما فى الكتب . فكأنما طبيعتى ذات جوهر فطرى وحشى بصفة خاصة بحيث تصبو إلى كل ما هو فطرى وحشى . فلست أعرف فى نفسى صفة ناجية من إسار الرقـــوى حبي المخلص الصادق لأشياء معينة . فعندما أحس نفسى هالكا مقضيا على أتم القضاء يجول بفكرى على الفور أنى أركن فى حياتى إلى حبى لأشياء معينة . وعندئذ أحس بنفسى صحيحا معافى ، لأن تلك الخاطرة تدعم صلتى بالله » .

لقد تكشفت لثورو — كما يتكشف ذلك للرجال — مشاعر الوحدة فى الحياة : وكثيراً ما انتابه القلق على صحة نفسه وسلامتها ، فهو ليس على

تجانس يكفل راحة السجية فيما بين نفسه وبين العالم على نحو ما يبدو سواه من الناس ، وعلى نحو ما كان أخوه جون من قبل ، فالعلم كان يجتذبه فى اتجاه ، وتجتذبه الشاعرية فى اتجاه آخر . كان بحاجة إلى العزلة ، ومع هذا كان يئن حنينا إلى المجتمع . وكان يعلم أنه مختلف عن الكثيرين من الناس ، على نحو ما يكون الفرد الموهوب مختلفا عادة عن سائر البشر ، مدركا هذا الاختلاف ، ومع هذا كان يريد أن يعثر على مكانه الصحيح على نحو ما كان غيره يعثرون فيما يبدو على مواضعهم ويعنى هذا بالنسبة لثورو أن يجد نفسه أولا ويعبر عنها . وظل طيلة حياته يعنى نفسه بتجميع شتات عناصر شخصيته فى وحدة واحدة يعرف فيها إنيته ويعرف سواه من الناس فيها هنرى دافيد ثورو .

ومراراً كثيرة أحس أن فى مقدوره نظم قصيدة تسمى « كونكورد » فقد كان يحب كونكورد ، والقصيدة الحقة فى نظر ثورو تتمثل فيها الوحدة التى كان ينشدها فى نفسه ، فالقصيدة الحقة هى الكمال فى التعبير. والحب — فى حسبانه — هو العاطفة التى يسعها أن تجمع شتات النقائض والقوى المتصارعة فى مشاعر الإنسان فتوحدها توحيداً . فعن طريق الحب يستطيع أن يتصل بروح الكون . وتلك كانت أمنيته الطاغية .

فلا عجب إذن أن يجد ثورو — وقد استولت عليه هذه الرغبة القاهرة وأشربت بها نفسه — فى التعليم وصناعة أقلام الرصاص أو أى عمل آخر تبديداً باهظا لطاقته ، وأن يجد فلاحة حديقة إمرسون أو حديقته الخاصة والنجارة وصناعة الرصاص الأسود أقل الأعمال فداحة لديه ، ففى مقدوره أن يقوم بها وهو يفكر فى أيما شىء يحلو له ؛ وفى الوقت نفسه يلطف من

ثائرة شروره باستخدام يديه البارعتين فى مهام لا تستغرق منه إلا القشرة السطحية من تفكيره .

وقبل ذلك بست سنين جال بفكر ثورو أنه قد يروقه أن يعمل مؤدبا خاصا فى أسرة أحد السادة . ولكن ثورو الذى رحل إلى جزيرة ستاتن ليغدو مؤدبا خاصا كان يروم ما هو أكثر من ذلك ، فقد حمل خطابات تقديم من إمرسون ، وسرعان ما شرع يزور فى مدينة نيويورك رؤساء التحرير والناشرين والكتاب الدينيين المتصوفين مثل هنرى جيمس الأكبر ، والصحفيين مثل هوراس جريلى . وكان ذلك عالم الأدب العملى الذى أراد حاميه وراعيه له أن يعرفه ، وكان ثورو نفسه متلهفا على ارتياده .

وكون ثورو رأيه عن نيويورك بسرعة ، فهى ليست كونكورد ، ولا خير فيها . وكتب إلى إمرسون فى ٨ يونية سنة ١٨٤٣ يقول : « إنى كلما رأيت المزيد من هذه المدينة لم يزدد حبى لها ، بل يقل، وأشعر بالخجل من وقوع نظرى عليها ، فهى أخس مما كنت مستطيعا أن أتصورها ألف مرة . فهى موضوع لا يصلح إلا للكراهية — وهذا كل جدواها بالنسبة لى . وحتى أفضل من فيها من البشر جزء منها ، ولا حديث لهم إلا عنها ، وأجدر ساكنيها بالاحترام ما فى طرقاتها من الخنازير . فمتى يفقه العالم أن مليونا من البشر لا وزن لهم بالقياس إلى إنسان واحد بمعنى الكلمة ؟ » .

ويبدو أن ثورو المريض الذى أحرقته الوحشة والحنين إلى موطنه وهو فى المدينة الكبيرة قد زاد غضبه اتقاداً كلما أوغل فى الكتابة فجعل يستمرىء ما يعرضه — كعادته فى كثير من الأحيان — من الرغبة البشرية فى اللدغ ، وبالغ — على المأثور عنه — فى إطراء الخنازير التى كانت بمثابة الزبالين

فى تلك المدينة على حساب الآدميين الذين تؤدى لهم خدماتهم الصحية ؛ وقد أعلن ثورو فى هذا المقام مرة أخرى المبدأ الذى ناصره والذى يعتبر اليوم ممثلا له ، ألا وهو إن إنسانا واحداً له قيمة . أما الحشد من البشر فلا .

ولم تسفر المقابلات التى كان إمرسون قد رتبها له عن ثمرة عملية ؛ فقد نشرت أول قطعة أدبية له خارج « المزولة » فى يناير سنة ١٨٤٣ عندما ظهرت مقالته « نزهة على الأقدام إلى واشوست » فى صحيفة « كشكول بوسطن» ، ومع أن إمرسون ألح على محررها فى أداء أجر عليها ، إلا أن شيئا من ذلك لم يتم ،وخطر له أن ثورو ربما استطاع تحسين فرصه فى النجاح إن قام بتجميع مخطوطات من محاضراته فى قاعة المحاضرات ومن يومياته ، وحاول ثورو ذلك فعلا ، وكتب فى أغسطس إلى والدته أنه كان حريا أن يحظى بنجاح أكبر لو لم تكن المجلات بهذا البطء ، ولولا ادعاؤها الفاقة ، وقد جاب المكتبات ومكاتب الناشرين وتحدث إليهم فى شئون الكتابة والأسواق الأدبية ولكن مساعيه لم تتمخض عن شىء ، وذكر لها أن مؤسسة هاربرز للنشر التى تحقق أرباحا فعلية قدرها خمسون ألف دولار سنويا لا يريد أصحابها إلا أن يتركوا لشأنهم ، وقال فى خطاب آخر إلى والدته : « الطعم الذى لدى لن يغرى الفئران ، لأنها متخمة » ، ومعظم المجلات لا تدفع شيئا على الإطلاق للمسهمين فى تحريرها بمقالاتهم ، وأبدت مجلة « سمير السيدات » استعدادها للدفع ، ولكن ثورو قال : « ولم أستطع أن أكتب شيئا له طابع السمر » .

وكان ثورو فى هذا على حق ، لأنه لم يكن صحفيا قادراً على إنتاج كلام مستساغ سهل حول أى موضوع يطلب منه . بل هو كاتب جاد قادر فقط

على الكتابة عن الحقائق التى يقتنع بها ؛ وثمة فى العادة سوق للصحافة المتينة التى تدبج كتاباتها تلبية لرغبة رؤساء التحرير الذين يعتقدون أنهم يعرفون بالضبط ما يريده الجمهور ، وقلما توجد سوق حاضرة لكاتب من قبيل ثورو لديه شيء يقوله ولا بد له أن يقوله على طريقته

وقد صنع هوراس جريلى كل ما فى مقدوره لهذا الشاب الذى ثبطت عزيمته إلا أنه ظل يحاول محاولة اليائس — وإنها لظاهرة فريدة فى حياته — كى يروج مقدرته الأدبية . وكان رئيس تحرير نيويورك تريبيون غريب الأطوار مهتما بالاستشرافية ، كاهتمامه بكل حركة إصلاح تقريباً ، وبجميع التشكيلات الاشتراكية مثل «فروتلاند» و « مزرعة بروك » وما إليها من التجمعات الناشئة حديثاً فى أنحاء الريف — وقد قرأ جريلى المزولة وأعجب بها ، وكان على علم بعمل ثورو فى تحريرها وبما نشره فيها من شعر ونثر . وكانت مرجريت فولر المقيمة فى بيت جريلى قد غدت المعلقة المشهورة على الكتب فى التريبيون . وجورج ريلى من كتاب المزولة سيغدو من نقاد التريبيون . وكان تشارلز ا. دانا من مزرعة بروك مدير تحرير جريلى . وجريلى مؤمن بالصحف والمجلات ، ولذا قال لثورو إن امرسون حرى أن تتضاعف شهرته لو أنه كتب للمجلات أحياناً « كى يتيح لعامة الناس أن يعلموا بوجوده » ، وعمل فعلا بمثابة وكيل أعمال أدبى لثورو فحاول أن يجد لمخطوطاته مجالا . وعن طريق روفوس جريزولد نجح أخيراً فى قبول محاضرة ثورو عن توماس كارلايل فى مجلة جراهام بفيلادلفيا . وبعد مناقرة طائلة تمكن من حمل جراهام على أداء خمسة وسبعين دولاراً أجرا عليها . وعرض على ثورو خمسة وعشرين دولاراً عن كل مقال يكتبه عن إمرسون

وهاوثورن ، بيد أن ثورو أبى أن يكتب عن صديقيه . وأعطى ثورو بعد ذلك خمسة وعشرين دولاراً أجر مقال عن « غابات مين » ثم حاول أن يبيعه .

وهوراس جريلى هذا الذى حاول جهده أن يساعد الأديب الطامح القادم من كونكورد ربما كان أعظم محرر فى زمنه ، فقد كان يعرف السوق التجارية للأدب معرفة دقيقة لم تكن لتدعه فى ضلال من أمرها . وقد كتب إلى ثورو بعد ذلك بثلاث سنين يقول : « لو أن شيئاً تآمر على تحويل رجل شريف إلى وغد ، فالكتابة بقصد البيع هى ذلك الشىء ! » .

ولابد أن روح ثورو المعنوية أصيبت بخيبة شديدة لحبوط مساعيه ومساعى إمرسون وجريلى لصالحه ، فقد كان تواقاً إلى النجاح ككل شاب ، وكمعظم الشبان كان يريد ذلك النجاح باكراً سريعاً ، فتسرب رماد الفشل كالضباب البارد إلى كل شىء من حوله ، حتى عمل المؤدب الخاص ، وكتب إلى إمرسون : « لست أرى نفسى ذا نفع خاص لكرام الناس الذين أعيش معهم ، اللهم إلا التقديس الذى يلقى به الأبرار المحن » .

وفى نهاية العام آب ثورو إلى كونكورد ، ولكنه لم يعد إلى بيت إمرسون بل إلى بيت أسرته . . وفى هذه المدة كانت عودته إلى موطنه بصفة نهائية ، فلن يغيب عن كونكورد أمداً طويلا بعد الآن أبداً . لقد رأى العالم الأوسع فلم يحببه ، أو قل إن العالم الأوسع هو الذى لم يحببه ، أو لعل كلا الأمرين صحيح . وقد حاول أن يبرر إيمان إمرسون به ، ولكن مواهبه كان الواضح أنها ذات قيمة تجارية ضئيلة . ولعل هذه ثانى نقطة تحول فى حياة ثورو .

وتختلف الآراء فى مدى وعيه بالقرار الذى اتخذه ، ولكنه صار الآن يعلم يقيناً أنه لن يتخـذ لنفسه حرفة من الحرف المستقرة . وكان وهو فى الكلية قد كتب أنه يبغى سقيفة يدرس فيها ويكتب ، وهو الآن بصدد أن يحصل قريباً على سقيفة من صنع يده .

وقد كتب فى يومياته ثم بعد ذلك فى « الحياة بلا مبدأ » يقول : « إن أنا بعت المجتمع وقتى كله قبل الظهر وبعد الظهر كما يفعل معظم الناس فيما يبدو فلن يتبقى لى فى يقينى شىء يستحق أن أعيش له . ولذا لن أبيع بكوريتى بصحفة من عصيدة العدس » . وقرر أن كل ما يلزمه من وقت للعمل كى يعول نفسه طول السنة لا يتجاوز ستة أسابيع من اثنين وخمسين أسبوعاً ، فحاجاته قليلة وبسيطة ، وسيجعلها أقل وأبسط مما هى . سيستغنى عن البيت الكبير والثياب الأنيقة والبهارج والزخارف التى ينشدها معظم الناس ، وستكون له وسائل بذخ أعظم من هذه وهى الحرية والاستقلال فلا مكتب ولا مصنع ، ولا عبودية لعمل محدد ، وإنما هو الهواء الطلق ، وتحريك رجليه القويتين تحريكا دائباً ، والقناعة الراضية بالمهام البسيطة التى يحبها .

ولابد أن ثورو شعر بالارتياح بعد عامه الجديب فى الغربة عندما عاد لصناعة أقلام الرصاص مع أبيه الذى كان ذا يد صناع فى الأمور الآلية كابنه . وكان ثورو قد قرأ فى دائرة معارف أدنبرة بمكتبة هارفارد أن صلصالا بافاريا يخلط بالجرافيت لصنع أقلام الرصاص الألمانية الممتازة ، فبعث آل ثورو فى طلب جانب من ذلك الصلصـــال وأدخلوه التنور مع رصاصهم فأتاح لهم ذلك أن يصنعوا قلم رصاص أصلب وكتابته أشد سواداً . ومع أنهم لم يسجلوا طريقتهم هذه رسمياً إلا أنهم ميزوها بخاتم



كان "هنري" و"صوفيا" يعملان مع الآخرين في صناعة
أقلام الرصاص والجرافيت الخاصة بآل "ثورو"

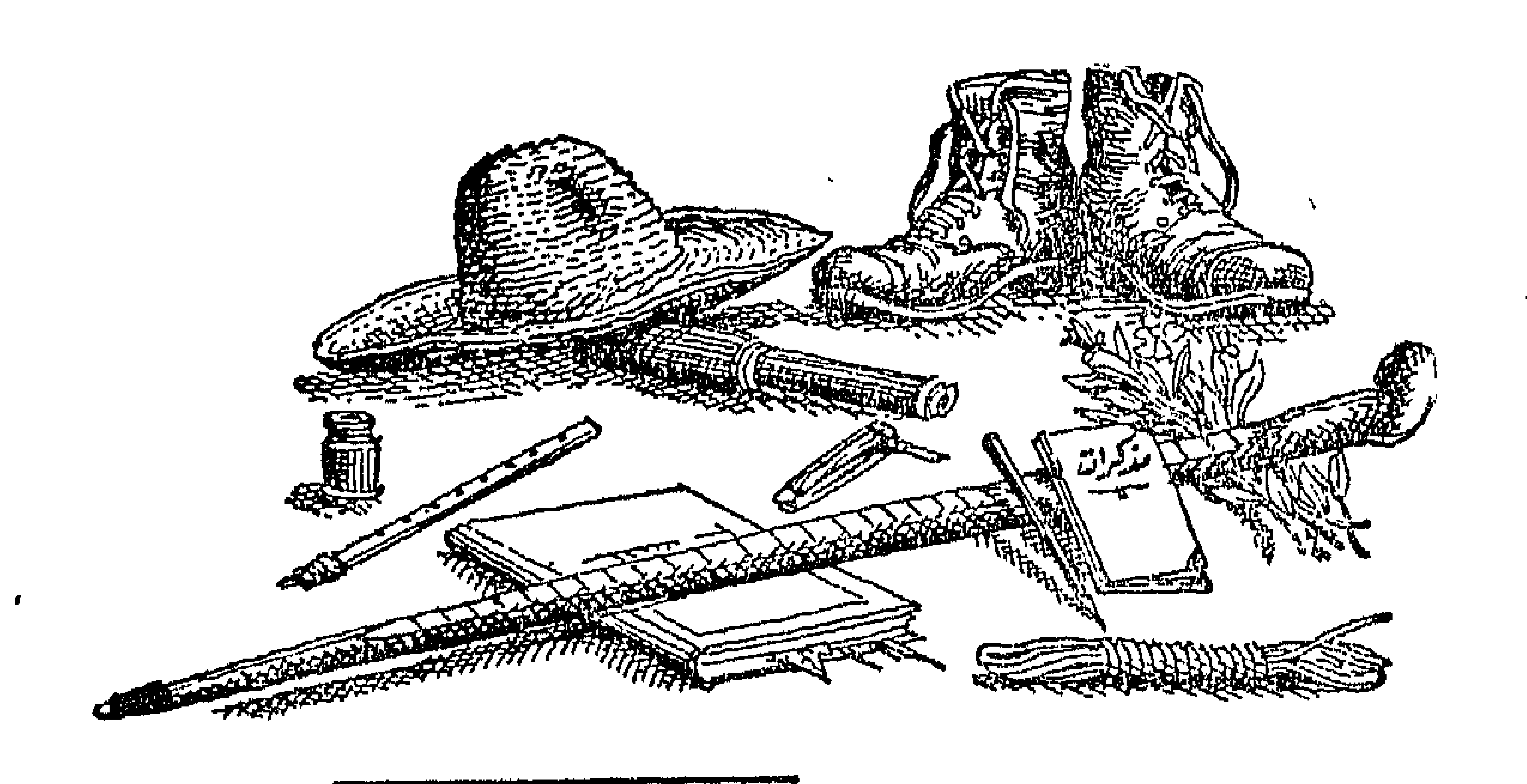
خاص يدل على ملكيتهم لهذه العملية التى احتفظوا بها سراً عائلياً . وسرعان ما كان آل ثورو هم صناع أخر أنواع الرصاص الأسود فى البلاد . وابتدع ثورو آلة لحفر ثقب فى أسطوانة الخشب وتقطيع الرصاص على قدر هذا الثقب ، بدلا من لصق قطعتين من الخشب حول عود الرصاص ، وهى الطريقة التى كانت متبعة حينئذ . وكان من رأى إمرسون أن أقلام رصاص ثورو فى مستوى فخامة أفضل أقلام الرصاص المصنوعة فى لندن . ومع أن هذه الأقلام كانت مرتفعة الثمن ، سعر الواحد منها خمسة وعشرون سنتا ، إلا أن إحدى معلمات الفن فى بوسطن أوصت تلميذاتها على كل حال بشراء أقلام رصاص ثورو دائماً لأنها أفضل الجميع .

وبعد بضع سنين اخترعت آلة الطباعة الكهربية فزاد الطلب على رصاص آل ثورو الأسود . ومع أن ثمنه هبط فيما بعد ، إلا أن الأسرة تلقت عشرة دولارات عن كل رطل منه ، وكانت تبيع خمسمائة رطل فى السنة . وعندئذ قل اهتمام آل ثورو بصناعة أقلام الرصاص ، وركزوا جهدهم فى صنع الرصاص وبيعه . ولما تقدم الوالد فى السن ثم مات سنة ١٨٥٩ أشرف ثورو بنفسه على نظام العمل بالمصنع ونقل الناتج المعد للبيع إلى حجرة علوية فى بناء ملحق بالبيت الذى كانوا يعيشون به فى ذلك الحين وكان يحزم الرصاص توطئة لشحنه بالسفن ، وتقوم أخته الصغرى صوفيا بأعمال المؤسسة الكتابية .

ولابد أن هذا العمل الدائب بيديه قد سكن ثائر ثورو وحسن من حالة مزاجه بعد الأسى الذى منى به فى نيويورك ، ولكن هذا العمل ما كان ليرضيه طويلا ، ولم يرضه طويلا بالفعل ، فلا أرب له فى عبودية جديدة

لعمل ناجح ، فجماهير الناس — كما لاحظ — يعيشون حياة هدوء يائس، وحسبه ما ذاق من اليأس ولديه ما هو أفضل من ذلك عملا يقبل عليه .

وقرب نهاية مارس سنة ١٨٤٥ اقترض ثورو قطعة أرض من إمرسون ، وفأسا من آلكوت — الذى خالجه الريب وهو يقرضه إياها — ثم بدأ مغامرة حياته العظمى .



الفصل السابع

وبفأس آلكوت قطع ثورو ونحت الأخشاب والأوتاد والعروق اللازمة للسقف كى يبنى بها بيتاً من حجرة واحدة أقامه بيديه فى غابة صنوبرية على الشاطىء الشمالى الغربى لبحيرة والدن خارج حدود كونكورد مباشرة وعلى مبعدة ميل من أقرب جيرانه إليه . وما أقل من تركوا لنا بياناً مفصلا دقيقاً لما صنعوا ، وكيف صنعوه ، ولماذا صنعوه، وما يتمخض عنه من نتائج بمثل ذلك التفصيل الدقيق الذى تركه لنا ثورو فى كتابه « والدن » ، ومن أوائل ذكريات ثورو ركوبه عربة جدته للنزهة على شواطىء بحيرة « والدن » ، وقد خطر له عندئذ أن ذلك المكان تطيب فيه الإقامة ، فاتجه إلى هناك سنة ١٨٤٥ ليعيش بمفرده فيه كى « يصرف بعض أعماله الخاصة بأقل ما يمكن من المعوقات » ، وكان هذا العمل مراجعة وتدبيج كتابه الأول .

وكيما يحصل ثورو على الجدران الجانبية ابتاع كوخ عامل إيرلندى فى طريق فتشبرج الحديدى الذى كان جارياً إنشاؤه عبر كونكورد . وفى بداية مايو تمكن بمعونة آلكوت وتشاننج وصديق فلاح اسمه ادموند هوسمر وجورج وليم كيرتس - الذى صار فيما بعد محرر مجلة هاربرز الأسبوعية - من إقامة الجدران ، ثم بطن السقف والجوانب بألواح قصيرة رفيعة ، وكسا بالجص الجدران الداخلية وبنى مدفأة من الحجر. وبمبلغ ٢٨ دولاراً و ١٢ سنتاً ونصف سنت — على حسب عمليات ثورو الحسابية الطريفة فى دقتها — حصل على بيت محكم مستكن واف باحتياجاته ، وبدأ يقيم به منذ ٤ من يولية سنة ١٨٤٥ وظل يسكنه سنتين وشهرين .

وكان البيت صغيراً ، طوله خمس عشرة قدماً وعرضه عشر أقدام ، ويتسع بالضبط لشخص واحد ، وهو الاتساع الذى كان يرومه ثورو لبيته بلا زيادة أو نقصان . وقد سر به تشاننج الذى كان يكثر من زيارته، وكتب يقول عنه : « إذا ما وقفت فوق كرسى استطعت أن تلمس السقيفة . وبمكنسة من أعواد الذرة تستطيع أن تسبر أقصى غور لحجرة المؤنة » ، وأثاث ثورو الذى صنع بنفسه جانباً منه وحصل على سائره بلا مقابل، كان عبارة عن مائدة وفراش ومكتب وثلاثة مقاعد ومرآة صغيرة وماشة وأثفيات (أحجار كانون للطهو) وبضعة أوان للطهو والغسيل، وسكينتين وشوكتين وثلاث صحاف وملعقة ومصباح يوقد بالزيت .

ولكى يربح ثورو بضعة دولارات زرع ما يعادل أقل من فدانين من الأرض الرملية قرب كوخه بالفاصوليا والبطاطس والذرة والبازلاء واللفت . وكان يعزق الأرض للفاصوليا أحياناً من الخامسة صباحاً حتى الظهر وهو يحلم فى الوقت نفسه بأيما شىء يريده ، فكان أشد مزارعى

كونكورد استقلالا على حد قوله ، غير مرتبط ببيت كبير أو بيدر أو عبء مبهظ من الأفدنة ، وإنما هو حر يذهب ويجيء كما يهوى ، يفعل ما يشاء حين يشاء . وإن عن له لم يصنع شيئاً سوى الإنصات للأصوات، وللصمت ومراقبة البحيرة وما يعتريها من التغير فى كل فصل من فصول السنه .

وكان ثورو قد أقام بيته ليكون له مكان يعمل فيه فلا يزعجه احد ، بيد أنه كان لديه غرض أعمق من هذا فى لجوئه إلى الغابة ، وهو الغرض الذى عبر عنه فى فقرة شهيرة من كتابه « والدن » :

« لقد توجهت إلى الغابة لأنى أردت أن أعيش فى تدبر وروية ، فلأواجه إلا وقائع الحياة الجوهرية ، وأرى إن كان فى وسعى أن أتعلم ما يسعها أن تعلمنى إياه أم لا ، حتى لا أكتشف عندما يحين أجلى أنى لم أعش . فلم أشأ أن أمارس الإذعان ما لم يكن ذلك حتما لزاماً . بل أردت أن أعيش بعمق وأمتص كل نخاع الحياة ، أردت أن أعيش بعنفوان على الطريقة الإسبرطية ، تلك الحياة التى تدحر كل ما ليس حياة حقة طولا وعرضاً وتمحقه محقاً ، بحيث أضيق الخناق على الحياة إن وجدتها خسيسة حقاً،وأستخلص خساستها فأعلنها على الملأ . أما إن وجدتها مجيدة فلأعرف إذن بالتجربة مواطن عظمتها كى أجلوها ببيان صادق فى رحلتى القادمة » .

ولم يكن ثورو ناسكا متوحداً أثناء إقامته فى بحيرة والدن، فقد اعترف منذ أوائل صفحات « والدن » أنه كثيراً ما تعشى فى الخارج كالعهد به دائماً . وكان يتوجه إلى بيت أسرته كل يوم تقريباً ، وكثيراً ما عاد من هناك بفطائر محشوة وغير ذلك من المآكل من حجرة مئونة أمه ليستعين بها

على غذائه الأصلى من الرز والجويدار وفطائر الذرة الهندية والسمك الذى يصطاده من البحيرة . وفى المساء غالباً ما يوجد فى بيت أسرته أو بيوت أصدقائه . وبالمفارقة والمبالغة الصريحة التى تتميز بها فكاهته كتب يقول :
« وكما كنت أسير فى الغابة لأشاهد الطيور والسناجب كذلك كنت أسير أيضاً فى القرية لأشاهد الرجال والغلمان . . وفى اتجاه معين من بيتى جماعة من فأر المسك تعيش فى مروج النهر ، وتحت أجمة من شجر الدردار والدلب فى الاتجاه المقابل قرية من البشر النشطين تثير فضولى المستطلع كما لو كانوا جماعة من السناجب التى تسكن السهوب وتنبح كالكلاب يجلس كل منها عند فوهة وجاره، أو يجرى صوب وجار أحد جيرانه للثرثرة . وكثيراً ما مضيت إلى هناك لأرقب عاداتهم » .

وكثيراً ما ذهب أهل القرية إلى الكوخ ليرقبوا عادات ثورو . فإن ترك كرسياً خارجه عرف أصدقاؤه أنها علامة على أنه فى الدار ، ويرحب بالزائرين . وكان الكوت — الذى استرد فأسه أحد مما أقرضها — يأتى للزيارة . وكان ثورو يرى فى آلكوت رجلا من أقوى البشر إيماناً بالحياة فما من فشل يمكن أن يثبط عزيمة آلكوت.فهو فى نظره صديق البشرية الصادق ويكاد يكون الصديق الوحيد للتقدم البشرى. فآلكوت يفترض دائماً وضعاً للأمور أفضل حالا مما يستطيع سواه من الناس أن يروه قائما . فهو صحيح النفس على أقوم وجه ، دائم التفاؤل ، ولذا تراه على حاله لا يتغير بين أمسه ويومه وغده . ولم يتصوره ثورو يمكن أن يموت يوما ما ، لأن الطبيعة — على حد قوله — ما كانت لتستغنى عن وجوده . .

أما الشخص الذى كان يحضر لزيارته من أبعد مدى وفى أسوأ الزوابع



شيد "ثورو" بيته على بحيرة والدن ، وعاش فيه ليصرف بعض أموره الخاصة بدون عقبات قدر الإمكان .

وأشد الثلوج عمقاً فهو اليرى تشاننج ، فما من شيء — فيما يراه ثورو — يمكن أن يعوق الشاعر ، لأن الحب الخالص يستفزه ويحركه. وعندما يجتمع أحياناً بتشاننج أو حينما يكون ألكوت معهما ، يتجاوب البيت الصغير برنين ضحكاتهم أو أصداء حديثهم الفائر .

وكان ثمة زائرون أقل من هؤلاء ترنسندنتالية ، وأحدهم قاطع أشجار كندى فرنسى هادىء قوى البنية أمى ، بيد أنه عليم بأحوال الغابات ، فكان ثورو شديد الإعجاب به ويشجعه على زيارته . وكان المرتحلون العاديون يمرون بالدار فيقفون بها ليسألوه جرعة ماء ، فيدلهم ثورو على البحيرة التى منها يشرب ويقدم لهم دلاءه . وكان بعض المعتوهين من نزلاء ملجأ المعوزين يمرون به فى تجوالهم فيحاول أن يتحدث إليهم — كما قال — وكأنهم مكتملو العقل ويلتقى بعمال إيرلنديين فى الغابة وحول البحيرة فيحبهم ويعرف فيهم رفاقاً له . وذات مرة جاء إلى كوخ والدن عبد آبق فساعده ثورو على اتخاذ سبيله إلى كندا حيث نجا بحريته .

وتساءل كثيرون : ألم يكن يستوحش فى الغابة ؟ فكان ثورو يرد على عديد من هؤلاء — وإن كان نفر منهم لم يستطيعوا فهمه ، ومضوا عنه وهم يهزون رءوسهم — قائلا : « ولماذا أشعر بالوحشة ! أليس كوكبنا هذا ضمن كوكب المجرة ؟ » ويقول أيضاً : « إنه لم يتبين قط أن أى سعى على القدمين يمكن أن يزيد عقلين من عقول الناس قربى » وكان — إمرسون — يدرك أن الإنسان يمكن أن يكون وهو بين الناس أشد وحشة وتوحداً مما يكون بمفرده .

ونادى ثورو فى « والدن » بأن المجتمع مسرف فى الإسفاف غالباً .

ذلك أننا نلتقى بين فترات شديدة القصر لا يتسنى لنا فيها اكتساب أدنى قيمة بالنسبة لبعضنا بعضاً . فنحن نجتمع على الطعام ثلاث مرات فى اليوم ، فنقدم لبعضنا البعض مذاقاً أشبه بمذاق الجبن الزنخ . وقد تعين علينا أن تتفق على عدد من القواعد المرعية تسمى آداب السلوك والتهذيب كى نجعل هذه اللقاءات المتلاحقة محتملة فلا تندلع فيما بيننا الحرب السافرة .

وما كان إنسان سوى من كان كثورو غنياً بأصدقائه مدى حياته مستطيعاً أن يتظاهر بالاستخفاف بالصحبة، فيعلن فى اصطناع شديد للجد : « لست أشعر بالوحشة أكثر مما يشعر بها نبات آذان الدب أو الهندباء البرية فى المرج ، أو ورقة من نبات الفاصوليا أو نبات آذان الحمل أو ذبابة الفرس أو النحلة الطنانة . لست أشد استيحاشاً من جدول الطاحون أو الديك المرفوع أعلى البناء ليدلنا على مهب الريح ، أو النجم القطبى أو ريح الشمال أو شؤبوب مطر فى إبريل أو عاصفة ثلج فى يناير ، أو أول عنكبوت يحل فى بيت حديث البناء » .

وإلى حد قد يكون عظيما كان ثورو يعنى ما قال . فقد أبهجته حياته فى « والدن » فكان يحب أن يستيقظ مبكراً فى الصباح فيغطس فى ماء البحيرة البارد ، ثم يخرج أثاث بيته كله خارجه ويحك أرضه بالرمل ، ثم يغسله بماء يأتى به من البحيرة ويترك الأرض بعد ذلك فتجف قبل أن يكون معظم سكان القرية قد نشطوا للحركة ، .وكان يحب أن يسمع صفير القاطرة ليلاً أو صليل عجلات عربات القطار المسيجة بالحديد فوق قنطرة بعيدة . وكان يصغى لعواء الثعلب ودعاء طائر الماء ؛ كان يسمع البوم فى الليل ، ويسمع فى الشتاء القصف الناجم عن تصدع الثلج فى البحيرة المتجمدة .

وقد يجلس فى الليل أحيانا فى زورقه ليعزف على نايه وهو يرقب السمك وقد بدا عليه أن الصوت العذب قد اجتذبه فراح يضطرب فى الماء من حوله .

وترداد صدى أصوات طيور الليل فى المنطقة وذكران الضفادع كان صوتاً حبيباً إلى نفسه أن يسمعه فى الوحدة والصمت الرائنين على « والدن » وفى بعض الأحيان كانت سعادته تكاد تجل عن التعبير : « هذا مساء لذيذ ، فالبدن كله حاسة واحدة مرهفة تشعشع الحبور فى مسامه جميعا » ؛ وكثيراً ما كان الصباح بمثل هذا الحبور ، فيجلس ثورو أحيانا فى الشمس قرب بابه فى صباح أيام الصيف منذ شروق الشمس إلى الظهر غارقا فى سبحات أحلامه ، والطيور تشدو على أفنان الصنوبر وشجر الجوز الأمريكى وشجر السماق . . فكان — كما قال — ينمو فى تلك الفصول نماء الذرة فى غضون الليل » .

وفى أحيان أكثر من هذه كان ينصرف إلى العمل قارئا وكاتبا ، فقد وجد مسكنه هذا أحظى بالفكر من الجامعة ، فقرأ الكلاسيات لأنها : « أنبل أعمال البشر التى حفظت لنا » وقرأ الشعر الذى ينبغى للمرء أن يقف على أطراف أصابع قدميه كى يقرأه ويفهمه .

أما قصص عصره فمعظمها مسلسلات لا تكاد تنتهى مكتوبة للبائعات فى المتاجر ، ولذا كان يزدريها ، لأن مثل هذه الروايات ما كانت لتستثيره لكتابة أفضل ما عنده ، وهو ما كان يسعى إليه .

ومن كتاباته التى كانت قد ظهرت فى « المزولة » ، ومن يومياته ، ومن الأفكار والنصوص المختارة التى جمع شتاتها من قراءاته المستفيضة ، راح

ثورو يكتب القصة الكاملة للرحلة التى قام بها مع جون فى سنة ١٨٣٩ ، فإذا كتابه « أسبوع على نهرى الكونكورد ومريماك » تبرز معالمه فى الشهور التى قضاها فى والدن ؛ وكان ثورو مصراً على أن يكون هذا الكتاب برهانه القاطع على صفة الكتاب التى يدعيها لنفسه ، وكان يفكر فى ذلك وهو يرسم فى ذهنه سلفا مضمونه فصلا فصلا ، وفقرة فقرة ، وجملة جملة . وكانت تدور فى ذهنه خواطر أخرى لا علاقة لها بما فى يده وهو يصيد السمك ، أو يعزف على الناى ، أو يقطع الخشب محتطبا لنيران الشتاء ، وكان الخشب يدفئه مرتين كما قال : مرة وهو يحتطبه ويقطعه ، ومرة أخرى عندما يحرقه فى مدفأته .

وكانت تقطع عليه عمله شواغل كالطهو وتنظيف المنزل وقدوم الزائرين أو ذهابه لأداء الزيارات أو تلهيه بطائر مائى يشبه الأوز كان يغوص فى الماء كلما حاول ثورو أن يقترب منه بزورقه ، ثم يظهر ثانية على مسافة بعيدة فى البحيرة ليغيظه ؛ وكان يرقب النمال وهى تتحارب فيما بينها أو جيشا صغيراً من الرجال جاءوا ليحطموا جليد والدن .

وحدث أيضا ذلك الانقطاع الذى أمسى يضارع تقريبا فى شهرته كل حياة ثورو فى والدن ، فذات يوم بعد الظهر فى أواخر يولية سنة ١٨٤٦ ذهب إلى القرية ليسترد حذاء كان قد تركه لدى الإسكاف ليخصفه ، فلما بلغ كونكورد قبض عليه وأودع السجن لأنه لم يكن قد أدى ضريبة الرأس منذ ست سنين ، ولم يكن ليؤديها ، وعرض عليه سجانه سام ستابلز — الذى قال فيما بعد إن هنرى كان « هائجا كالشيطان » عندما اقترب منه — أن يؤدى عنه الضريبة إن كان معسرا فى الوقت الحاضر ، ولم يكن هذا مربط

الفرس ، بل إن ثورو لا يعترف بسلطان للدولة التي تشرى الناس وتبيعهم رجالا ونساء وأطفالا كالسائمة على باب ديوانها الرسمى ، وما كان ثورو ليؤدى ضريبة من أى نوع كان لحكومة تؤيد الرق ، وهكذا اكتشف سام ستابلز أن الأمر كله لا يعدو أن يكون مسألة مبدأ ، ومع هذا كان مستعداً لأداء الضريبة عن « ثورو » مع أنه ما كان يفعل ذلك « للعجوز ألكوت » الذى كان أيضاً من المحتجين بالضمير .

وبدلا من أن يؤدى الغرامة عن ثورو اضطر السجان إلى نزع حذاء « ثورو » كى يمنعه من الهرب ثم حبسه لقضاء الليل مع سجين متهم بإحراق بيدر . وفى الصباح غضب ثورو عندما أدى شخص ما الغرامة عنه ، مثلما غضب عند القبض عليه . ولا يعلم أحد على سبيل القطع من الذى أدى عنه الغرامة ، ولكن الراجح أنها إحدى عماته ، لأن امرأة مجللة الوجه بشال يخفى معالمه شوهدت تعدو نحو السجن .

وأطلق سراح ثورو بعد الظهر ، فاستأنف بهدوء ما كان بصدده من حيث أكره على قطعه ، فتوجه إلى دكان الإسكاف ليسترد نعله ، ثم تزعم — كما كان ينوى من قبل — جماعة لجمع ثمار نوع من التوت منتفخ الأرداف ، فجنى منه ملء دلو لعشائه . وفى كتابه « والدن » كتب بمرارة :

« كنت قد مضيت إلى الغابة لأغراض أخرى ، ولكن أينما ذهب الإنسان تعقبه الناس بأنظمتهم القذرة ، وأجبروه إن استطاعوا على الانتماء إلى مجتمعهم المستهجن المتهور .. » .

وسيقول ثورو عن هذا الحادث المزيد من فوق منبر اللوقيوم بكونكورد

فى سنة ١٨٤٨ ، وقد أصبحت محاضرته تلك نداءه النارى المسمى «العصيان المدنى» .

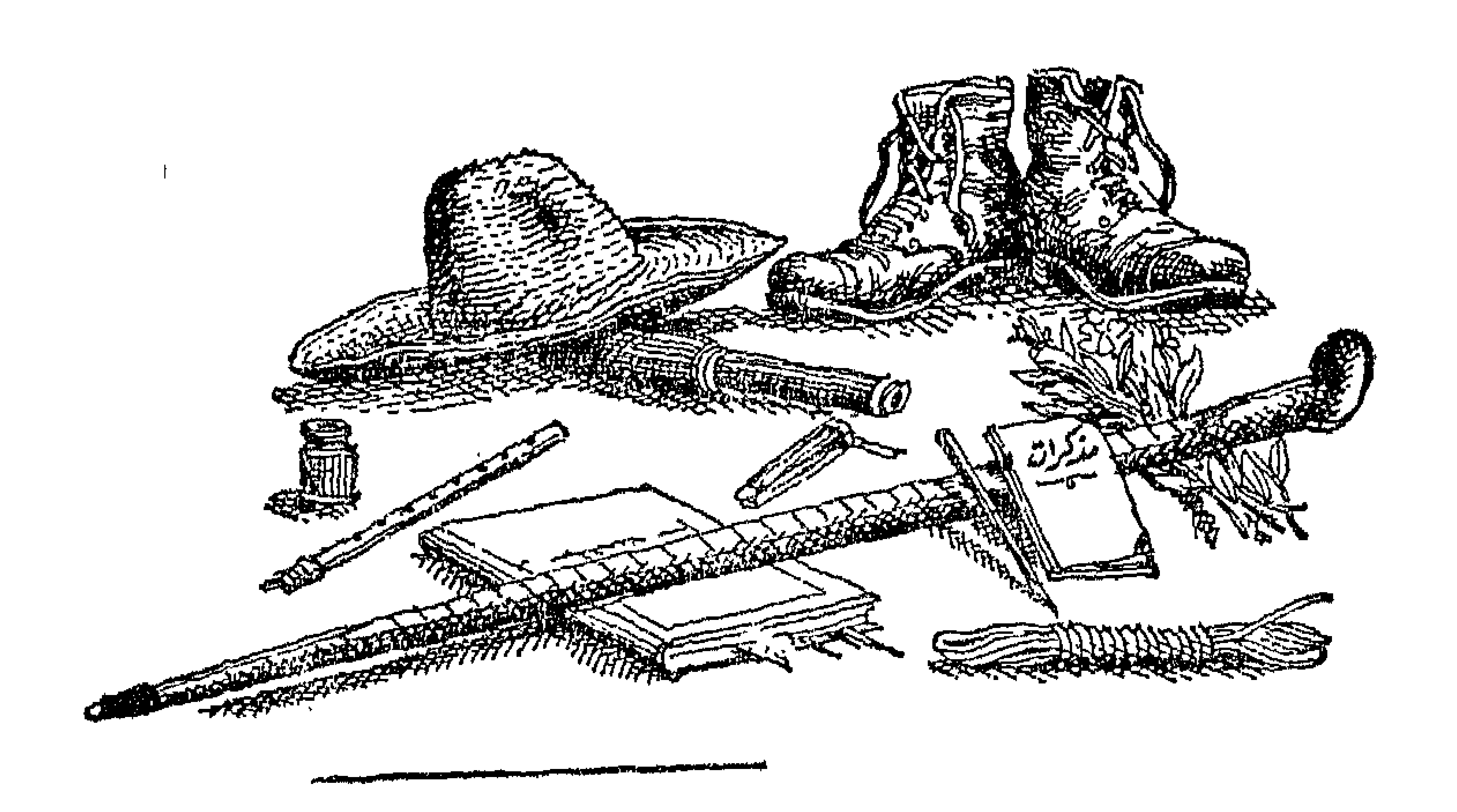
وذكر فى «والدن» أنه ما من أحد أساء إليه أو هدده بأذى فى السنوات التى قضاها فى الغابة . بل إنه عندما تغيب أسبوعين من ثانى صيف له هناك قضاهما فى مين لم يصب أحد ممتلكاته بأذى ولم يسرق أحد أى شيء من مقتنياته فيما عدا مجلداً واحداً صغيرا من أعمال هوميروس ، وتمنى لمقترضه أن يهنأ به ، وقال ثورو بلهجة لاذعة إنه «لم يتلق إساءة قط من أحد ، اللهم إلا من يمثلون الدولة» .

فى والدن كان ثورو يطيع بحرية تامة ميله إلى الفطرة ونوازعه العليا نحو الجمال والحق . والكثير مما أشربه من هذه المؤثرات لم يكن بوسعه أن يصفه إلا على سبيل المجاز قائلا : «إن الحصاد الحقيقى لحياتى اليومية لا يكاد يدرك ولا يوصف كألوان المساء والصباح . وإنما هى قبضة من غبار النجوم قبضتها أو شظية من قوس قزح تشبثت بها» .

ولم يستيقن ثورو قط من السبب الذى دعاه لمغادرة الغابة ، وكثيراً ما تمنى فى التالى من أيامه لو عاد ، وقد كتب فى يومياته بعد خمس سنين من ختام مغامرته : «لعلنى كنت راغباً فى التغيير . فقد أحسست بشيء من الركود . ربما . فحوالى الساعة الثانية بعد الظهر قعقع محور الدنيا كأنه بحاجة إلى التشحيم ، وكأنما الثيران يبهظها جر العربة الثقيلة ، فلا تكاد تصل بحملها الثقيل إلى ذروة المرتقى من ذلك النهار» . ولعله — فيما قال — شعر بحاجته إلى حيوات عديدة أخرى يعيشها . ومن المقطوع به أنه كان قد اكتشف حقيقة واحدة أساسية كان يخامره إحساسها من قبل :

« لقد تعلمت بالتجربة هذا الأمر على الأقل : ان المرء إذا ما مضى قدماً بثقة وثبات فى اتجاه أحلامه ، واجتهد أن يعيش الحياة كما تخيلها ، فلابد أن يصادف نجاحاً فى ذلك لا يتوقعه فى الساعات المألوفة . . فإن كنت قد بنيت قلاعاً فى الهواء ، فما ذهب جهدك سدى ، ففى الهواء ينبغى أن تجدها ، وما عليك الآن إلا أن تضع من تحتها أساسها » . .

وغادر ثورو بحيرة والدن وعاد فى ٦ من سبتمبر سنة ١٨٤٧ إلى بيت أبيه فى كونكورد ، وقد حقق ما انبرى له من وجوه تتجاوز ما تضمنه بيانه عن هذه التجربة . . فقد عاد ومعه الصياغة النهائية الكاملة تقريبا لكتابه « أسبوع على نهرى الكونكورد ومريماك » .



الفصل الثامن

وكان كتاب ثورو معروفاً بمام المعرفة لدى أصدقائه فى كونكورد قبل ذلك ؛ ففى وقت مبكر يرجع إلى يوم ١٦ من يولية سنة ١٨٤٦ كتب إمرسون إلى تشارلز كنج نيوكوم أن ثورو قرأ عليه أجزاء منه تحت شجرة بلوط بعد ظهر ذات يوم فأنعشته هذه القراءة ، وأعرب لتشارلز عن أمله فى نشره قريبا .

وكذلك ألكوت سر بعمل صديقه الشاب ، فكتب فى السادس عشر من مارس سنة ١٨٤٧ يقول :

« هذا المساء قضيته مع ثورو فى معتزله على شاطىء والدن فقرأ لى بضع فقرات عنوانها : أسبوع على نهرى كونكورد ومريماك .

وهذا الكتاب أمريكى محض يفوح منه عبير الحياة فى غابات وجداول نيو انجلاند ، وما كان ليكتب فى مكان آخر . وقد أثر فى نفسى على الخصوص ما فى الكتاب من كفاية وسلامة وأصالة قوية، كأنما أقبل إلى الطبيعة إنسان يعرف ماذا تريد منه الطبيعة أن يصنع بها . فهو فرجيل وهوايت أوف ملبورن واسحق ولتون والمستوطن فى برارى الشمال جمعوا فى شخص واحد . وقد عدت إلى دارى فى منتصف الليل عبر مسالك الغابة المغمورة بالثلج ، ونمت وأجفانى يداعبها حلم سار بأن المطبعة ستقدم إلى عما قريب كتابين يستحقان الفخر : أشعار إمرسون ، و«أسبوع» ثورو .

وكان إمرسون — كما هو الشأن دائماً — يبذل قصارى جهده فى سبيل ثورو ففى أوائل سنة ١٨٤٧ كتب إلى إيفارت دويكنك رئيس تحرير «عالم الأدب» الصحيفة ذات النفوذ يقول : «إن مستر هنرى ثورو من أهالى هذه البلدة قد فرغ أخيراً من كتاب على جانب غير عادى من الجدارة . . سيكون فى جاذبية كتابات اسحق ولتون لدى عشاق الطبيعة . وسيكون جذابا لمحبى الدراسات والعلماء لما فيه من أدب ممتاز ، وجذابا لأهل الفكر والتأمل لما فيه من أصالة وسلامة .» وكان يعلم أن ثورو يسعده أن يبعث بمخطوطه إلى دويكنك كى يطالعه على أمل أن يقدم إلى وايلى وبوتنام ويوقعا على نشره .

ولما رفضت مؤسسة النشر النيويوركية تلك ، نشر الكتاب ، حاول إمرسون أن يظفر بالحظوة عند إخوان هاربر وغيرها من مؤسسات النشر فى نيويورك فرفضوه جميعاً . وكذلك رفضه جميع ناشرى بوسطن الذين تم

الاتصال بهم . فحاول إمرسون الاتصال بناشرى فيلادلفيا عن طريق و . ه فيرنس ،وهو من زملاء الدراسة من أهالى بوسطن ، وقد أصبح الآن قسيساً لكنيسةالتوحيد هناك ، فذكر ثورو لفيرنس أنه شديد الاهتمام بالعمل على نشر « الأسبوع » فى طبعة زهيدة للتوزيع الواسع ؛ ورفضت مؤسسة كارى وهارت الكتاب . وكذلك رفضه ناشر جديد اسمه مور .

ومرة أخرى واجه ثورو الحقائق القاسية التى كان قد واجهها أولا فى نيويورك ، وكان من قبل شديد الحماسة لكتابه مزهواً به : « ها هو ذا كتابى ينمو ويزداد حجمه كلما عملت فيه » . ولكن ها هو ذا الآن ثبطت همته وأكره على أن يدرك أن القيمة الأدبية لكتاب ما قليلة الارتباط بما يلاقيه هذا الكتاب من رواج تجارى . فهذا الكتاب الغريب بقلم مؤلف مجهول فى الثلاثين من عمره لم يبد للناشرين مخاطرة حسنة ؛ فرفضه جميعهم مع أن معظمهم — كما كتب ثورو متهكما إلى إمرسون فى ١٤ من نوفمبر سنة ١٨٤٧ — على أتم استعداد لنشره على نفقة المؤلف .

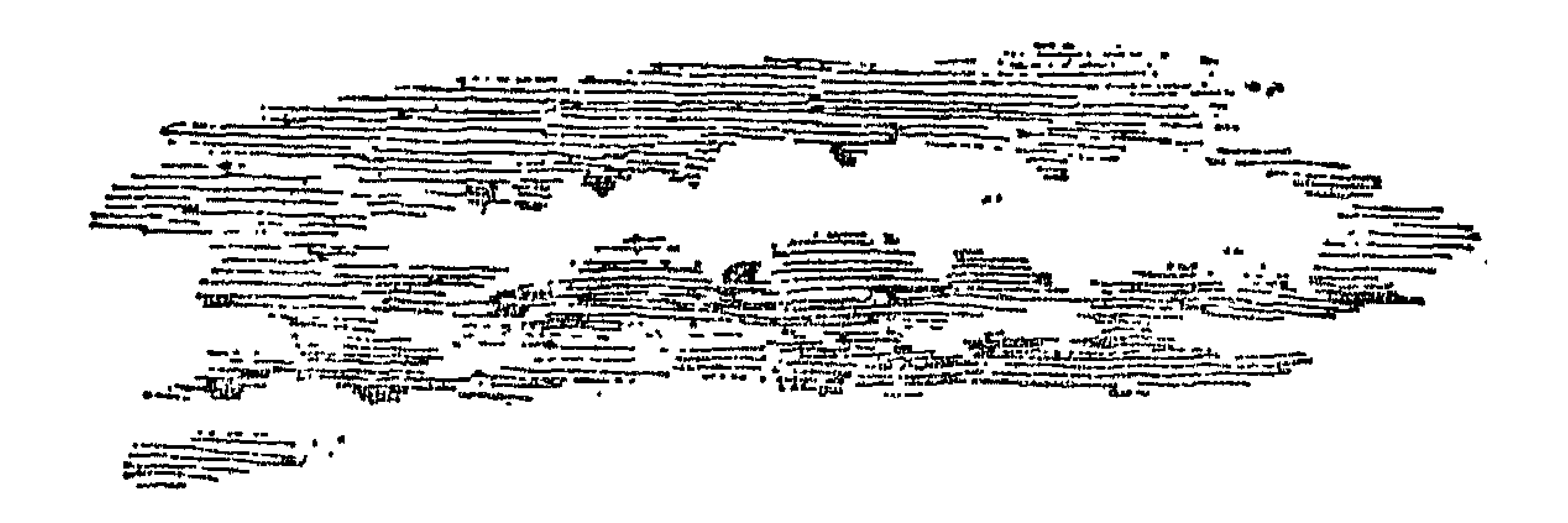
وكان إمرسون فى هذا الوقت يحاضر فى أوروبا ، أما ثورو فكان قد عاد مرة أخرى إلى دار إمرسون حيث سيقيم عاما ، وقال إنه ليس مغرماً بكتابه إلى درجة الإنفاق على طبعه ، وأعلن أنه فى الوقت الحاضر صار غير مكترث به . وما كان إمرسون ليسمح بمثل هذا القنوط ، فكتب إلى ثورو يستحثه على عدم تأخير نشر « الأسبوع » شهراً آخر ، وأنه واثق بأن ثورو لن يتعرض لمجازفة حقيقية بتمويل نشره ، فمن المؤكد أن الكتاب سيلقى تقديراً لدى القراء فى إنجلترا وفى الولايات المتحدة على السواء .

وكتب إلى زوجته ليديان — التى كان يعلم مبلغ تأثيرها العظيم فى ثورو — يحثها على ألا تدع ثورو يستأنى أكثر من ذلك .

وكان هوراس جريلى أيضاً يواصل إلحاحه من نيويورك على ثورو كى ينشر المزيد من كتاباته قائلا : « إنك وإن كنت تكتب بقلم ملك سماوى إلا أن عملك لن تكون له قيمة تجارية ما لم تعرف بين الناس ككاتب » . واستطاع جريلى أن يمهد لنشر « كتادن » وهو وصف بقلم ثورو لرحلته فى ولاية مين ، فنشر مسلسلا فى مجلة الاتحاد التى يملكها سارتين فى سنة ١٨٤٨ ، كما نشر طرفا آخر من أعماله الأخرى فى مجلة بوتنام الشهرية . وكان يشرف على تحريرها جورج وليم كيرتس الذى ساعد ثورو من قبل فى تشييد بيته فى والدن.

وبدلا من اتباع نصح أصدقائه أجل ثورو قراره وواصل العمل فى مراجعة مخطوط الأسبوع . وفى يناير سنة ١٨٤٨ قرأ على آلكوت مقاله العاطفى عن الصداقة ، وكان قد فرغ لتوه من كتابته وأدمجه فى الفصل الثالث من الكتاب . ولم يكن لديه ما يكفى من المال لنفقات طبع كتابه ، وكان يفرق فزعا من الاستدانة . وأخيراً جازف بنفسه وقرر حين لم يجد وسيلة أخرى أن ينشر الكتاب بنفسه كما يفعل المؤلفون الشبان الآخرون مضطرين، فرتب مع جيمس مونرو فى بوسطن نشر « الأسبوع » على نفقة المؤلف . وأصبحت تجارب الصفحات بين يدى ثورو قبل نهاية سنة ١٨٤٨ فراجعها بعناية شديدة وأحدث فيها أكثر من ألف تصحيح .

وفى ٢٢ مايو سنة ١٨٤٩ كتب إمرسون إلى صديق له يقول: إن كتاب ثورو سيخرج إلى النور بعد وقت وجيز جداً . وبعد أربعة أيام قدم ثورو





قنطرة كونكورد : هنا ذات مرة وقف المزارعون متأهبين للقتال
وأطلقوا نيرانا دوى قصفها فى أرجاء الدنيا . "

إلى آلكوت نسخة من النسخ الأولى التى تتاح للمؤلف قبل طرح الكتاب فى السوق ، فطالعه آلكوت طوال اليوم التالى ، ورأى أن فكرته عنه مطبوعا مجلداً هى بعينها حينما سمع أجزاء منه فى والدن . وتاريخ النشر الفعلى « للأسبوع » هو ٣٠ من مايو سنة ١٨٤٩ .

ولابد أن ثورو تهلل لمنظر كتابه الأول وملمسه . وكان « الأسبوع » كتاباً صغيراً مجلداً بغلاف بنى محتشم مطبوع عليه رسم لأزهار متشابكة ، وبين دفتى هذا الكتاب الصغير وبثمن قدره دولار وربع كان مبلغ ماوصل هنرى دافيد ثورو إلى تحقيقه حتى ذلك الحين ، وفيه حصيلة حبه للأنهار ، والغابات والحقول،وكذلك حبه المكنوم لأخيه جون ، وحبه للكلاسيكات الإغريقية ، والشعراء القدامى ، على صورة سرد للرحلات والمغامرات التى قام بها مع جون ، والأشعار التى نشرها أولا فى المزولة والموضوعات التى استمدها من محاضراته فى اللقيوم ومن يومياته .

وبعد فصل افتتاحى عن نهر كونكورد قسم ثورو كتابه إلى سبعة فصول جعل لكل فصل منها اسم يوم من أيام الأسبوع على التوالى ، بادئاً بيوم السبت ٣١ من أغسطس سنة ١٨٣٩ عندما أقلع هو وجون بعد ظهر يوم مشمس لطيف فى أعقاب صباح تساقط فيه المطر رذاذاً . ومخرا بالزورق مجتازين ساحة قتال كونكورد حيث — وهنا نقل ثورو نصاً شهيراً من إمرسون: «وقف المزارعون متأهبين للقتال وأطلقوا نيرانا دوى قصفها فى أرجاء الدنيا » ثم انطلقا فى سبيلهما .

و « الأسبوع » كتاب دافىء غنى بالوصف المتنوع والسرد والتعليق على مائة موضوع ، فالتعليق هو الجانب السائد فى الكتاب . فهو ليس

كتابا محكم البناء محدد المعالم بوضوح ، ومادته غير متبلرة ، ذلك أن ثورو نفسه ربما لم يكن قد تبلر بعد ، بل كان يريد أن يظهر نفسه وقدرته مفكرا وكاتبا للعالم أجمع، وأن يقيم نصبا تذكاريا لجون ويعبر عن أفكاره ومشاعره . وفى محاولاته أن يقوم بكل تلك الأمور لم يهتم بالصقل والتشذيب . بل كان فى الواقع يسجل كل شيء كما هو ، فجاء « الأسبوع » كتابا يضم فقرات بديعة ؛ بعضها غنائى ساحر ، وبعضها الآخر ذهنى ناقد ، وسائرها كما أرادها ثورو فقرات وعرة تشيع الاضطراب فى النفس .

وكان هو وجون يجذفان ، أو يستخدمان الشراع على حسب ما يسمح بذلك هبوب النسيم أو ركوده . ففى بعض الأحيان كان سطح النهر كالمرآة، وفى أحيان أخرى كان يبدو مثقلا بضباب أبيض فى الصباح الباكر أو ناعما عند الغسق .

وانطلقا يجتازين بلدانا نهرية ، وقرى وريفا أحبه ثورو . وثمة أوصاف ساحرة لمناظر النهر والحياة التى تنعكس على صفحة النهر وهو وجون يمخران ببطء على طول ما كان ثورو يظنه طريقا سلطانيا طبيعيا لا يزعج حياة الأرض التى يمر بها ، وفى الليل كانا ينصبان خيمتهما ، التى كانت أثناء النهار شراعا للسفينة ، وينامان فوق الشاطىء على أردية من جلود البقر متدثرين بالبطاطين ، ويطهوان وجبة المساء على نار صغيرة يعدانها بحيث يستطيعان إضافة الوقود إليها من غير أن يغادرا خيمتهما . وفى النهار كانا يروغان من سفن القناة الكبرى ، ويتحدثان إلى نوتيتهما، ويراقبان النجارين والفلاحين وبناة الزوارق والحطابين القائمين بالعمل على امتداد الضفتين .

وكانا يقفان بالقرى والمزارع للتزود ، ويجتازان جزرا نهرية صغيرة ،

ليخطر ببال ثورو أنه يود لو عاش فى إحداها . وذات مرة اندفع قطيع من الأغنام هابطا جانب تل لينظر إليهما . وفى مرة أخرى لاذا من المطر بالرقاد فى حقل شوفان برى ذاو ، وقد أحب ثورو ذلك . وذات مرة أيضا زودهما مزارع مضياف بالبطيخ ، مع أنه أنذرهما بالخطو على ارتفاع بعيد فوق الحبل الممدود مشدودا على مسافة قدم فوق الأرض حول حقله ، متصلا ببندقية محشوة لإبعاد المتطفلين عن فاكهته .

وكان الأخوان يتحدثان فى أمور كثيرة ، وإن كان ثورو لا يسجل محادثات مباشرة ، ويشير إلى جون فقط باعتباره رفيقه أو زميله فى الملاحة أو زميله فى السفر .

وثمة طمأنينة وسلام يكتنفان بيان ثورو عن رحلتهما فى زورقهما موسكيتاكويد ، بيد أن السرد ليس فى الحقيقة إلا إطاراً لكل شيء آخر صبه فى كتابه « الأسبوع » صبا . فما أيسر وأسرع ما ينزلق ثورو من بيانه عن المواضع التى توجها إليها ، وما كانا يفعلان ، وما كانا يريان ، إلى ذكر تأملات ونوادر وأقاصيص تتعلق بتاريخ البلدان والقرى التى أطافا بها .

فإذا بمقالات كاملة عن الصداقة ، وأديان الشرق والتفكير الفلسفى ، والمسيحية ، والكتب ، والشعر ، والكتابة ، وتشوسر ، وصغار الشعراء الإغريق ، والميثولوجيا ، وغير ذلك من الموضوعات ، وقد انبثت تخالطت بيانه عن الأحداث التى جرت لها ، أو عن أسماك النهر ، وحكايات الهنود الحمر ، وأقاصيص تاريخية عن المناوشات التى جرت فى غضون حرب الثورة (حرب الاستقلال) .

وفى إحدى الفقرات كتب ثورو أنه وجون حلقا حتى أزاغا بصر طائفة من الشبان كانوا يحدقون مستشرفين من فوقهم بفضول مفرط ، وهما يجذفان بزورقهما تحت إحدى القناطر ، وسرعان ما أردف بعد ذلك إننا حين نتحدث عادة عن أصدقائنا نثلبهم عادة .

وبعد ذلك وبغير إنذار تقريبا استشهد بالثلاث عشرة مقطوعة كلها التى تتكون منها قصيدته المنشورة فى المزولة عن ادموند سيوول . وعلى حد قول أوديل شيبرد الذى يبدو أنه قام بإحصاء دقيق توجد فى كتاب « أسبوع على نهرى كونكورد ومريماك » ثمان وأربعين قصيدة أصيلة ، وثلاثمائة نص مقتبسة من مائة من الكتاب المتباينين . وتوجد أيضا منبثة فى ثنايا الكتاب متألقة كركائز معدن ثمين نصف مدفونة فى ساحة منجم مترامية ، تلك الملاحظات التى تبدو مرسلة عفو الخاطر جادة تمام الجد ، بيد أنها تلابسها تلك المسحة من التهكم اللاذع الذى اتصف به ثورو على الدوام . فهو يقول فى موضع ما « لقد رأيت الأساس الذى تقوم عليه الدنيا ، ولا يخامرنى أدنى شك فى أنه أساس يستطيع الثبات أمدا طويلا » .

لقد كان فى استطاعة إمرسون وهوثورن وآلكوت وغيرهم من أصدقاء ثورو فى كونكورد أن يستمدوا البهجة من كتاب « الأسبوع » باعتباره صورة تمثل خصائص الرجل والعقل والمزاج التى عرفوها وأعجبوا بها .

أما الفقراء الذين لم يعرفوا الرجل وفتحوا كتابه متوقعين أن يجدوا سردا بسيطا لمغامرة نهرية دامت أسبوعا ، أو عرضا متماسكا لموضوع مفرد ، فمن اليسير جدا أن تنتابهم الحيرة والارتباك وسط ذلك الخليط المتنوع من البخور والأزهار العطرة .

ولعل إمرسون فطن إلى هذا ؛ فقد كان يعلم بالتأكيد أساليب عالم النشر، فلم يدخر جهوده للعمل على التنويه بكتاب ثورو عند نشره ؛ فقد كان لا بد للأسبوع من جهد يلفت إليه انتباه الجمهور التفات الاستحسان وطلب ثيودور باركر من إمرسون أن يقوم بعرض الكتاب لمجلة ماساشوستس ربع السنوية . ولكن إمرسون رفض قائلا إنه من المعروف عنه شدة اتصاله بالمؤلف ، واقترح على باركر أن يقوم بعرض الأسبوع شخص آخر ، وذكر له أ . ب . هويبل الناقد المعروف والمحترم فى ذلك الحين ، وتشارلس أ . دانا . وبارك جدوين ، وهنرى جيمس . وبدلا من تكليف أحد من هؤلاء أحال باركر كتاب الأسبوع إلى جيمس راسل لوويل لينقده . وكان لوويل قبل ذلك بعام بالضبط قد سخر من ثورو أو تشاننج أو كليهما فى قصيدته : « أسطورة للنقاد » :

ها هو ذا مثلا ، كى ترى ، أضحوكته النادرة ،

مقبلا فى أعقاب إمرسون بساقين قصيرتين بشكل مؤلم .

فالله كم يقفز ، وكم يجاهد . . وكم يحتقن وجهه

ليلحق بخطوات ذلك الإمام الطبيعية ! !

إنه يتبعه كما تتبع العصا الصاروخ .

وأصابعه ترتاد كل جيب من جيوب النبي .

ياللعار يا أخا القريض ! بفاكهة طيبة أوتيتها من جناك .

ألا يسعك أن تدع بساتين الجار إمرسون وشأنها ! ؟

وقد ظهر عرض لوويل لكتاب « الأسبوع » فى عدد ديسمبر سنة

١٨٤٩ بأسلوب متدفق حافل بالاستعلاء الذى ظاهره الرعاية . وقد وجد عيوباً فى شعر ثورو المنشور بالكتاب ولم يعجبه اعتداد ثورو بنفسه ، وهاجم الفقرات التى تعرض فيها ثورو للفكر الشرقى وسخف ما اعتبره إيماناً مبالغاً فيه من جهة ثورو بأهمية آرائه الخاصة . ومع هذا يذكر للوويل الفضل فى أنه بخلاف هجومه المرير على ثورو فيما بعد كتب بصراحة وسخاوة عن الأثر الإجمالى للكتاب فقال :

« إن أعظم سحر فى كتاب المستر ثورو أنه لا يعتبر كتاباً على الإطلاق إلا من قبيل محاسن المصادفات والاتفاق ؛ لأن باب قفص الأوراق المتناثرة ترك مفتوحا فتطايرت منه الأفكار من تلقاء نفسها ، وليس الورق وحروف المطبعة إلا أموراً عرضية . فكل صفحة بمثابة مذكرة سرية كأنها صفحة من يوميات خاصة » .

وكتب لوويل أيضاً يقول : إن لغة ثورو تمتاز بصفاء كصفاء الخمر المعتقة التى ذهب القدم بلونها . أما جورج ريبلى — الذى كان زميلا يوما ما لثورو فى صحيفة المزولة — فقد استفظع الكتاب . وكان ريبلى قد غدا فى ذلك الوقت معلقا على الكتب فى النيويورك تريبيون التى يملكها هوراس جريلى . وكان قبل ذلك — شأن كثيرين جداً من الكتاب الاستشرافيين الآخرين — قسيسا موحداً ، وفى عرضه للكتاب اتهم ثورو بإظهار القليل جداً من الاحترام للمسيحية واحترام أكثر مما ينبغى لكتب البراهمة المقدسة ، وهى تهمة خطيرة متلفة فى ذلك الحين .

إن كتاب « أسبوع على نهرى كونكورد ومريماك » الذى كان مؤلفه

يعلق الآمال الكبار عليه ، وتكبد دينا باهظا فى سبيل نشره ، بمخض عن كساد تجارى أسيف ، فثورو كان يأمل أن يحدث العالم عن رحلته معجون، وكان يأمل أن يشركهم فى خواطره وانفعالاته التى خامرته فى تلك الأيام الهادئة التى قضاها بوالدن حينما كانت الشمس ترقص على وجه البحيرة ، وحينما كانت الغابة الصامتة القائمة بينه وبين القرية غارقة فى الثلوج .

وبينما كان أصدقاؤه من كونكورد جذلين بما يقصه عليهم فى الكتاب ، لم يكن العالم مكترثا به أدنى اكتراث . ففى مدى أربع سنوات لم يوزع من كتاب « الأسبوع » غير ٢٩٤ نسخة منها ٧٥ على سبيل الهدية بلا مقابل ، وفى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٨٥٣ قامت مؤسسة جيمس مونرو وشركاه بشحن النسخ الباقية وعددها ٧٠٦ ، إلى ثورو الذى نقلها إلى البيت فى عربة اليد المخصصة لنقل السماد فى الحديقة . وفى تلك الليلة كتب فى يومياته يقول :

« لدى الآن مكتبة من تسعمائة مجلد ، منها أكثر من سبعمائة كتبتها بنفسى . أليس حسنا أن يحتفظ المؤلف بثمار عمله ؟ ها هى ذى أعمالى مكدسة فى جانب من حجرتى إلى منتصف ارتفاع رأسى ، وهى مجموعة مؤلفاتى الكاملة ، وهكذا التأليف . وهكذا كدح الذهن . . . ومع ذلك ، وبرغم هذه النتيجة ، هأنذا أجلس هنا إلى جانب كتلة من أعمالى الجامدة التى لا حراك بها ، وأتناول الليلة قلمى لأسجل ما عبرت من أفكار وتجارب ، وأنا فى حال من الرضا المألوف لى . والحقيقة أن هذه النتيجة فيما أعتقد أدعى للإلهام وأفضل لى مما لو كان ألف شخص قد ابتاعوا بضاعتى . فهذا الذى حدث يقلل من تأثير الناس فى عزلتى ، ويدعنى أوفر حرية » .

وهى كلمات تفيض شجاعة ؛ فقد إكترث ثورو لما حدث بالطبع وإخفاق آماله الكبار لم ينزل به نزولا سهل الاحتمال ، وأما ديونه المالية فكانت مصدر كدر شديد الوطأة عليه .

وبعد عودة إمرسون من أوروبا رجع ثورو إلى بيت أسرته مرة أخرى وراح يكسب معاشه بمعاونة أبيه فى عمله ، وأيضا بالعمل صانعا عاما ماهرا لأهل البلدة ، وبستانيا ، ونجارا ، ومصلح أسوار .. وكان بحاجة إلى مزيد من المال ليؤدى دينه إلى مونرو ، ففكر فى فترة من الزمن فى الاتجار بالتوت البرى ، ولكنه جرب المجازفة مرة وأخفق . وحينما كان يدير المدرسة مع جون علم التلاميذ مسح الأراضى ، وكانت الأدوات لم تزل فى حوزته فشرع يعمل مساحا ويرسم الحدود للمزارع والمناطق المخصصة لإنبات شجر الغابات والبساتين وحقول العشب وأراضى البناء ؛ واستعان على هذا العمل بشغفه الشديد بالدقة الرياضية ، تلك الدقة التى تباين أشد المباينة شغفه المضاد وهو شغفه بالجانب الصوفى الغامض فى الطبيعة .

وانقضت أربع سنين قبل أن يتمكن ثورو من تصفية حساب دينه نهائيا مع مونرو وسجل فى مذكراته عندئذ أنه دفع لناشره « المدعو هكذا زورا » ٢٩٠ دولارا مباشرة ، وليؤدى ١٠٠ دولار كان قد اقترضها من مصدر آخر اضطر لصناعة ما قيمته ألف دولار من أقلام الرصاص ثم باعها بخسارة .

لقد تأذى ثورو أذى بليغا ، بيد أنه لم يكن مزمعا أن يدع الناس يدركون ذلك، بل ولا أن يقر بذلك لنفسه ؛ فهو صانع البلدة العام الماهر

ومساح أراضيها والكاتب الفاشل والمحاضر أحيانا متباعدة في قاعة المحاضرات، إلا أنه لم يزل هنرى ثورو

وذات مرة حينما كان مشتغلا ببناء المدفأة فى بيته بوالدن نام على الأرض متخذاً من بعض لبنات المدفأة وسادة ، وقال عندئذ إنه لم يصب بتصلب فى العنق من جراء ذلك فيما يذكر ، ثم أردف باعتراف ذاتى ملتو « .. فإن ما بى من تصلب فى العنق يرجع إلى تاريخ سابق»؛ فلابد أن ثورو كان مصابا بتصلب خاص فى العنق تلك الأيام من فرط أنفته .

وكان يرتدى ثياب العامل المنسوجة فى البيت بكثير من التحدى ، وغدا أشد جفاء فى معاملته ، وكان يمسح الأراضى بعناية مسرفة فى التدقيق وينتج من زراعته بطيخا فى بساتين كونكورد التى يتولاها للناس فى مستوى لا يستطيعه سواه ، ويتجول عبر الحقول ويندفع مخترقا المستنقعات فى مسيراته اليومية ، غير راحم فى ذلك السبيل نفسه ولا رفاقه ، ولم تند عنه المرارة غير المفهومة للناس إلا فى مناسبات نادرة ، كما حدث مثلا عندما كتب فى يومياته: «ثمة مزية فى أن يكون المرء أوضع وأرخص وأقل رجال القرية مكانة ، بحيث يتسنى لخدم الإسطبل أن يلعنوك . وفى حسبانى أنى أستمتع بهذه المزية إلى حد غير مألوف ؛ فما أكثر الأجلاف حسنى النية الذين لا يعرفون من أمرى غير سطح بشرتى ويخاطبوننى بلا كلفة باسمى الأول .. فثمة من هؤلاء « سام » السجان الذى لا أناديه إطلاقا باسم سام ، ومع ذلك سمعته يقول متعجبا الليلة الماضية : « أأنت مصعد ياثورو بعد قليل فى الشارع ؟ إذن خذ اثنين من هذه الإخطارات فى يدك وألق بواحد منها فى رواق هور ، وألق بالآخر فى رواق هولبروك ، وسوف

أرد لك هذا الصنيع بمثله وقتا آخر .. » فأنا إذن لست أسمى من أن يستخدمنى الناس ، بل وأن يسيئوا استخدامى فى بعض الأحيان ويهينونى ».

فثورو لم يشعر بأنه أفضل من سام ستابلز أو صمويل هور أو إدموند هوزمر أو رالف والدو إمرسون ، وكان قد كتب من قبل فى كتابه الأسبوع « لست أريد أن أزعم ضمنا أننى أفضل إطلاقا من أى جار من جيرانى ، لأنى — وا أسفاه ! — أعلم أننى ند لهم فى الفضل فحسب ، وإن كنت أحب كتبا أفضل من التى يحبونها » وقد أقام الدليل على ذلك فى « الأسبوع » .

لم يشعر ثورو أنه أفضل من جيرانه ، ولكنه كان يشعر أنه ، أو أى فرد آخر ، أسمى بكثير من جمهور الناس أو من أى حكومة تمثل الجماهير ، وقد وضح ذلك غاية التوضيح ، وكان إمرسون يتكلم سنويا على مدى خمسين سنة فى لقيوم كونكورد ، وتكلم آلكوت هناك وكذلك تشاننج ، أما ثورو فألقى محاضرته الأولى فى اللقيوم وموضوعها « المجتمع » سنة تخرجه فى هارفارد وظل يحاضر هناك سنويا تقريبا بعد ذلك ، وفى سنة ١٨٤٨ حدث سامعيه عما حدث له قبل ذلك من الاعتقال والحبس ، ووصف ليلته فى السجن ، ووصف تصوره للعلاقة القويمة بين الفرد والحكومة ، وقال إنه لا يشعر بالولاء لحكومة لا يقر مبادئها وأفعالها ، وللفرد حق أدبى فى تجاهل أو عصيان القوانين الجائرة ، وثورو يقر المبدأ القائل بأن أفضل الحكومات أقلها تحكما .

بل ومضى إلى أكثر من ذلك فقال إن أفضل الحكومات تلك التى لا تتحكم على الإطلاق أو لا تحكم ، وعندما يصبح الناس متأهبين لهذا فتلك هى الحكومة التى تصلح لهم.

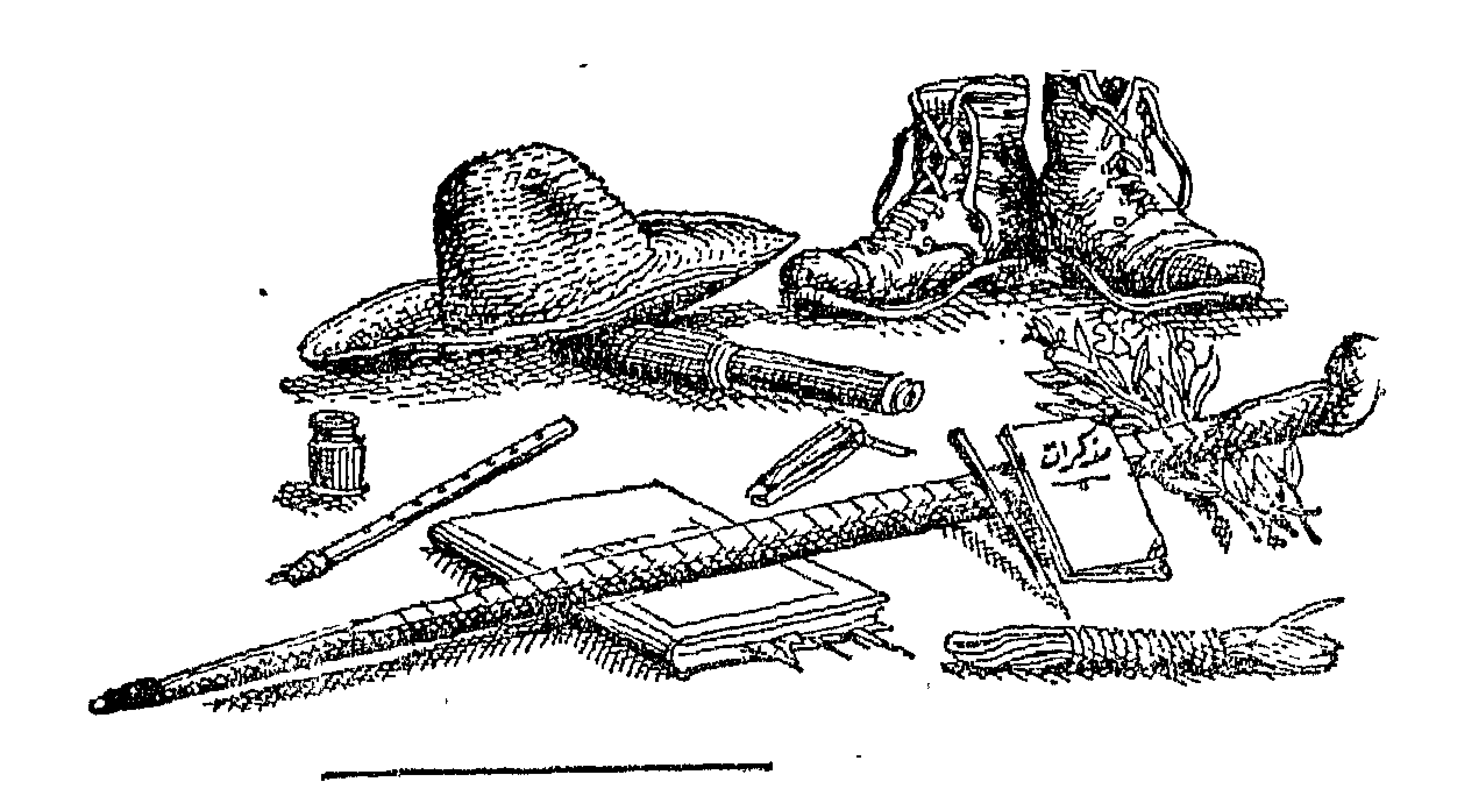
وتساءل ثورو : « كيف يتأتى لأى رجل ن أيحدد مسلكه إزاء الحكومة الأمريكية اليوم ؟ » وأجاب عن ذلك بقوله : « وجوابى أن الإنسان لا يستطيع أن يتعاون معها بغير خزى ، فليس فى وسعى ، ولو لحظة واحدة ، أن أعترف بأن هذا التنظيم السياسى حكومتى أنا ، وهى أيضا حكومة العبيد ! » .

وأعلن ثورو فوضويته فى هذه الكلمات : « ولم أولد لأتعرض للإكراه فلى الحق فى أن أتنفس على طريقتى . وسنرى أينا الأقوى. فما هى قوة الجموع؟ ليس فى وسعهم إلا أن يرغمونى إرغاما أنا الذى أطيع قانونا أسمى منى .. » وقال ثورو إن واجب الفرد عصيان القوانين التى يعلم جورها ، وسيكون عصيانه فعالا ، فالأقلية لا قوة لها حين تحاكى فى سلوكها الأغلبية وتطابقها ، لأنها عندئذ لا تكون أقلية حقاً ، بيد أنها تمسى ولا قبل لأحد بمقاومتها عندما تصمد بثقلها كله » . فمثل الأقلية التى تعى أنها على صواب لابد أن يؤثر فى النهاية فى تفكير الكثرة وأفعالها .

وعندما وصلت نسخة من رسالة ثورو « العصيان المدنى » التى طبعت لأول مرة سنة ١٨٤٩ إلى يد غاندى فى سنة ١٩٠٧ ألهمت ذلك الزعيم الهندى — الذى تلقى علومه فى أكسفورد — فكرته عن المقاومة السلبية والحق الأدبى فى عصيان القوانين الجائرة والصمود بدون عنف ، وأعاد غاندى طبع الرسالة فى « الرأى الهندى » ووزعها فى جميع أرجاء الهنــد . وعندما ذهب غاندى إلى لندن فى سنة ١٩٣١ للتفاوض مع ساسة انجلترا حول منح الهند حريتها صحب معه إلى هناك نسخة من رسالة ثورو ، عن « العصيان المدنى » ولا مراء .

وقرر غاندى مثلما قرر ثورو من قبل أن السجن لا يرهبه ، وأنه لم يشعر أنه معاقب وهو فى السجن . وأعاد فى صورة جديدة عقيدة ثورو بأن من حق الإنسان أن يتمرد ، وأن الأغلبية — وهى فى كثير من الأحيان على خطأ — ليس لها الحق الأدبى فى فرض إرادتها استناداً إلى مجرد كثرتها العددية ، ومع أن غاندى نزل ضيفاً أثناء وجوده بانجلترا على الملك جورج الخامس ، فقد سجن مرة أخرى بعد عودته بقليل إلى الهند ؛ لأنه دعا الناس من جديد واستنفرهم للعصيان المدنى .

وحينما منحت بريطانيا العظمى سلطات الحكم لمستعمراتها الهندية فى سنة ١٩٤٧ دعا الفيكونت ماونتباتن آخر حاكم عام إنجليزى على الهاتما غاندى باسم « منشىء حرية الهند عن طريق عدم العنف » . أما المنشىء الأصلى فكان المؤلف الفاشل فى كونكورد الذى اجتمعت له مكتبة خاصة من قرابة تسعمائة كتاب أكثر من سبعمائة منها كتبها بنفسه !!



الفصل التاسع

فى عامى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، حينما ألقى ثورو رسالته عن « العصيان المدنى » كان تعداد الولايات المتحدة يتجاوز العشرين مليونا (وحسب الإحصاء الرسمى فى سنة ١٨٤٠ كان الرقم ١٧٫٠٦٣٫٣٥٥ نسمة منهم ٢٫٤٨٧٫٣٥٥ من الزنوج العبيد) وكان الاتحاد يضم ثلاثين ولاية، وكانت المدن الأربع الكبرى فى البلاد : نيويورك وسكانها ٣٧٠٫٠٠٠ ، وفلادلفيا وسكانها أكثر من نصف مليون ، ثم بلتيمور ، ثم نيوأورليانز . وكانت الولايات المتحدة قد فرغت لتوها من خوض الحرب المكسيكية تحت راية « المصير الواضح » .

وقد أفاءت هذه الحرب — التى عارضها أشد المعارضة ثورو وجميع من يبغضون الرق — على البلاد جميع الأراضى التى ستصبح ولايات أوتاه

وأريزونا ، ومكسيكو الجديدة . أما ولاية تكساس فكانت قد ألحقت بالاتحاد فى سنة ١٨٤٥ . وبمقتضى معاهدة جوادلوب هيدالجو التى أنهت الحرب المكسيكية فى مارس سنة ١٨٤٨ سلمت ولاية كاليفورنيا التى كانت قد ثارت فعلا إلى الولايات المتحدة ، ثم قبلت فى الاتحاد ولاية « حرة » فى سنة ١٨٥٠ .

وكان الرق هو الموضوع البارز المحرق فى ذلك الحين ، وقد وقف الشمال بصدده متأهباً ضد الجنوب المتأهب ، وكل منهما يتحاشى الاصطدام العلنى بسلسلة من التسويات .

وكان الجنوب يستخدم الضغط بقبول ولايات جديدة تستمسك بالرق ، والشمال يعارض فى ذلك ، وأنصار الرق المتحمسون ينادون بوضع حد فورى للرق فى كل مكان . وكان ثورو — شأنه فى هذا شأن إمرسون — متعاطفاً مع العبيد ، ويساعد على تيسير سبيل الحرية للعبيد الآبقين فرادى ، ولكنه لم يصبح قط من دعاة تحريم الرق المذهبيين ، مثل وليم لويد جريسون وونديل فيليبس .

وكانت الثورات التى اندلعت فى أنحاء أوروبا — فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإمبراطورية النمسا والمجر — والمجاعات والقلاقل تدفع بمئات الألوف من المهاجرين إلى الولايات المتحدة ، فكانت السفن المزدحمة بركاب المقدمة ترسو كل يوم تقريباً فى ميناء نيويورك ، وكانت غالبية المهاجرين من الإيرلنديين ، ويتلوهم فى الكثرة الألمان ، وفى سنة ١٨٤٠ لم يدخل الولايات المتحدة من جميع القوميات سوى ٨٤٫٠٦٦ ، أما فى سنة ١٨٥٠

فدخلها حوالى ٣٧٠٫٠٠٠ ، وفى سنة ١٨٥١ حوالى ٣٨٠٫٠٠٠. فلما كانت سنة ١٨٥٤ تدفق إلى الولايات المتحدة أكثر من ٤٢٠٫٠٠٠ مهاجر فكأنما أوروبا — على حد تعبير محقق صحفى فى ذلك الحين — تخلى نفسها من السكان بالهجرة .

وعلى مسافة نحو أربعين ميلا بعد حصن « ستر » — حيث تقوم الآن مدينة سكرامنتو بولاية كاليفورنيا — كان نجار من نيوجيرسى اسمه جيمس ولسون مارشال يساعد جون أوجستس ستر فى إقامة منشار آلى يدار بقوة الماء على الشعبة الجنوبية من النهر الأمريكى . وفى ٢٤ من يناير سنة ١٨٤٨ لاحظ مارشال وجود جسيمات صفراء فى الأرض المحفورة تربتها حديثاً. وكانت هذه الجسيمات الصفراء ذهباً ، وقد حاول ستر ومارشال إبقاء ذلك الاكتشاف سراً ، ولكن بغير جدوى ، فما حان شهر مايو سنة ١٨٤٨ حتى كان ثلاثة أرباع سكان سان فرانسسكو قد انطلقوا للتنقيب عن الذهب ، وصار النوتية يهربون من السفن متسابقين إلى موضع ستر مل ، وفى شهر يونية كان نحو ألفين من الرجال ينقبون بجنون على امتداد النهر الأمريكى . وبعد شهر تضاعف عددهم وانتشرت الأنباء شرقاً فصار الناس فى كل مكان يلقون ما بأيديهم ليذهبوا إلى كاليفورنيا بأى وسيلة يستطيعونها عبر البر أو مبحرين حول هورن .

وارتفع تعداد كاليفورنيا من ١٤٫٠٠٠ إلى ٢٠٫٠٠٠ فى سنة ١٨٤٨ ثم وصل الرقم إلى نحو ١٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٨٤٩ . وصار الأجر اليومى للعامل عشرين دولاراً ، وبلغ ثمن رغيف الخبز الذى يزن رطلا واحداً دولارين ، وثمن الرطل من الزبد الذى يبسط على ذلك الرغيف ستة دولارات

لمن استطاع الحصول عليه ، وأول باخرة تعمل فى المحيط الهادى أبحرت من نيويورك إلى المناجم فى ٦ من أكتوبر سنة ١٨٤٨ ، وكان اسم هذه الباخرة كاليفورنيا .

وفى بناما استقبلت هذه الباخرة على ظهرها حشوداً من الرجال الذين جمح بهم الهوس متلهفين على الوصول إلى مناطق التنقيب ، وفيما بين ١٤ من ديسمبر سنة ١٨٤٨ و ١٨ من يناير سنة ١٨٤٩ غادرت نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا وبلتيمور إلى أعالى كاليفورنيا إحدى وستون سفينة ، وصار الناس يبيعون بيوتهم وأعمالهم للحصول على مال نقدى لأجر السفر بالسفينة وثمن معول ووتد . فإن لم يتيسر لهم بيع بيوتهم وأعمالهم نقداً هجروها متخلين عنها . وهكذا تكأكأ أمريكيون ومكسيكيون وصينيون وشيليون قادمون من بيرو متكالبين على التنقيب عن الذهب على امتداد النهر الأمريكى . وكان أسبقهم فى الوصول إلى هناك أحظاهم بالنجاح ، فقد تم استخراج ذهب قيمته ثلاثة ملايين دولار من الأرض فى كاليفورنيا خلال العام الأول من جنون التنقيب عن الذهب .

وكان الرئيس جيمس ك . بولك قد حارب وكسب الحرب المكسيكية المربحة . وفى يولية سنة ١٨٤٨ أعلن مؤتمر حزب الأحرار فى فيلادليفيا اختيار بطل الحرب الجنرال زخارى تيلور مرشحاً للرياسة . وأعلن ذلك الحزب فى ابتهاج احتفالى أن زخارى الهرم جدير أن ينتخب للرياسة وأن يكون « حصانه » (كناية عن مساعده) هوايتى نائباً للرئيس . وقد تم انتخاب تيلور فعلا للرياسة ، أما هوايتى العجوز فلم يتمتع برعى العشب فى حديقة البيت الأبيض غير عام واحد . ومات الرئيس تيلور فى سنة ١٨٥٠ وخلفه الرئيس ميلارد فيلمور .

ودخل هوراس جريلى صديق ثورو ومستشاره الأدبى العملى مجلس الكونجرس بضعة شهور من سنتى ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ فحضر كل جلسة وطالب بتلاوة كاملة لقائمة الأسماء ، وهاجم أعضاء الكونجرس الآخرين الذين يبالغون فى تكبيد الحكومة بنفقات انتقالهم وأسفارهم . وكان جريلى معتقداً بأنه جعل من نفسه أبغض رجل جلس فى مقاعد المجلس . وكان هوراس مان المربى وصهر هوثورن عضواً فى الكونجرس أيضاً فى المقعد الذى خلا بوفاة جون كوينسى آدمز المتوفى وهو جالس فى مقعده بالمجلس فى فبراير سنة ١٨٤٨ ، وكان هوراس مان من حزب الأحرار ومناهضاً للرق ، فكافح فى سبيل إلغائه .

وفى مساقط مياه سينيكا بنيويورك فى سنة ١٨٤٨ تم اجتماع أثار سخرية كثير من الصحف ، لأنه كان أول مؤتمر قومى للنساء الطالبات بحق الانتخاب وفيه طالبت لوكريشيامت واليزابيث كادى ستانتن وغيرهما حق الانتخاب للنساء ، وكانت الطرق الحديدية تنشأ ، والمصانع تقام ، وعنابر النوم لإيواء العمال المهاجرين تهيأ ، وتوفى جون يعقوب أستر وهو من أغنى رجال العالم تاركا ثروة تقدر بمبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين مليوناً من الدولارات . وجاء أندرو كارنيجى من دونفيرملاين باسكتلندة إلى إليجينى ولاية بنسلفانيا والحصادون الأوائل من آل ماك كورميك كانوا يضعون محصول الغلال فى الغرب ، والبلبل السويدية جنى لند جاء بها إلى الولايات المتحدة ب.ت. بارنوم الأسطورى ، فراحت تغرد بنجاح عظيم على طول طريقها عبر البلاد .

وفى المتحف الأمريكى العجيب بنيويورك كان بارنوم يعرض الجنرال

« عقلة » الإصبع بحجمه الصغير ، وأيضاً « أصغر زوجين من البشر آهما الناس على قيد الحياة . وهما الميجور الإصبع الخنصر وحبيبة قلبه تيتانيا ، وكلاهما أصغر بكثير من الجنرال « عقلة » الإصبع ، وعلى سبيل المفارقة عرض بارنوم أيضاً العملاق الإنجليزى روبرت هيل « أضخم وأثقل رجل على وجه الأرض ، يزيد طوله على ٢٤٨ سم ويزيد وزنه على ربع طن أى ٢٥٨ كيلو جراماً » .

وجمع أهالى بوسطن أربعة آلاف دولار لشراء مكتبة جورج وشنطون ثم منحوها لكلية هارفارد ، ومنشدو كريستى يتغنون بأغانى ستيفن فوستر الشعبية « العم ند » .. « هيا نهبط إلى الجنوب » و « أوه ! سوزانا » ، وكانت هذه الأغنية الأخيرة نشيد السير للرواد الزاحفين إلى الغرب . وفى سنة ١٨٤٨ قامت قاطرة بخارية بالرحلة من بوسطن إلى لوويل وطولها ستة وعشرون ميلا ، فى ست وعشرين دقيقة وهكذا توصل الإنسان إلى السفر بمعدل ميل فى الدقيقة .

وكانت أكثر المجلات انتشاراً هما « جودز ليدزبوك » و « جراهامز » وكان وليم كالن بريانت وهنرى وادزورث لونجفلو ولوويل وويتير ومين ريد وبايارد تيلور وجريس جرينوود يكتبون جميعاً لمجلة جودى . وأما مجلة جراهام فكانت قائمة كتابها تكاد تضارع هذه القائمة وقعا فى النفس . وفيها أسماء إدجار آلان بو ، وبريانت وجيمس فينيمور كوبر ولونجفلو والشاعرة ليديا سيجورنى . وكان جيمس راسل لوويل يخرج الكتب تباعا بسرعة ، فظهرت فى سنة ١٨٤٨ كتبه « رؤيا السير لونفول » ، « وأوراق بجلاو » و « أسطورة للنقاد » . وكان معظم الناس يطالعون روايات ديكنز وثاكرى والشقيقات برونتى .

فما الدور الذى قام به هنرى ثورو فى ذلك كله ؟ لا شىء . وما مبلغ اهتمامه بعالم منتصف القرن التاسع عشر فى دورانه هذا السريع ؟ أقل مدى ممكن : يطالع الصحف كل صباح ثم يطرد من ذهنه معظم ما قرأ وسمع من الأنباء ، ففى اعتقاده أن سطح الحياة وحده هو الذى يتغير فلا يتغير منها إلا تفاصيلها . أما الحقائق الأبدية فباقية . وشأنه شأن الشاعر ، وشأن الدارس ، وهو شأن هذه الحقائق الأبدية الباقية .

وفى السنوات التى تلت « العصيان المدنى » ونشر « الأسبوع » غدا ثورو أمعن فى خصائصه الفردية هذه عما كان من قبل ، فقد كان يعتقد فى أعماق قلبه اعتقاداً جازماً أن معظم هذه الأمور التى ينشدها الناس ويشتهونها كالمال والمكانة والممتلكات فاسدة كلها ، فضاعف من سعيه فى سبيل الأمور التى بدت له صالحة .

وفى الصباح كان يصنع أقلام الرصاص ليحصل — كما قال — على ما يقيم به أود جسده ، ويطالع ، ويكتب . وبعد الظهر كان يسير . وفى المساء يسجل مذكراته وملاحظاته فى يومياته ويزور أصحابه . ومع أنه ظل — كما وصف نفسه — رحالة عظيما فى أنحاء كونكورد وما حولها ، فقد قام برحلات أيضاً تجاوز حدودها ، إلى رأس القد ، وإلى الجبال البيض فى هامشاير الجديدة ، وإلى الغابات والجبال فى مين ، وإلى كندا ، وإلى نيويورك لخدمة أغراض صناعة أقلام الرصاص وترويجها ، وازداد من عـــدد محاضراته فى مزيد من الأماكن : فى دورسسترو سالم وبورتلاند وبنجور وبليموث وبدفورد الجديدة ونتتوكيت ، وفى وقت ما اعتزم أن يحاضر فى أكرون وفى كندا ، ولكنه لم يفعل .

وكتب إلى دانييل ريكتسون يقول : « إنى عموماً رجل أعمال » ، بيد أنه كان يأمل أن يفرغ أحياناً بعد الظهر وفى المساء عندما يحضر أصحابه إلى كونكورد فى زيارة ذات برنامج . فقد كان ثورو يبغض الكسل والتراخى ويظن ذلك سلوكا غير نظيف . وكتب إلى صديق يقول: إنه يعتقد أن الله يبتهج بما فى امرىء من قوة الساقين . وهذه فكاهة ساخرة من النوع الذى تميز به ثورو . ولكن ما أكثر ما تتضمن سخرية ثورو مايوحى بأنه يعنى ما يقول حقاً ، فقد كان يقدر ما فى ساقيه من قوة . وعندمامرض وأعجزه أن يسير إلى المدى الذى يريدءبالجد الذى يريدتذمر وتأذى، وحينما كان يباح له أن يستخدم ساقيه استخداماً كاملا كان يقوم أحياناً بالانزلاق على الثلج مسافة تصل إلى ثلاثين ميلا فوق نهر كونكورد فى بضع ساعات .

وقد ترك أصحابه الذين كانوا رفاق سيره المختارين صوراً نابضة بالحياة لهنرى ثورو أثناء المشى . فيقول إمرسون : إنه كان يعرف الإقليم على نحو ما يعرفه الثعلب أو الطائر . ومثل هذين كان يجوس خلاله بطلاقة فى مسالك خاصة به ، وكان يرتدى قبعة من القش ونعلين قويتين وبنطلوناً رمادياً ثقيلا يتهدل على نعليه ليحمى ساقيه من الشجيرات الشائكة والعوسج .

أما عصا المشى فكان قد اقتطعها من شجرة كرز وبراها حتى جعلها مسطحة من أحد جوانبها مقدار قدمين ، ثم قسم القدمين بعلامات تدل على البوصات . وبذلك كانت عصا القياس تساير ثورو أينما توجه. وفى جيوبه كان يحمل دفتر مذكرات وقلم رصاص ومطواة ومنظاراً مقرباً لمراقبة الطيور ومنظاراً مكبراً لفحص النباتات وأوراقها ، وخيطاً طويلا من القنب المفتول لأنه ربما احتاج إليه لحزم النماذج كى يحملها معه إلى البيت

لمزيد من الفحص . وتحت إبطه كان يحمل كتاباً قديما من كتب الموسيقى يملكه والده كى يضغط أوراق النبات بين صفحاته .

وعندما كان يحتاج إلى فحص نبات مائى كان يخوض ببساطة فى المستنقع أو البركة ، فإذا احتاج إلى منظر بعيد شامل كى يعرف ما يحيط به من المواضع تسلق شجرة ، فكان السير مع هنرى ثورو — كما كشف عن ذلك تشاننج فى أسى — من الممكن أن يكون عملا مضنياً .

ويقول إمرسون : إن ثورو كان فى استطاعته أن يجلس بلا حراك ، وإن الطائر أو الحيوان أو الثعبان الذى كان يرقبه ثورو حرى أن يتجاهله فيتحرك هنا وهناك بلا خوف . وفى بعض الأحيان كان الفضول يدفع هذه الكائنات فتقترب منه لتفحصه . فتلتف الأفاعى حول ساقه وتسبح الأسماك إلى داخل يده فيخرجها من الماء ، ويجذب فأر الجبل من جحره آخذاً بذيله ، ويشمل بحمايته الثعالب ضد صياديها ، وكانت قدرات ثورو على الملاحظة مرهفة جداً ، حتى لقد بدا لإمرسون أنه لابد متمتع بحواس إضافية ، فهو يرى وكأنه ينظر من منظار مكبر كما يقول إمرسون ، ويسمع وكأن على أذنه بوقاً مكبرا للأصوات ، ويجعل من ذاكرته سجلا فوتوغرافياً لكل ما يرى ويسمع .

وكان ثورو يتوقع من أصحابه أن يتجشموا المشاق بعينها التى يفرضها على نفسه وأن يتحملوها بمثل تجلده . وكان فى استطاعته أن يظل سائراً طول النهار على غذائه المفضل للمشى وهو فطير البرقوق والشاى القوى مضافا إليه الكثير من السكر ، ولم يكن فيه صبر على الضعف ، سواء أكان من جانبه أم من جانب



كان "ثورو" أعظم مشاء في كونكورد ، عدته في ذلك دفتر مذكرات ومنظار مقرب وعصا قياس وكتاب موسيقى قديم لضغط أوراق النبات والأزهار

سواه . وقد اكتشف تشاننج ذلك فيه وذكره فى ألم : « وذات مرةأطبق الصداع على أحد مرافقيه حتى عجز عن الحركة ، وخامره الأمل أن يرفه عنه وربما عرض عليه رشفة من الشاى ، بيد أن ثورو قال له: ثمة أناس ينتابهم المرض على هذا النحو كل صباح ويواصلون سعيهم . قال له ذلك ثم واصل سيره » .

ولم يكن ثورو يتلكأ فى سيره ، بل يمشى قدماً بقبضتين مضمومتين وكتفين بارزتين إلى الأمام ، وعيناه الزرقاوان الرماديتان تتفرسان فى كل ما تقعان عليه مما حوله ، واتجاهه دائماً مستقيم كخط طيران النحلة نحو أهدافه ، خائضاً المستنقعات ، متسلقاً الصخور والأسوار . وكان الفلاحون يفاجأون به حين يرفعون أبصارهم ليجدوه فى الحقل الذى يعملون به ، فيخامرهم الظن أحياناً أنه هبط عليهم من السحاب .

وكان ثورو يحتفظ بتسجيلات إحصائية دقيقة لارتفاع الماء فى بحيرة والدن أو نهر كونكورد ، وايضاً لغدو الطيور المهاجرة ورواحها،ولأول بادرة من النبات البازغ فى الربيع . وكان يقيس نمو الأشجار ويحمل إلى بيته نماذج من نبات الإقليم يضمها إلى متحف النباتات المجففة الذى أنشأه فى سقيفة البيت ، ويضيف كل ما يجده صالحاً إلى مجموعة آثار الهنود الحمر التى شرع فيها وهو فى الكلية . ويبدو أنه كان فى وسعه العثور على نبات من نوع سنان السهم كلما شاء . فقد سأله أحدهم ذات مرة : « أليس ذلك عسيراً ؟ » فأجابه ثورو : « بلى ، إنه لعسير » . ثم انحنى فالتقط نباتاً منها من تحت قدميه .

ولعل إمرسون ، أو على الأرجح تشاننج، هو الذى تشكى من أن ثورو،

حتى فى أثناء سيره ، يفضل إأن يدون خواطره وأفكاره فى يومياته على أن يشرك فيها رفيقه . وكلا الرجلين شعرا بأن ثورو كان مسرفاً فى بروده ، مسرفاً فى ذهنيته ، مسرفاً فى شكوكيته . وكتب ثورو فى يومياته ذات ليلة: « إن هذا الاتهام لو كان صحيحاً فهو يتمنى أن تحل به لعنتهما ، فتذبل وتجفف ينابيع حياتى ، ولا تبقى يومياتى مصدر سرور وحياة لى » .

وفى اعتقاد ثورو أنه فى الحقيقه كثيراً ما كان يشعر بالوحدة وهو مع الآخرين ، وأنه كان يتشوق إلى الصحبة حتى عندما يبدو عليه عدم الاكتراث . وكان لم يزل يفكر فى ذلك بعد انقضاء أسبوع عندما كتب فى يومياته ، إنه إذا كان شديد البرود بالنسبة للصداقة البشرية ففى مرجوه ألا يكون شديد البرود بالنسبة للطبيعة. وبدا له كأنما ثمة قانون يمنع شعورك بالتعاطف العميق مع البشر والطبيعة كليهما معاً .

وجاء العالم الطبيعى السويسرى لويس أجاسيز إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٤٦ ، وشرع بعد ذلك بسنتين يعلم فى هارفارد ، فبعث إليه ثورو بأفاع وأسماك وسلاحف، وكان جانب منها غير معروف لأجاسيز واعترف له بالفضل شاكراً . بل إن ثورو أرسل أيضاً إليه ثعلباً صغيراً ، وفى يوم ٢٨ من مايو سنة ١٨٤٧ كتب مساعد أجاسيز إلى ثورو يخبره أن الثعلب الصغير يقيم فى مسكن مريح فى الفناء الخلفى من بيت أجاسيز وحالته على ما يرام .

وليس ثمة كبير فرق بالنسبة لهنرى ثورو أن يتعلق الأمر بثعلب أو فأر جبلى أو بقرة أو خنزير أو هريرة ، فهو يحترم الحيوان والفهم بينهما متبادل .

وبعدظهر يوم من شهر إبريل سنة ١٨٥٢ صادف ثورو فاراً جبلياً وسط حقل ، وكان أول فأر جبلي يراه تلك السنة فجعل ثورو يجرى من خارج السور والفأر الجبلي يجرى من داخله . وكان ثورو أسرع من الإثنين فقطع عليه الطريق، وظلا يلعبان لعبة المحاورة والمداورة (الكيكا) إلى أن أصبح ثورو على بعد ثلاثة أقدام من الفأر ، وعندئذ أقعى على الأرض وراح ينظر إليه ولبث الفأر الجبلي في مكانه ، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر نحو نصف ساعة إلى أن بات كل منهما — كما يقول ثورو — نصف منوم مغناطيسياً . ولما وقف ثورو لم يتحرك الحيوان ، لأنه لا يستطيع الحركة ما دام ثورو ينظر إليه . وعندئذ جلس ثورو أمام الفأر وتحدثت إليه بما يشبه رطانة الغابة ، وبمثل كلام الأطفال ... فقل ما يحدثه من صرير بأسنانه ، ومضغت أوراق التوت المرقش وقدمتها أمام أنفه . . . ولم يبال بما قد أحدثه من أصوات أو ضجة . وبعصا صغيرة رفعت أحد مخالبه لأفحصها ، وظللت رافعه ما عن لي ذلك، وقلبته على ظهره لأرى لونه من أسفل ...ومددت يدى من فوقه . وإن كان قد أدار رأسه إلى أعلى وظل يصرف بأسنانه شيئاً ما . ووضعت يدى عليه ، بيد أنى سرعان ما سحبتها لأن الغريزة لم يتم قهرها كلية ... ولو كان معى شيء من الطعام لكان حريا بي أن أنتهى إلى التربيت عليه كما أهوى » .

وعندما انصرف ثورو ظل فأر الجبل جاثما هناك يرقبه. وخطر لثورو أن الفأر متأقلم بهذا الموضع أكثر منه ، فأجداده عاشوا فى كونكورد زمناً أطول من أجداد ثورو ، ومن الطريف أن يطالع ما كتبه فأر الجبل فى يومياته تلك الليلة عن هنرى ثورو .



وجلسنا ننظر كل منا إلى الآخر قرابة نصف ساعة .

وفى إحدى مسيراته حول كونكورد التقى ثورو بقطيع أنيق من بقرات حسان ، وعن إحداها ترك ثورو صورة بأسلوب أناشيد الريف والرعاة. وقد ذكرها تشاننج فى ترجمة حياة ثورو ، وقارنها بقصيدة من قصائد الأقدمين فى هذه الأغراض الخلوية . والوصف الذى جرى به قلم ثورو تطيب قراءته حقا :

« وأقبلت عجلة أخرى واثقة ، هى أبدع ما فى القطيع ، فاقتربت تدريجيا تريد أن تنال من الطعام الذى بأيدينا ، وجعلت قلوبنا تثب إلى أفواهنا فى توقع وجذل ، وزاد اقترابها بقوائمها الرشيقة ، وهى تتصنع رعى الخضرة هنا وهناك ، وشيئا فشيئا دنت إلى أن صافح خياشيمنا فوح رائحتها ، وكأنه فوح قشدة جميع مصانع الألبان التى كانت على الأرض من قبل والتى ستكون . ثم رفعت فمها اللطيف وتشممت الهواء وهى فى متناول أيدينا . وتبين لى عندئذ كيف يستطيع القطيع أن يلهم راعيه الحب . فهذه العجلة كانت فى رشاقة الغزال ، وجلدها يجتمع فى لونه البياض ولون الخشف الطحينى ، وعلى قمة فمها نقطة بيضاء لا يزيد حجمها على حجم زهرة الأقحوان ، وعلى جانبها المواجه لى رأيت خريطة آسيا مرسومة بوضوح ... ولما مشيت تبعتنى وتناولت من يدى تفاحة ، وبدا عليها أن اهتمامها باليد أشد من اهتمامها بالتفاحة ، ولم أر وجها فى مثل جرأة وجهها إلا نادراً جداً . وما أكثر ما نظرت من قبل فى وجوه العجول . وحين تناولت التفاحة بفمها من يدى التقت بعينى عيناها » .

وبعد ظهر يوم من أيام الصيف ، حينما عاد ثورو من النهر فاجأته أنباء

هرب خنزير والده ، ولما كان أسرع عدواً من أبيه فقد وجب على ثورو أن يخرج للإمساك به ، فتعقب ثورو آثار الخنزير فى الحديقة . وعلى طول الممشى الأمامى ، وأبصر الموضع الذى انسل منه الخنزير تحت البوابة ثم حدد مكانه فإذا به يمشى الهوينا فى منتصف شارع القرية . وانضم الجيران إلى ثورو عندما حاول تضييق الخناق عليه وراغ الخنزير بين البيوت والمرافق الخارجية مفلتا من متعقبيه عند كل منحنى .

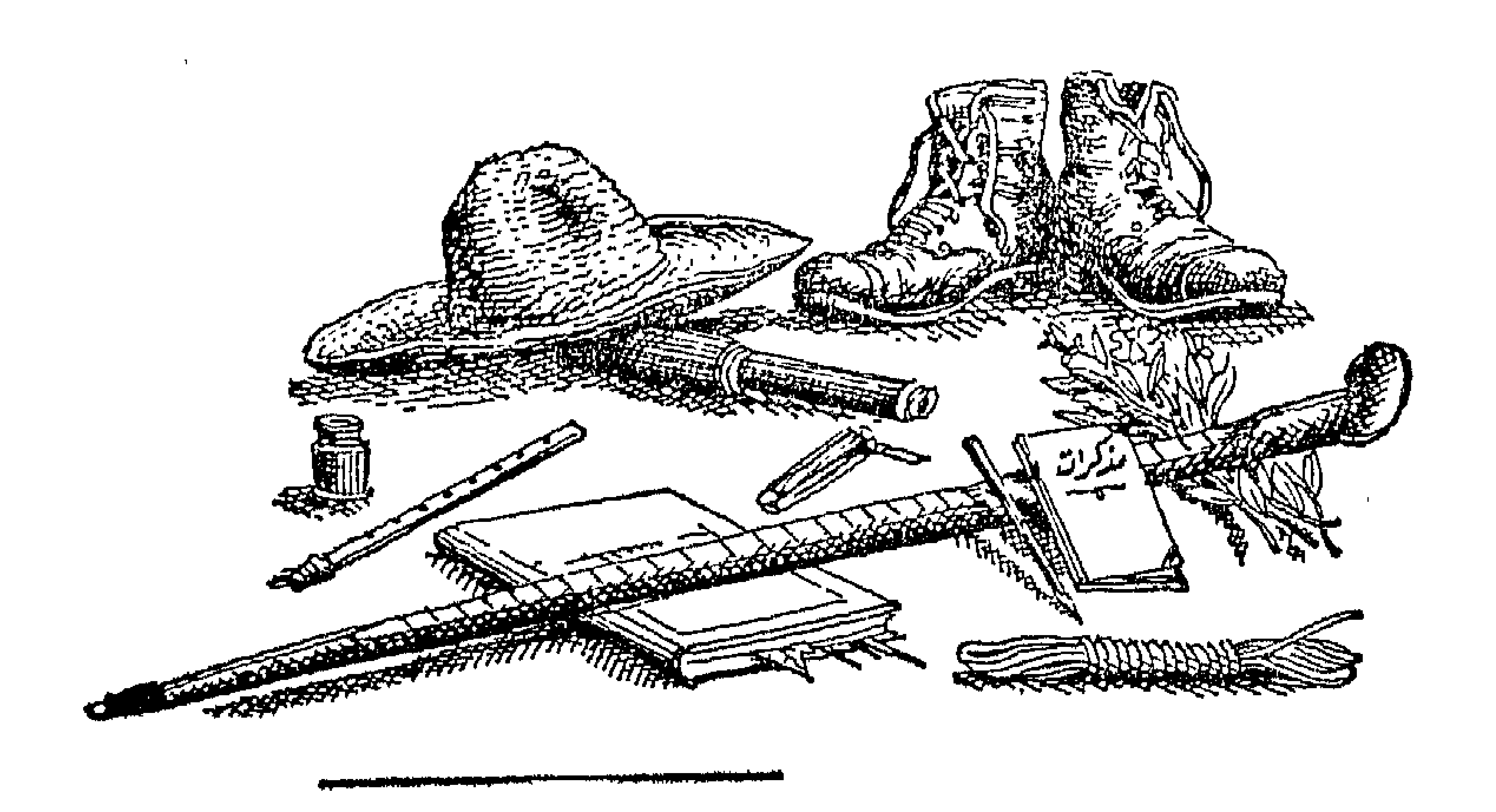
وراح الواقفون للشاهدة يصيحون بالنصائح التى كأنما أجدت على الخنزير أكثر مما أجدت على ثورو . وقام إيرلندى وابنه الصغير بالمساعدة فى المطاردة بغير نتيجة . وتسابق والد ثور وحداد البلدة ليبصرا الحيوان وقد اختفى داخل حقل للذرة .

وأخيراً تمكن الإيرلندى وثورو من دفع الخنزير إلى مصنع للعربات بابه مفتوح ، وبسرعة أغلقا أبواب المصنع ، وكانت النوافذ مسدودة بالعربات ، فراح الخنزير يتسلل من حولها ومن تحتها مرتطما بالعجلات والمحاور ، وكلف صغار الغلمان بالدخول تحت العربات لدفعه للخروج من هناك ، فلما خرج انحشر بدنه بين قضبان عجلة فغاص ثورو وأمسك به وربطه من قائمته الخلفية بحبل ، والخنزير يزعق بصوت ثاقب . وكانت مهمة سوقه إلى البيت تكاد تضارع مهمة القبض عليه فى مشقتها ، فقد هجم الخنزير على فلانارى الذى هرب مذعوراً ، فأحضر ثورو عربة يد تستخدم فى خدمة الحدائق ودفع الرجلان بالخنزير عنوة إلى العربة وأمسكا به هناك إلى أن أوصلاه أخيراً إلى البيت . وعلى حد رواية ثورو قضى

الجميع وقتاً رائعاً : الخنزير والجيران وهو والإيرلندى وكل غلام صغير فى كونكورد .

وحين لا يجد ثورو فأراً جبلياً أو خنزيراً أو عجلة لتسليه ، اكتفى بهريرة ، فقد كان ثورو يحب الهريرات ويلاعب ما يوجد منها فى البيت مدداً تطول إلى نصف ساعة . وقد كتب فى يومياته : « الهريرة شديدة المرونة ، سهلة التثنى ، بحيث تكاد تنثنى نصفين ، فإذا بالجزء الخلفى منها بمثابة هريرة أخرى يلاعبها الجزء الأمامى . وهى لا تكتشف أن ذيلها جزء منها إلى أن تطأه بقدمك » .

وهكذا لم يكن لدى ثورو متسع من الوقت للحروب والسياسة والصناعة والتجارة ، ولأمثال جون يعقوب استر وأمثال الجنرال « عقلة الإصبع » لأنه كان مشغولا أكثر مما ينبغى بالعثور على مكامن الرب فى الطبيعة ، وبالاختلاف إلى ما عبر عنه بأنه منابر الطبيعة ومحاريبها وأوبراتها ، وبكتابة أبدع نثر فنى فى زمنه .



الفصل العاشر

كان كتاب ثورو الأول كارثة مالية ، وفشلا علنياً ! بيد أنه وسع من دائرة أصدقائه . فالمؤرخ الإنجليزى جيمس انطونى فرود صديق كارلايل الذى أرسل إليه ثورو نسخة من « الأسبوع » كتب إليه خطاباً لابد أنه ملأ قلبه دفئاً . فمن منشستر فى ٣ من سبتمبر سنة ١٨٤٩ كتب فرود يقول إن إمرسون كان قد علمه كيف يعرف ويبجل ثورو منذ زمن طويل ، وها هو ذا الآن قد عرفه عن طريق قراءته له : « وعندما أفكر فى من أنت ، وماذا صنعت ، تفكيرى فيما كتبت أجد لى الحق فى أن أقول لك إنه ما من رجل بين الأحياء أقدر صداقته ورعايته أكثر مما أقدر صداقتك ورعايتك » . وهى كلمات عذبة أتت ثورو من العالم الراقى . وثمة كلمات أخرى أتته من جهات أقرب ، وثمة رجلان من بين من اجتذبتهم

إليه تلك السنوات غدت صداقتهما ذات شأن كبير فى حياة ثورو ومراسلاته .

وكان هاريسون ج . أو . بليك من وورسستر طالباً فى هارفارد سنة ١٨٣٥ وقد عمل فى بادىء الأمر قسيساً موحداً ، ثم داهمه الشك الذى أقض إمرسون فتحول إلى معلم . وقد حضر فى بداية الأمر إلى كونكورد ليقابل إمرسون وإذا به قد انجذب بسرعة إلى ثورو الذى كان قد عرفه فى هارفارد معرفة يسيرة .

ومنذ سنة ١٨٤٨ حين كتب أول مرة إلى ثورو ، وبعد أن طالع وأعاد مطالعة إحدى مقالاته فى المزولة ، وهو صديق مخلص فى إعجابه بثورو . وبعد وفاة ثورو عهدت صوفيا ثورو بكثير من مخطوطاته إلى بليك الذى غدا بعد إمرسون من أوائل محررى يوميات ثورو . . وعندما نشر كتاب « أسبوع على نهرى كونكورد ومريماك » كان ثورو قد فرغ بالفعل من كتابه الثانى ، وهو بيان كامل للسنوات التى قضاها على بحيرة والدن ، وظهر فى الصفحة الأخيرة من الأسبوع إعلان عن قرب ظهور « والدن أو الحياة فى الغابات » ، ومع أن إحدى فقرات الكتاب تشير إلى الارتفاع الذى بلغته بحيرة والدن فى سنة ١٨٥٢ ، ومع أن ثورو قام ـ ولا مراء ـ بتعديلات كثيرة فى الكتاب عن طريق المراجعة والضغط وإعادة صياغة بعض الجمل ، إلا أنه من المحتمل أن مخطوط والدن كان تاماً فى نهاية سنة ١٨٤٩ .

وهذه المرة لم يكن على ثورو أن يدفع ثمناً لمشاهدته عمله مطبوعا بين دفتى غلاف صلب ؛ فنى والدن قصة واحدة فريدة وفكرة جديدة والكتاب

محرر بأسلوب متميز واضح حتى كأنه فى نضارته ونقائه شبيه بغابات الصنوبر ومياه بحيرة والدن .

وكان اسم ثورو قد غدا معروفاً ، والقراء لابد أن يهتموا بكتابه هذا، وثمة فرصة طيبة للربح . وفى هذه المرة لا موضع للطواف على حوانيت الوراقين يعرض كتابه ويتلقى الرفض المتكرر الذى عاق نشر « الأسبوع » فقد قبلت مؤسسة تكنور وفيلدز الناشرين ببوسطن الكتاب فى أوائل سنة ١٨٥٤ ؛ وما إن علم هوراس جريلى بذلك من ثورو حتى كتب إليه فى جذل أنه سيعلن عن قرب ظهور الكتاب فى التريبيون فوراً ، سواء أعلن الناشرون ذلك أم لم يعلنوه . وفى شهر يونية أقلع إلى انجلترا جيمس ت . فيلدز ، وهو أحد الشركاء فى مؤسسة النشر — وقد غدا فيما بعد رئيس تحرير مجلة اتلانتك الشهرية أيضاً — ومعه تجارب الطبع ليسعى لنشر الكتاب هناك أيضاً .

بيد أنه ، لا هو ، ولا تجارب الطبع ، وصلا إلى انجلترا ؛ لأنه اضطر بسبب دوار البحر إلى العودة فنزل فى هاليفاكس . وفى يوم الأربعاء ٩ من أغسطس سنة ١٨٥٤ نشر كتاب والدن بسعر دولار واحد للنسخة .

وكان كل ما دونه ثورو فى يومياته تلك الليلة : « إلى بوسطن . والدن ظهر اليوم ، توت البيلسان . الأشكال الشمعية آخذة فى الاصفرار » .

و «أسبوع على نهرى كونكورد ومريماك » كتاب مفكك غير متتابع الأفكار ، وفيه إطناب واستطراد ، ويبلغ من استطراده أحيانا على غير

هدى أن يشبه ذلك المجرى الذى مخر فوقه جون وهنرى ثورو . فثورو فى « الأسبوع » ، كان يتحدث حديث القارىء والدارس والشاعر والرحالة عن كل شيء وعن أى شيء يعن له ، ويحاضر أو يغنى ما طاب له ذلك . وعلى خلاف ذلك جاء « والدن » كتابا محكما فى تركيبه وشكله ، كأنما النجار فى ثورو كان يقوم بتنفيذه من صحيفة زرقاء (صحيفة رسوم المهندسين المعماريين) ، فيشيد تشييداً سليما ، أو كأنما هو مساح يرصد ما حوله ويمد خطوطه . فنى « والدن » وحدة فى البناء والهدف يفتقر إليها « الأسبوع » ولذا فهو كتاب ضامر أضفى ثورو على كل عبارة فيه لهجته وطابعه وإيماءته متحدثا عن تجربته فى الغابة ، باسطا بحماسة فلسفته فى الحياة .

دعا الناس قائلا لهم : بسطوا حياتكم ، عيشوا بدون كل وجوه النشاط والممتلكات عديمة الجدوى والسخيفة التى يغص بها معظم الناس حياتهم ، قوموا بالقليل الضرورى من العمل لإعالة أنفسكم ، ثم عيشوا بالحقائق البسيطة والقيم الروحية . فهذه الحقائق والقيم موجودة ثمة فى متناول كل إنسان أوتى شجاعة معتقداته .

وفى سرد مبهج ولهجة آمرة مثيرة استحث ثورو الناس على الفقر الذى وجده ثراء ، وعلى اتخاذ غاية واحدة وحيدة وجد فيها الهدى كله .

وحتى « والدن » لم يجلب على ثورو الشهرة السريعة والثراء ، فلم يكتب له قط أن يكون هذان من تجارب حياته . فوالدن — وهو من أشد الكتب الأمريكية أصالة — قوبل بنقد متضارب مختلط . فهذا تشارلز فريدريك بريجز ، وهو الصديق الذى أعطاه لوويل كتاب «أسطورة للنقاد»

كى ينشره ويحتفظ بأرباح نشره ، يكتب فى عدد أكتوبر سنة ١٨٥٤ من مجلة بوتنام الشهيرة : إن هدف ثورو « هدف غريب فهو يحاول أن يكون شيئا مذكوراً ، وهو يعيش على لا شىء ، وهذا نقيض القاعدة العامة التى تقضى بأن يجاهد المرء للحياة على شىء ما ، فى حين أنه لا يصنع شيئا ! » ، وقال بريجز إنه يسىء الظن بإخلاص هذا « الديوجين (١) من أبناء الشمال» فتجربة « بحيرة والدن » فى رأيه لا قيمة لها .

وفى مارس سنة ١٨٥٥ عقدت مجلة نيكربوكر (ومعناها السروال القصير) مقارنة بين والدن والسيرة الذاتية التى كتبها ب.ت. بارنم ،وكانت قد ظهرت فى ذلك الوقت أيضا ، فقال المعلق على الكتب فى تلك المجلة : إن بارنم « هجاص » حضرى ، أما ثورو فهو « هجاص » ريفى .

ورغم فشل فيلدز فى إيصال تجارب الطبع إلى انجلترا ، فلابد أن نسخة من « والدن » قد وصلت إلى هناك عقب نشر الكتاب بوقت قصير ، وفى سنة ١٨٥٥ قامت سيدة إنجليزية بدأت حينئذ منذ أمد قصير حياة أدبية من من أنجح ما شهده القرن التاسع عشر بعرض الكتاب لمجلة وستمنستر ، فجاء تصورها وتقديرها مباينين مباينة سارة لما أبداه بعض نقاد ثورو الأمريكيين من العمى أو سوء النية ، فقد كتب جورج إليوت عرضها للكتاب الذى نشرته المجلة فى يناير ١٨٥٥ تقول : « يقدم لنا مجلد عنوانه (والدن أو الحياة فى الغابة) قطعة من الحياة الأمريكية الخالصة .. فهو كتاب يفيض

(*) ديوجين: فيلسوف إغريقى قديم اشتهر باسرافه فى الزهد فى متاع الدنيا وملذاتها . سمى بالكلبي — (المترجمة) .

بروح التجديد المتوثبة ، بيد أنها هادئة . . وهذه مزية تتصف بها العقول الأمريكية المرهفة . وقد يعمد أناس يتراءون لأنفسهم غاية فى الحكمة — ممن لا يتسامحون مع أى نمط فى الوجود لا يلمسون بأيديهم نفعه لهم .. إلى الاستهزاء بالمستر ثورو وما حدث له فى قصته هذه ، على اعتبار أنها فعلة حالمة غير عملية. وبدلا من أن نناقش هذا الرأى بأنفسنا سندع مستر ثورو يفصح عن نفسه ؛ ففى انصرافه عن الدنيويات كثير من الحصافة الرصينة ، وفى أثر ذلك أورد نصين طويلين من والدن .

ولم يكن ثورو يتوقع الشيء الكثير من والدن، لأن مرارة الدرس الذى تلقنه من كتابه «الأسبوع» لم تبرح ذهنه. فعندما راح يخطط ويكتب محاضراته بعد نشر والدن بشهر قال : إنه يدرك أن الفقر وخمول الذكر اللذين يتمتع بهما طويلا جداً، وربما استمر يتمتع بهما، لا يخلوان من مزايا ، لأنه ظل يعيش ويكتب يومياته خلى البال ، فقضى أعوامه فيما أسماه فراغا كفراغ الأمراء وفيه شاعرية ، فقد أنفق الجانب الأكبر من عامين فى مراقبة الأزهار بصفة خاصة . ولو شاء لأنفق خريفاً بأكمله فى مراقبة تغير ألوان أوراق الخريف ، فهو بذلك قد عاش ما كان يعلم أنه ضرب من الشباب المتطاول . وكان الخوف يخامره من أن يصنع النجاح المحتمل جداً له .

ومن الأصدقاء الجدد الذين أكسبه « والدن » إياهم شخص سيكون مراسلا منتظما له ، ومضيفاً دمثاً ، وضيفاً فى بعض الأحيان على بيت ثورو، فقد اشترى دانييل ريكتسون — وهو من طائفة الأصحاب أو المهتزين (الكويكر) فى بدفورد الجديدة — نسخة من « والدن » بمجرد صدوره، وقرأها وكتب إلى المؤلف بعد ثلاثة أيام بالضبط . وكان ريكتسون فى ذلك

الحين يشيد بيتاً على بعد ثلاثة أميال فى الريف من بدفورد الجديدة وأقام بقربه معتزلا سماه « الكوخ » . وجاء خطابه طويلا جداً فى أسلوب أدبى ويفيض بكثير من سيرته الذاتية وآرائه الخاصة . وبعد ستة أسابيع رد عليه ثورو رداً لطيفاً قائلا إنه لم يحب أن يكتب على عجل أى رد حيثما اتفق لشخص تضارع تجربته فى « الكوخ » تجربته الخاصة فى « والدن » ، وتوالت بعد ذلك خطابات كثيرة جداً فيما بينهما ، وكان ريكتسون يوجه بعضها كما يحلو له إلى « والدن » أو « مستر والدن » .

وأخذ ثورو يجتذب الآن المعجبين به إلى كونكورد مثلما يجتذبهم إمرسون . وأحد هؤلاء إنجليزى شاب من شروبشاير اسمه توماس كولندلى ، وكان قد تلقى تعليمه فى الكلية الشرقية بأكسفورد، ثم درس فى ألمانيا وألف كتاباً عن تجاربه فى غضون جانب من عام قضاه فى نيوزيلندة . وكان وصوله إلى كونكورد فى أواخر صيف سنة ١٨٥٤ بخطاب تقديم من إمرسون الذى اقترح عليه أن يغدو من نزلاء بيت ثورو . وسرعان ما اكتشف كولندلى أن ثورو أشد إثارة لاهتمامه من إمرسون ، فغدا على بضعة أشهر رفيق السير لثورو وتشاتنج واستمر يتبادل الرسائل مع ثورو بعد عودته إلى إنجلترا لتكوين سرية خاصة به للخدمة فى حرب القرم .

وعلى سبيل الشكر — كما قال — لحفاوة من الضيافة لم يجد لها مثيلا إلا فى إنجلترا الجديدة ، أرسل كولندلى إلى ثورو أربعة وأربعين مجلداً من كتابات الهندوس مترجمة إلى الإنجليزية ، فكانت هدية ثمينة أبهجت ثورو بهجة شديدة ، وعاود التعليق على تلك الكتب مراراً وتكراراً فى سرور وغبطة . وفى مقابل هذه الهدية أرسل إلى كولندلى — الذى كان قد أعطاه

من قبل والدن نسخة من الأسبوع ــ كتابا عن الولايات الجنوبية، ونسخته من ديوان « أوراق العشب » للشاعر والت ويتمان ،ولعلها أول نسخة تصل إلى انجلترا .

ولم يكن ثورو سعيداً غاية السعادة بمحاضراته ، فليست له جاذبية إمرسون ،ولا الحرارة المتقدة والحماسة اللتان ربما ازدراهما فى الخطيب الشاعرى النزعة . فقد كان يتكلم ليقول ما عنده أو يطالعه من مخطوطه ثم يتوقف ، وكان مدركا أنه فاشل فى الاستحواذ على انتباه الحشود من الناس وكان أميل إلى الاعتقاد بذلك .

وكان ثورو يخشى أن يرتخص نفسه،إذ يغدو على نحو ما كان يتصور المحاضر الناجح : بجرد مسل جذاب لجمهور مستمع غير قادر على التمييز . ومع هذا استشعر السخط والاستياء ، لأن معظم ما كان يقوله فى محاضراته ، ومعظم حقيقته شخصياً ، كان يذهب سدى بإلقائه على سامعيه ، وكتب فى يومياته : « إنى حرى أن أوافق هواهم خيراً من هذا إن أنا قللت من التزامى لحقيقة نفسى ، ذلك أنى أشعر أن الجمهور يريد رجلا من أوساط البشر ــ وسطاً فى أفكاره وأحواله وطباعه ــ غير ذى أصالة ، بل ولا امتياز له على الإطلاق ! » .

فأحب إليه أن يؤلف الكتب من أن يلقى المحاضرات « فأنت حين تقرأ على جمهور مختلط يحتشد لك اعتباطا فتتلو عليهم أفكارك البديعة التى واسيت بها نفسك بعيداً عنهم فكأنك تمارس فيهم فعلا عنيفا أشبه بتسمين الأوز عن طريق حشوها بالطعام إلى حد الكظة والبشم ، فلا يغنى ذلك فى تسمينها فتيلا ! ».

وعندما يعجز ثورو أن يرضى نفسه وجمهوره كليهما معا ، يؤثر إرضاء نفسه ، فلن يكون الفتى المراح سهل التناول الذى يقابل بالتهليل والزواط. ولن يكون — مثل كثيرين من الخطباء — ذلك المحاضر الذى يتاجر بخلابة شخصيته . بل لابد له أن يكون نفسه دائماً ،وليس شخصا سوى نفسه .وكتب باعتداد : « لم أستطع حتى الآن قط أن أعرف حشداً من الناس ، على حقيقته، ولا هم استطاعوا أن يعرفونى ! » .

وعندما ذهب ثورو ليحاضر فى ننتوكيت بعيداً عن ساحل ماساشوستس رآه دانييل ريكتسون لأول مرة، وكان ثورو قبل أن يقضى يوماً أو يومين معه فى طريقه إلى هناك ، ووصل إلى بيت ريكتسون يوم عيد الميلاد فإذا هوقوام خفيف جاد له عينان واسعتان مستديرتان غائرتان وأنف رومانى قوى . ورأى فيه ريكتسون — الذى كان يتوقع وصوله قبل ذلك حتى كاد ييأس — « رجلا يسير صعداً فى طريق العربات حاملا حقيبة ثياب فى إحدى يديه ومظلة فى اليد الأخرى ، مرتديا معطفا سابغا داكن اللون وعليه قبعة داكنة رخوة،فلم يجل بخاطرىأن يكون هذا الرجل ثورو ، ورجح فى ظنى أنه بائع سلع صغيرة متجول» .وقال القادم : «أراك لا تعرفنى ؟ ! » ، وحتى تلك اللحظة لم يومض فى ذهن ريكتسون أن الذى يحدثه هنرى ثورو ، وتناول حقيبة ضيفه وقاده إلى حجرته ، وسرعان ما تبددت خيبة أمله الأولى عندما تحدث ثورو على العشاء وفى غضون المساء ،فعندئذ اكتشف ما لثورومن « قدرات عقلية نبيلة ، ومحادثات غنية خصبة ، ولوذعية وسعة اطلاع » .

وقد يكون ثورو غير راض عن جماهير سامعيه ولا عن نفسه ، بيد

أنه كان يستمتع استمتاعا عظيما برحلات محاضراته ، واجتماعاته بأصحابه ، ومنظر الأماكن الجديدة، ولعله أيضا كان شديد الفرح بمبالغ المال الصغيرة — وقد لا تتجاوز خمسة وعشرين دولاراً — بالإضافة إلى نفقاته — التى تغلها عليه محاضرته ، ففى كل سنة تقريبا كان يعود إلى المنبر فى بدفورد الجديدة وفى وورمستر ـ حيث يقابل هاريسون بليك وثيوفيليس براون. وذهب بسرور إلى سالم عندما دعاه إليها هاوثورن ،وارتحل إلى مدن ولاية مين ، أو إلى بلدان رأس القد ، فقد كان يحب ذلك الرأس .

وفى رحلة مديدة ذات مرة جمع بين المحاضرة ومساحة الأراضى وزيارة صديق قديم ذى فضل عليه ، وزيارة شاعر جديد كان هو وإمرسون من أوائل من تبينوا عبقريته وأذاعوا صيته ، وقد أتته الدعوة هذه المرة عن طريق برونسون آلكوت من مؤسسى فروتلاندز ، وهى جالية تعاونية بالقرب من هارفارد فى ولاية ماساشوستس ، وكان هاوثورن قد عاش فترة من الزمن فى مزرعة بروك ، وهى أشهر الجاليات من هذا القبيل قرب روكسبورى الغربية ، وقد وجدت مواضع شتى من هذا النوع فى أواسط القرن التاسع عشر يعمل فيها الأعضاء فى الأرض بأيديهم ، ويتقاسمون أرباحهم ويعيشون حياة مشتركة بسيطة موقوفة على الدين والفكر .

وكانت اليزابث بيبودى شقيقة زوجة هاوثورن قد قضت تسع سنين تعمل سكرتيرة للقس المحترم وليام إليرى تشاننج ، وكانت أيضا مساعدة لآلكوت فى مدرسته بالمعبد الماسونى فى بوسطن . وظلت سنتين تطبع المزولة على مطبعة أقامتها فى حجرة خلفية من متجر كتبها فى بوسطن ، وهى الآن

من أقطاب جالية من المهتزين (الكويكر) تدعى إيجلزوود قرب بيرث أمبوى فى نيوجيرسي على مسافة ثلاثين ميلا تقريبا جنوب مدينة نيويورك .

وفى طريقه هابطا إلى إيجلزوود فى خريف سنة ١٨٥٦ تخلف ثورو فى نيويورك ولم يجد هوراس جريلى فى مكتبه بصحيفة التريبيون فلم يره ، وقضى ساعة أو ساعتين يطالع فى مكتبة أستور العامة ، ثم عبر نهر هدسون بالمعدية واستأنف رحلته بالقطار ، وعندما وصل إلى هناك كان رأيه فى إيجلزوود : أنها مكان غريب . وصرح لهم بذلك . فإلى جانب دار مزرعة قديم ، وبضعة حوانيت ومكاتب ، يوجد بناء واحد طويل من الحجارة يعمل فيه جميع أعضاء الجالية . وحضر ثورو حفلا راقصا ينظم هناك فى مساء كل سبت ، وحضر اجتماعا للمهتزين فى المبنى نفسه صباح يوم الأحد . وكان معلم المدرسة فى إيجلزوود هو ثيودور ويلد المصلح وداعية تحريم الرق ، وكان رأس الجالية مرقس سبرنج الذى يملك الأرض ، وكان جيمس ج . بيرنى ذو اللحية البيضاء ومرشح حزب الحرية من قبل لانتخابات رياسة الجمهورية عضواً ، وكذلك إدوارد بالمر الذى كان يجادل ضد استخدام النقود ، ومعظم الرجال لهم لحى طويلة بيضاء ، وبعض عجائز لسيدات يرتدين السراويل النسائية .

وقام ثورو بعملية مسح لمائتى اكرا (نحو ثلث ميل مربع) لجالية إيجلزوود ناصبا مرقبه ومادآ خطوطه عبر الغابة والمستنقعات الملحة والنباتات الشجرية الكثيفة والوحول ، وكان تخليص ثيابه قبل كل وجبة من البراغيث يستغرق منه عشر دقائق أو خمس عشرة ، أما الفتوق فكان لابد أن ينتظر لإصلاحها سنوح فرصة مواتية ، وكتب ثورو إلى شقيقته الصغرى

صوفيا بكل شيء ، وتوقف عند موضع من خطابه ليتحدث بالفرنسية إلى أحد الخدم من الرجال عن أحوال ذلك المكان .

وزار ألكوت إيجلزوود ثلاث مرات خلال بضعة الأسابيع التي مكثها ثورو هناك قائماً بمساحة الأرض، ومحاضراً في قاعة مدرسة ثيودور ويلد ، وقضى الاثنان أحد أيام السبت مع هوراس جريلي بدعوة منه في مزرعته في تشاباكوا على مسافة ستة وثلاثين ميلا شمالي نيويورك في كونتية وستشستر . وفي الصباح التالي ذهب ثورو وآلكوت لسماع هنري وارد بيتشر ، وكان حينئذ في قمة شهرته يعظ في بروكلين، وفي يوم الإثنين زارا والت ويتمان ، وكان قد نشر أخيراً أول طبعة في ديوانه « أوراق العشب » ، وهو نوع من الشعر يخالف كل ما عرفه الناس من قبل ، فالكثيرون لا يعتبرونه شعراً على الإطلاق ، وإن كان أناس قلائل — وعلى الخصوص إمرسون — أدركوا على الفور عظمة هذا الكتاب .

وهوجم ويتمان لما اعتبره الكثيرون جلافة ونزعة شر في عمله ذاك ، وإنه لدليل على صدق فراسة ثورو وفطنته الأدبية أنه — بسرعة إمرسون نفسها — نفذ إلى القيم الشعرية التي أحلت « أوراق العشب » منذ زمن طويل بعد ذلك في موضعها الصحيح باعتبار هذا الديوان من أعظم كتب أمريكا .

وكتب ثورو إلى هاريسون بليك من إيجلزوود في ١٨ من نوفمبر سنة ١٨٥٦ بانطباعاته عن والت ويتمان :

« إنه ذو طبيعة واضحة القوة ، وإن كانت خشنة، وفيه دماثة ،

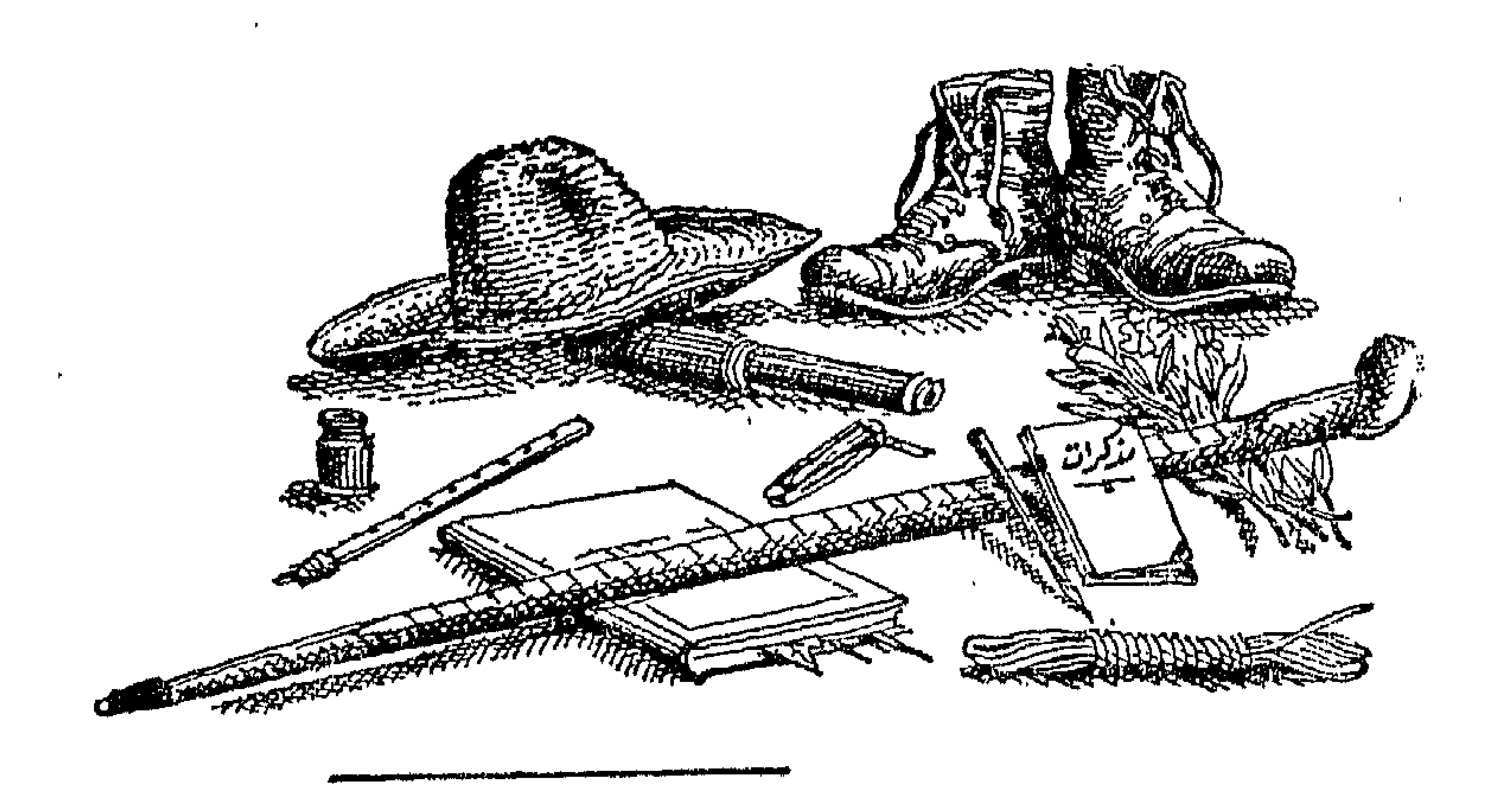
وله عند أصدقائه تقدير عظيم ، ورغم ما فى مظهره من وعورة وغرابة ، وما فى بشرته (كالها ؟) من حمرة فهو فى جوهره سيد مهذب (جنتلمان)، وما زلت فى حيرة من أمره على نحو ما ، وأشعر أنه فى جوهره غريب عنى على كل حال ، ولكنى لا أشعر بالدهشة لمرآه ، وفى أفقه رحابة،ولكنه كما قلت غير مرهف ، وقد أخبرنا أنه يحب الركوب صاعداً وهابطا طريق برودواى طول النهار على ظهر مركبة عامة (أمنيبوس) جالسا بجوار السائق منصتا لهدير العربات ، وفى بعض الأحيان يلوح بيديه منشداً أشعار هوميروس بأعلى صوته . وقد لبث زمنا طويلا محرراً وكاتبا للصحف ، فكان رئيس تحرير مجلة نيوأورليانز كريسنت (أى هلال نيوأورليانز) وقتا ما . أما الآن فليست له مشغلة سوى القراءة والكتابة قبل الظهر ، ثم المشى بعد الظهر ، شأن بقية أعيان الكتاب » .

وكان ثورو لم يزل يفكر تفكيراً شديداً فى ويتمان بعد عودته إلى كونكورد . وكان ويتمان قد أعطاه نسخة من الطبعة الثانية من « أوراق العشب»، وقال ثورو إن قراءة هذا الكتاب جعلته يشعر بفائدة تتجاوز فائدة أى كتاب طالعه منذ أمد طويل . وكان رأى ثورو — على حد تعبيره — أن ويتمان « فى منتهى الجودة » . وبلغ من حماسة ثورو — ولم يكن على الدوام سخيا فى أحكامه بل ضنينا بالثناء — أنه أعلن أن « ويتمان شخص عظيم » .

وكتب ثورو إلى هاريسون بليك مرة أخرى فى ٦ من ديسمبر سنة

١٨٥٦ مستخدما بالضبط الألفاظ بعينها التى كان قد كتبها فى يومياته قبل بضعة أيام : « لقد وجدت قصيدته مبهجة ومشجعة . وأما عن حسيته — وهى حسية ربما تمخضت عن أقل من مظهرها — فلست أتمنى كثيراً لو أن هذه المواضع لم تكتب ، بل أتمنى على الأرجح لو كان الرجال والنساء من الطهر والنقاء بحيث يستطيعون قراءتها من غير أن يصيبهم ضرر » . وقال ثورو لبليك إنه منذ رأى ويتمان لم يعد يزعجه أى تنفج أو أنانية فى شعره . فويتمان أقل تنفجا من معظم الناس ، لأنه أحق منهم بالاعتداد بنفسه . « وينبغى لنا أن نبتهج بقراءته أعظم الابتهاج » .

وهكذا يستطيع هنرى ثورو أن يكون سخياً فى الثناء عندما يعثر على ما يتبين جودته .



الفصل الحادى عشر

صار ثورو يكثر من مغادرة كونكورد والمضى فى أسفاره إلى آماد أبعد ، ولـكن رحلته فى سنة ١٨٥٠ لم تـكن فى مثل استطابته لمقامه فى إيجلزوود وزيارته لوالت ويتمان .

وكانت مرجريت فولر التى كان قد عمل معها فى المزولة قد غادرت العمل فى التربيون والإقامة فى أسرة جريلى لتسافر إلى الخارج فى سنة ١٨٤٦ وفى إنجلترا التقت بكارلايل ووردزورث وهاربيت مارتينو ، وفى باريس التقت بالكاتبة جورج صاند ، وذهبت إلى إيطاليا حيث التقت بالماركيز انجيلو أوسولى وتزوجته . وحارب أوسولى تحت لواء مازينى فى ثورة روما سنتى ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ وانحازت مرجريت فولر أيضاً إلى المعسكر الثورى

وبعد شتاء قضته فى كتابة تاريخ ثورة روما قررت مرجريت أن تبحث عن ناشر أمريكى لكتابها ، وأبحرت من ليجهورن مع زوجها وطفلها الصغير فى ١٧ من مايو سنة ١٨٥٠ . وفى يوم ١٩ من يولية ، فى الليلة السابقة لموعد رسو السفينة فى ميناء نيويورك داهمتها عاصفة قرب جزيرة فاير وغرقت وغرق معها آل أوسولى الثلاثة . ولم تنتشل جثة أحد منهم سوى جثة الطفل .

وبناء على طلب إمرسون توجه ثورو مع إليرى تشاننج مغادرين كونكورد فى ٢٤ من يولية سنة ١٨٥٠ — أى بعد الغرق بخمسة أيام — لاسترداد أى شىء يمكن استنقاذه من مخطوطات مرجريت فولر ومقتنياتها. وزار ثورو قبر الطفل الغريق ، ولكن لم يعثر على أثر لمارجريت فولر سوى حقيبة من القماش السميك كانت مملوكة لزوجها وحقيبة كبيرة من الجلد الأسود تضم جانباً من أوراقها، وعشرين أو ثلاثين كتاباً .أما أوسولى نفسه فما بقى منه كان أقل من ذلك بكثير . وقد انتزع ثورو زراً من سترة الماركيز التى جرفها التيار على الشط وعاد بالزر إلى كونكورد ليكون التذكار الأوحد للفقيد .

وعندما كان ثورو فى جزيرة فاير حاول عبثاً العثور على جثة هوراس سمنر والتعرف عليها ، وهو شقيق عضو الشيوخ المنادى بتحريم الرق عن ولاية ماساشوستس ، وكان أيضا بين الغرقى . وبحث عن جثة قيل له إنه حرى أن يجدها على مسافة ميل أو ميلين من مسرح الحطام راح ثورو يذرع الشط العريض باحثا عن قطعة من القماش مرفوعة على عصا لتحديد المكان ، وكان الشط عريضا نظيفا حتى إن ثورو رأى الجثة وقد

نزعت أسماك القرش لحمها عن عظامها ، وهو لم يزل على بعد نصف ميل منها . وأثر فيه المنظر تأثيراً شديداً حتى إنه وصفه ووصف مشاعره فى يومياته، واستخدم هذه الفقرة فيما بعد بتغيير طفيف جداً عندما كتب عن رأس القد : « ... هناك ترقد بقاياه فى حالة لا تتأذى منها على الإطلاق عين الجسد ولا عين العقل ، بسبب ما أحاط بها من المشاعر . . . كانت بادية للعيان فى ذلك السهل الرملى كأنما عمل جيل كامل على تكديس صوة من الحجارة هناك ... فإذا هذه الصوة تهيمن على الشط من عل ، وإذا هذا الجسد الميت يمتلك الشط كما لم يستطع أحد من الأحياء أن يمتلكه ، وإذا له من الحق على هذه الرمال ما ليس لأحد من الحاكين الأحياء ! » .

وكانت أسفار ثورو المتواضعة الأخرى أقل كآبة من مهمته فى جزيرة فاير . فأينما ذهب وكل ما رأى استطاع أن يسجله بعناية فى يومياته، ومن هذه التدوينات ينسج أقاصيص رحلاته ، وهى غالبا على القدم . وكان ينشرها أولا فى صورة مقالات فى المجلات ، وبعد وفاته نشرت كتبا عناوينها : « رأس القد » و « غابات مين » و « رجل من الشمال فى كندا » .

وكل من « رأس القد » و « غابات مين » ليس قوامه رحلة واحدة، بل عدة رحلات قام بها ثورو إلى هذين المكانين على مر السنين . وإلى حد ما كانت الرحلات امتداداً لتسايره فى ريف كونكورد ، وهى من جهة أخرى جاءت إرضاء لحب ثورو ، لا للمشاهدة الريفية فحسب ، بل أيضا للطبيعة الوحشية كما وجدها فى الأماكن الموحشة التى ناشتها العواصف من ساحل المحيط الأطلنطى وبرية مين . وميل ثورو الذى ينزع به إلى ما هو بدائى ووحشى يمثل جانبا من طبعه كما يمثل طبعه أيضا حب الجمال فى

غروب الشمس أو فى حقيقة أخلاقية أو صداقاته الفكرية ، أو حياته فى بيته عضواً شديد الرعاية فى أسرة محبة . ففى هنرى ثورو يجتمع النسر والثعلب، مثلما يجتمع فيه الدارس والشاعر . ففيه وجه شبه بدانيل بون . كما أن فيه وجه شبه أيضا بإمرسون وآلكوت .

وكان السفر على أيام ثورو إما فى زورق ، وإما فى قطار ، وإما على صهوة جواد أو خلفه وإما على الأقدام . فكان ثورو عندما تضطره أعمال والده للسفر يستقل المواصلات العامة إلى آخر مدى يمكن أن تصل به فى وجهته، وفى بعض الأحيان كان يقود جواداً وعربة بعض الطريق — على نحو ما كان يفعل فى كونكورد ، وكان يفضل السير على قدميه إلى الأماكن التى لا يصل إليها سوى الرجل .

وكانت أول أسفار ثورو إلى رأس القد ، وهو مكان بعيد منعزل يومئذ فى خريف سنة ١٨٤٨ . وعاد إلى الرأس فى يونية من العام التالى ثم قام بزيارة ثالثة فى سنة ١٨٥٥ ، وذهب إلى هناك لآخر مرة عندما كان مريضاً فى صيف سنة ١٨٥٧ ، وفى جميع هذه المرات ، ما عدا المرة الثانية، ذهب معه إلى هناك إليرى تشاننج .

وقد قطع ثورو على قدميه امتداد « رأس القد » بضع مرات ، مجتازاً فى تفقده الساحل الخارجى من تلك الأرض التى تشبه شص الصياد الضخم من ولاية ماساشوستس المطلة على المحيط الأطلسى ، وساحل الخليج الداخلى لذلك الشص . وفى مواضع كثيرة كان يجتاز العنق الرفيع من ذلك الشص فى بين الساحلين .

وقد فتنه رأس القد ، لأن رماله الصفراء والرمادية ونباتاته المنخفضة الخشنة كانت تتباين أشد المباينة حول الريف المحيط بكونكورد الخصبة وغاباته الخضراء ، وقد أدهشه هذا القطاع من انجلترا الجديدة وبهره بجدبه وعزلته ؛ فقد كان الرأس عبارة عن بحر ، وكثبان رملية ، وقشور أسماك ، ورياح ملحة ، وهدير لا ينقطع من المحيط ، ورمال لا تكف عن الهبوب ! وعجب ثورو لأسطول سمك الإسقمرى العظيم ، وراقب المحصول الهائل من سمك القد يجلب من الشواطيء العظمى ليجفف ويملح ، وطواحين الهواء فوق أبراجها الرمادية المثمنة الأضلاع كانت ذات نفع له كما كانت ذات نفع للملاحين الذين يحددون بها اتجاههم عند الاقتراب من الشاطيء ؛ فقد كان ثورو يستخدمها نقاطاً لتقسيم مراحل سيره . وفى يقظة وحب استطلاع فحص ثورو الشاطيء والطيور والشجيرات المنخفضة ، الخشنة ، وأصداف الأسماك ، معلقاً بأسلوب جاف على كل ما يراه مازجاً التاريخ بالجغرافيا على الطريقة التى يحبها فى سرده . وقد وجد الناس فى رأس القد ذوى أصالة على خلاف المعهود . وكذلك أيضاً وجدوا هنرى ثورو .

لقد ظل ثورو يشق بقدميه فى إصرار تلك الرمال الغزيرة إلى أن عرف كل شيء تقريباً عن مدن الرأس وقراها . عن ترورو وويلفليت وتشاتم ودنيس وبروستر وكوهاسيت وبروفنستاون التى وجدها مزدهرة عند طرف الرأس .

وفى ويلفليت أقام فى كوخ صياد محار طاعن فى السن كان قد سمع بأذنيه مدافع بنكرهل وهو غلام فى الرابعة عشرة وشاهد جورج وشنطن يجوس على صهوة جواده خلال شوارع بوسطن. وقد ترك لنا ثورو صورة حية

لمضيفه الذى أطلق عليه وصف أمرح شيخ راه فى حياته ، وهو من أفضل الشيوخ الذين عرفهم احتفاظاً بقواه . وأسرة ذلك الشيخ عبارة عن زوجة وابنة — يقول ثورو إنها تبدو فى مثل شيخوخة أمها تقريباً — وابن أبله. وكان الشيخ يقول : « هاتان المرأتان كلتاهما مخلوقة مسكينة لا تصلح لشىء، فهذه زوجتى وقد اقترنت بها منذ أربع وستين سنة ، وهى اليوم فى الرابعة والثمانين من عمرها صماء كأنها أفعى ، وهذه الأخرى ليست أحسن حالا منها بكثير » .

وقبل أن يدخل الرحالتان ليبيتا قال الابن الذى كان يصغى للحديث رأيه بصوت أجش : « إنهما من باعة الكتب الملاعين . فلا حديث لهما طول الوقت إلا عن الكتب ، وأفضل من ذلك أن يصنعا شيئاً ، عليهما اللعنة ! سأطلق عليهما النار ، استدعوا طبيباً بسرعة ، فسوف آتى ببندقية وأطلق عليهما الرصاص ! » .

وزأر الرجل المسن فى ابنه ليكفه عن برجمته قائلا « ما أكثر ما تقول وأقل ما تفعل ! » .

ونجا ثورو ليستأنف أسفاره من غير أن يصيبه رصاص ، وقد تأثر كثيراً برجال الرأس ، فكثيرون منهم أشكالهم بديعة ، أما نساؤهم فكان تأثره بهن أقل ، فلكثيرات منهن أذقان وأنوف بارزة ، وسحنتهن الجانبية حادة الزوايا جداً ، ذلك أنهن فقدن أسنانهن . ثم يردف ثورو بحزم وإنصاف : « بيد أن هذا لا يقلل من احترامنا لهن على الإطلاق ، لأن أسناننا شخصياً بعيدة عن الكمال ! » .

وعندما كان يجد ثورو وتشاننج خاناً أو نزلا كانا يأويان إليه . أما إن ثبت أن القرية خالية من هذا وذاك ، فببساطة يتجه ثورو إلى أحسن البيوت منظراً فى ذلك المكان ويلتمس فراشاً . وكان فى العادة يحصل عليه. وذات مرة عندما احتاج إلى نسخة من كتاب فى التاريخ المحلى ولم يجد نسخة مطروحة للبيع أقدم على مثل ذلك الصنيع ، فطرق باباً ما بدا له أحسن بيت ، وطلب الاطلاع على ذلك الكتاب ، ولما أتته به شابة تبدو على وجهها الدهشة عرض عليها ثورو أن يشترى الكتاب ، وأبرز المال ، ثم انطلق بضالته !

ولا غرو أن ينظر أهالى رأس القد إليه بمثل هذا الاهتمام الذى أبصرهم به . فذات مرة — على حسب رواية تشاننج — ظهر فى موضع من هذه المواضع وقد برز من وسط الضباب ومظلته فوق كاهله كأنها بندقية ، وقد تدلى من طرفها الأقصى طائر ميت كان يريد أن يفحصه ، فقرر أهل القرية أنه ليس من الباعة المتجولين على كل حال ، وراحوا يؤكد بعضهم لبعض أنه إنسان مخبول ليس إلا .

وفى سنة ١٨٥٥ ارتحل مع إليرى تشاننج بسفينة البريد من بوسطن عبر خليج رأس القد إلى بروفنستاون ؛ ومن هناك سافرا بطريق البر فى مركبة سفر عامة سبعة أميال حتى ترورو الشمالية حيث نزلا فى بيت صغير ملحق بمنارة هايلاند مقابل ثلاثة دولارات ونصف دولار فى الأسبوع لكل منهما ، وكتب ثورو يستحث هاريسون وبراون على القدوم ، بيد أنه رحل مع تشاننج عائدين إلى بلدهما قبل أن يتمكن الآخران من الوصول . وفى سنة ١٨٥٧ قطع ثورو مرة أخرى الرأس بطوله على قدميه .

وقد نصح دانيل ركتسون بأن أفضل وسائل السفر هناك أن تثابر على السير فوق الشط «حتى نهاية البر»، مهما يكن الشط ناعماً ، وهكذا بطول القرع على أبواب المحيط تحصل على الإذن بالدخول أخيراً،والأفضل أن يكون سيرك منفرداً وفى جو العاصفة غير عالم ، أين تبيت ليلتك ، أو أين تأكل نهارك !! وقد أضفى رأس القد العافية والإلهام على ثورو . فكتب فى ختام رأس القد : «يستطيع الإنسان أن يقف هناك ويضع أمريكا بأسرها وراء ظهره» وكان ثورو نبياً فى بعض الأحيان فى الأمور الصغيرة مثلما كان نبياً فى الأمور الجسام ، فقال إن الوقت سيحين حيث يمسى رأس القد المنعزل القاحل منتجعا مأهولا شهيراً على الساحل .

وكان ثورو قد ذهب للبحث عن عمل فى مين فى سنة ١٨٣٨ ، أما غزواته فكانت أحفل بالمغامرة عندما كان يقتحم برية مين فى ثانى صيف له على بحيرة والدن ، عندما تسلق جبل كتادن ، وفى سنة ١٨٥٣ توغل حتى بحيرة تشيزنكوك . وفى سنة ١٨٥٧ قام برحلة مع إدوراد هوز ومرشد من الهنود الحمر مصعدا فى الجاش والفرع الشرقى . وكان ثورو يستعد استعدادا كبيرا لهذه الأسفار المضنية ، فكان يقدر بعناية مقدار ما يحتاج إليه من الشاى والسكر والخبز والملح، ويحمل أجزاء من الخرائط الرسمية تبين الأراضى التى عزم على ارتيادها ؛ ولما كتب إليه توماس ونتورث هجنسون من ورسستر يسأله النصح فى أمر الرحلة يعتزم القيام بها استطاع ثورو أن يمده بمقترحات عملية تفصيلية قائمة على أساس تجربته الشخصية الشاقة .

وقد كتب إلى هجنسون يقول إنه بصحبة رفيق ومرشد فى رحلة بزورق

نهرى صغير طولها ٣٣٥ ميلا على مدى اثنتى عشرة ليلة من المبيت فى المعسكر قد استخدم بالضبط ستة وعشرين رطلا من الخبز الجاف، وأربعة عشر رطلا من لحم الخنزير ، وثلاثة أرطال من البن، واثنى عشر رطلا من السكر . وكان يتمنى لو حملوا معهم مزيداً من السكر — فضلا عن كمية كبيرة من دقيق الذرة والأرز والتوت ولحم الأيل . والخبز الجاف ولحم الخنزير هما الصنفان اللذان يستحقان مشقة الحمل من بين الأطعمة القوية . فمفعولها الغـذائى أفضل . ونصف « دستة » من الليمون لها أثر عظيم منعش . والسكر والبن والشاى وما إلى ذلك نصحه أن يجعلها فى أكياس مضادة للبلل ومتفرقة وعليها بطاقات مميزة . وجميع المؤن والأغطية يجب الاحتفاظ بها فى أكياس من المطاط واسعة مضادة للبلل، واصطحاب دلو من الزنك سعتها أربعة لترات ونصف تتمخض عن نفع جزيل فى أغراض شتى . وهجنسون يرى أيضاً أنه يحتاج إلى جربندية من المطاط ذات رفرف عريض وكمية من الصحف القديمة والخيط وقطعة حبل قوى طولها خمس وعشرون قدماً « ٧٫٥ أمتار » ولن يحتاج إلا إلى معطف خفيف واق من المطر .

وكان ثورو يحزم جميع هذه الأشياء ، ويضع معها بالطبع قطعة كبيرة من كعك البرقوق الثقيل ومظلته ، وبذلك يكون على تمام الأهبة للمضى إلى الغابة .

و « غابة مين » من أحسن مسرات ثورو ، فهى ملأنة بالوصف الواضح والملاحظة الحادة الحصيفة للبشر والطبيعة . وفى الكتاب فيض كبير من فنون حياة المعسكرات وحكمتها السديدة . وقد أوضح ثورو أن الغابات الكثيفة بليلة على الدوام ورطبة وكثيرة الطحالب لأن الشمس

لا تستطيع أن تنفذ من خلال الأشجار العالية ، ولذا تبتل دائماً أقدام الرحالة مهما تكن نعالهم جيدة . وذات ليلة استيقظ ثورو وراقب « الأشكال والحركات الشيطانية » الصادرة من أحد أعضاء الفريق ، وقد عجز عن النوم فراح يزود النار بالوقود ، فنهض ثورو وألقى فى النار بمزيد من الأخشاب وتجول على طول شاطىء البحيرة فى ضوء القمر . وفى وسعك أن تشعر بالبلل وتتنسم الهواء البارد الحاد وترتجف فى برد الغابة وترى ضوء القمر فوق ماء البحيرة الساكن من خلال وصف ثورو .

وعندما يحتاج الأمر إلى نقل الأحمال يتولى ثورو حمل نصيبه منها . وعندما يستعيضون عن حملها حول مناطق المياه الثائرة بسحب زورقهم باللبان مخترقين به المياة الثائرة والشلالات أو المنحدرات السريعة كان ثورو يبقى فى الزورق ليساعد على توجيهه وسط المياه الخطرة . فكانت هذه الجداول الثلجية فى البرية امتحانا لقوة عضلاته وبراعته وشجاعته . وكان نوتى نهر كونكورد الهادىء يطرب لهذا الامتحان . وقد تهلل عندما انتصروا فى موضع شديد الوعورة : « فبعد مثل هذه الرحلة بدت الحياة الغاضبة المضطربة التى تجلت لنا فى البداية رهيبة لا يمكن التصدى لها وقد صارت مستأنسة خاضعة بعد أن سحلت وأرهقت فى مسالكها . ونخست وسيطت بزج المدراة والمجداف ، وأعيد عليها هذا الصاع مراراً وتكراراً من غير أن يلحق بمن يكيله لها العقاب ، إلى أن فارقها كل ما كان لها من بأس وخطر » .

وغابات مين لا يثلمها حقل او اجتثاث فبدت له على نحو ما كانت عليه فى العصور الهومرية ، وأدرك إلى أى مدى لم تزل الولايات المتحدة بكراً

وأى برية واسعة تركها المستوطنون خلف ظهورهم عند اندفاعهم نحو أوريجون وكاليفورنيا .

وفى رحلته إلى تشيزونكوك جعل ثورو يرقب الدليل الهندى الأحمر جو أيتيون مترصدا كل حيلة من حيل الغابات ومجارى الماء يمكن أن يتعلمها منه . وكانت خيبة أمله عظيمة عندما اكتشف أن هذا الهندى الأحمر الذى يصفر لحن « أوه سوزانا » والكلمة الأثيرة عنده « بالتأكيد » يعرف من فنون الغابة فيما يبدو أقل مما يعرفه ثورو شخصيا .

وفى آخر رحلاته إلى مين صحب ثورو مرشدا آخر هو جو بوليس الهندى الأحمر ابن الثانية والأربعين ، المتين البنية العريض الوجه ، الذى يزيد طوله على المتوسط قليلا ، فكان الهندى الأحمر الذى ينشده ثورو ، فهو يلاحظ الشيء الكثير وبلا وعى حتى كأنه يعرف الاتجاه بغريزته . وهو سريع التعلم ومثالى فى التعلم منه ، وقد افتتن ثورو بجو بوليس وامتلأ إعجابا بذلك الشخص الذى يبدو كأنه استحوذ على جميع الخصائص الموروثة فى أرومته على نحو ما يتصورها ثورو ، فعبر عن ذلك فيما كتبه عن دليله فى الجاش « والفرع الشرقى » بمقدار ما كتب عن الغابات والحيوانات والطيور والماء الأبيض الذى ينحدر من جداول الجبل .

وقد أخبره جو بوليس أن اسم نهر كونكورد فى لغة الهنود الحمر « موسكيتيكوك » ومعناه الماء الميت ، وذلك يتفق مع ما كان هندى أحمر من سان فرانسيس قد أخبر به ثورو منذ سنين ، فاعتبر ذلك دليلا جديدا على معرفته وحكمته ، وأبهج ثورو أن يناديه جو باسم هندى معناه « المجذف

العظيم ، وبعد ذلك علمه طريقة أفضل التجديف فى زروقه الخاص . فكان جو بوليس الهندى الأحمر الذى يصبو ثورو بجانب من فطرته إلى أن يكون .
وفى سنة ١٨٥٦ ذهب ثور الى الجبال البيض مع ادوارد هور وهو من زملاء صباه فى القنص وصيد السمك ومن أبناء أسرة معروفة جدا فى كونكورد وبعد تخرجه فى هارفارد صار قاضيا فى كاليفورنيا . وقدم هور لهذه الرحلة الى هامشاير الجديدة حصانا وعربة ، وعزم الاثنان على اجتياز قمم الجبال بحثا عن النباتات والأزهار، فقد كان هور يشارك ثورو فى حماسته لعلم النبات وكتب ثورو إلى بليك وبراون يحثهما على القدوم فورا أو اللحاق بهما فى حصان وعربة يأتيان بهما .

تسلق ثورو وهور جبل وشنطن . ولم يتح لهما دليل حينئذ فاتجها إلى وادى تكرمان وثورو يتولى التوجيه بواسطة خريطة وبوصلة جيب لرغبتها فى مشاهدة جبل ثلج صيفى من المعلوم أنه يوجد هناك . ووصلا إلى ذلك الوادى سالمين وتسلقا الصخور الصلدة هابطين الصدع الذى أحدثه نهر بيبودى ، وأثناء القفز من صخرة إلى صخرة وعلى ظهره لفافة ثقيلة انزلق ثورو وسقط فرض عقبه ، ونهض وجعل يظلع عدة أقدام وهو متألم ثم انحنى واختار نباتا يعرفه لم يكن قد عثر عليه من قبل ، وهو نبات « ارنيكامو ليس » . وهو نوع من نبات دخان الجبل يستخدم فى الرضوض والالتواءات التى تصيب الأعضاء . وقال ثورو : « هاهو ذا دخان الجبل على كل حال » .

ولم يثبط هذا الحادث السيء مع سقوط الأمطار الغزيرة أياما متوالية من همة ثورو . ولئن لم يستطع الحراك فقد تولى إقناع الآخرين بحديثه



ارتاد "ثورو" الجبال البيض كما ارتاد غابات كونكورد وحقولها.

وغنائه . وعندما استطاع الحركة واصل مع هور البحث عن النباتات وكانا قبل مبارحة كونكورد قد كتبا قائمة بخمسة وأربعين نوعا من النباتات يأملان فى العثور عليها . وقد عثرا على اثنين وأربعين منها ، ولم يخل ذلك من مشقة وقضيا إحدى الليالى نائمين على الصخر العارى فى قمة وشنطن . ولما كان ثورو معتادا على هذه المشاق فقد نام نوما عميقا . أما هور فقضى الليلة مستلقيا يرتجف على قمة الجبل تحت ما ذكره فيما بعد فوصفه بأنه أبرد قمر فى ليلة التمام .

وكان اليرى تشاننج المخلص هو الذى صحبه عندما ذهب مرة أخرى فى سنة ١٨٦٠ إلى الجبال البيض ، وكان تشاننج قد صحب ثورو فى سيره سنوات طويلة ، بيد أنه لم يكن قد عسكر معه فى الخلاء إطلاقا .

وتسلق الرجلان جبل مونادنوك تحت المطر ، غائصين بعمق فى سحابة جبلية فى منتصف ما بعد الظهر . ولما بلغا القمة تناول ثورو بلطته وشيد كوخا صغيراً أنيقا لهما . وفرغ من ذلك عند حلول الظلام ، وقد أصبحا كما قال ثورو بفرح « مبللين كأنما كنا واقفين فى دن كبير ملآن بالماء . وبعد ذلك أشعلنا نارا أمام الباب . . . ووقفنا أمامها وجعلنا نستدير حول أنفسنا ببطء كأننا لحم يشوى . وهكذا تم جفافنا بعد بضع ساعات على نحو لم يتيسر لنا من قبل قط ، وأخيرا دخلنا الكوخ » .

وفى اليوم التالى شيد ثورو كوخا آخر جعل أحد جوانبه وأرضيته من صخور الجبل الناتئة . وأتاح ذلك له موضعا جديدا يفحص منه الأزهار والطيور والطحالب وسائر ماجاء ليشاهده . وطال غيابه مع تشاننج عن

كونكورد ستة أيام قضيا منها خمس ليال فى كوخيهما الجبليين . وبعد عدة ليال كتب ثورو إلى بليك يقول : « إن تشانتج قرر أن يضطجع فى العراء ويتساءل : ما أضخم حيوان يمكن أن يقرقض رجليه ؟ وأخشى أنه لم يستفد من ليلته فى النوم كما كان ينبغى ! » .

ورسم ثورو بعناية رسماً تخطيطياً وخريطة للمنطقة بين عليها جميع تفصيلات الرحلة ونباتات المنطقة وحيواناتها . وتحت غطائه الخفيف كان ينام، فى حين لم يستطع تشانتج بأغطيته الثقيلة أن يذوق النوم وكان يتحفظ فى الكلام عندما ينطلق تشانتج الذلق فى الحديث. ولعله لم يكد يلاحظ المشاق التى تذمر منها تشانتج فى فزع مرير : « الإجهاد والشمس المحرقة وشى الوجوه ، والكوز الذى لا سبيل إلى تنظيفه بالفرك وحلاقة الذقن التى لاسبيل إليها ، والجوارب التى صارت من سوء حالها إلى التفحم ، والصخور الغريبة المحيرة التى يضل المرء وسطها وهو على قيد قصبة من المعسكر .. » .

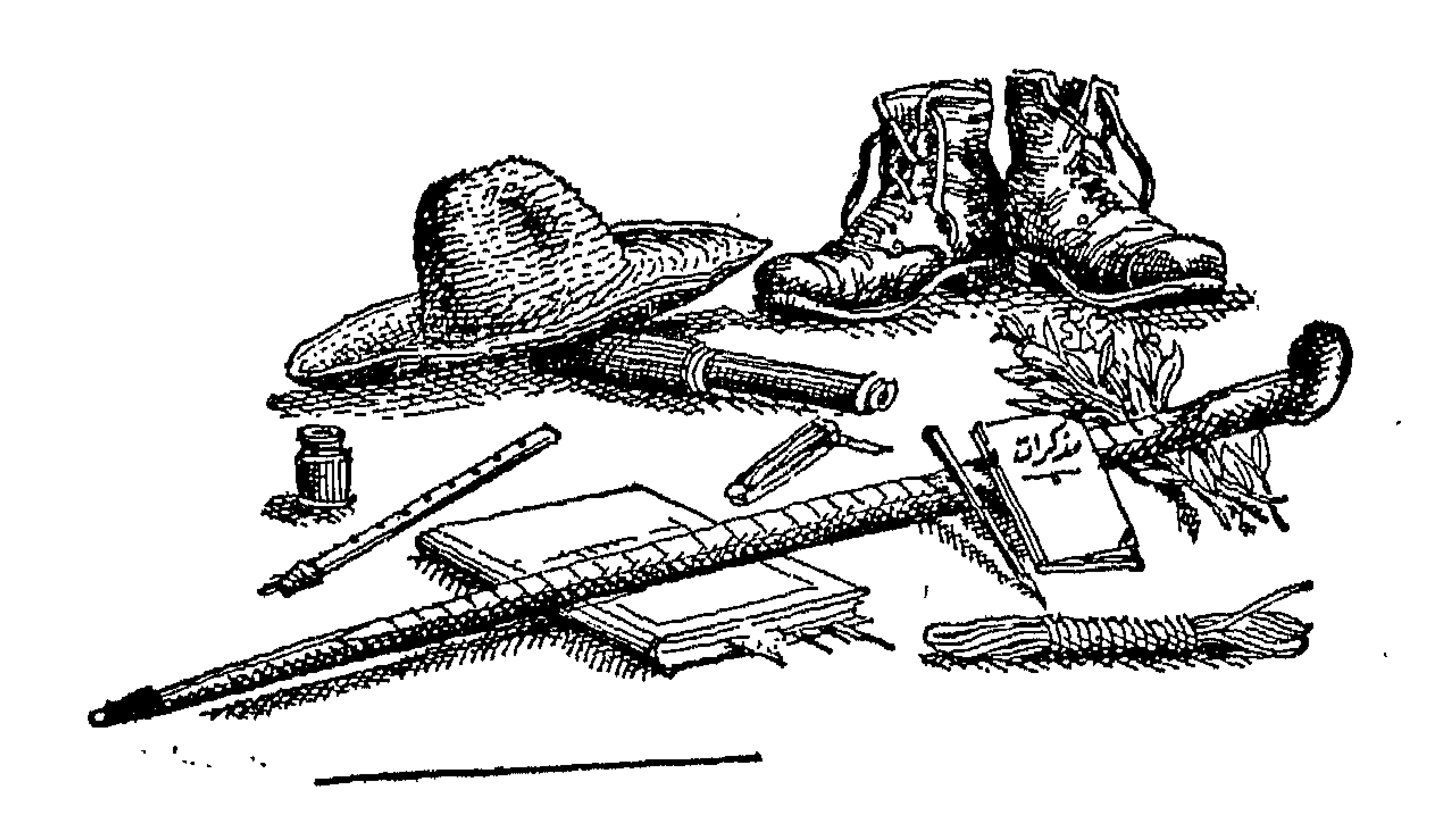
وبعد أن راقب ثورو الهنود الحمر فى مين يقنصون أيلا ويقتلونه قرر أنه عن طريق القنص وصيد السمك يستطيع أن يجد ما يقيم أوده بحيث يقضى فى يسر سنة كاملة فى الغابات بارتياح عظيم . وكان مخطئاً؛ فهذه الفكرة مثيرة ولكن ارتياحه لتنفيذها ما كان ليدوم سنة أو جزءاً مذكوراً من سنة. فهو ينشد أكثر من هذا بكثير جداً . وبعد إحدى رحلاته فى البرية كتب إلى بليك فى ١٨ من أغسطس سنة ١٨٥٧ :

« لم تسنح لى فرصة لتغيير رأيى فيما يختص بالأساسيات . فمنظر العالم يتغير من سنة إلى سنة باختلاف الزى الذى يتخذه المشهد . ولكنى أجد الحق لا يزال هو الحق . ولست آسفاً إطلاقاً على أى

تأكيد حماسي يمكن أن يلهمني إياه . جبل كتادن لم يزل قائماً في موضعه ، ولكن أرسخ من ذلك ، وأؤكد قيام معتقداتي ، مستقرة على وجه الدنيا بما يفوق اتساع الجبل وثقله » .

لقد ألهبت البرية حماسة ثورو ، ولكنه في نهاية المطاف يؤثر على الدوام ريف كونكورد الخلوي بما فيه من مزارع وحقول مفلوحة وجداول ونثار من الغابات وسطوح التلال الوعرة . فهو على الدوام يعود إلى كونكورد بتقرير متجدد لما ملكته يمينه . فقد كتب في يومياته بتاريخ ١٢ من نوفمبر سنة ١٨٥٣ « لا يسعني إلا أن أعتبرها مكرمة ممن يتولون مقادي أنهم عن طريق الافتقار إلى الثراء المالي جعلوني مشدودا إلى موطن رأسي بصفة مطردة على مدى الزمن ، بحيث جعلوني أدرس وأحب هذه البقعة من الأرض بصورة متزايدة . وأي معنى بالقياس إلى ذلك يمكن أن يتمخض عنه لحب هزيل مشتت ومعرفة هزيلة مشتتة لوجه الأرض بأسره عن طريق الطواف والتجوال ؟ » .

ومعظم أصدقائه من أهل الأدب والثقافة - وهم إمرسون وهاوثورن وألكوت ومرجريت فولر - قاموا برحلات إلى خارج البلاد . أما ثورو فلم ير أوروبا إطلاقاً . ولم يكن افتقاره إلى المال هو الذي قيد رحلاته . بل كان لديه باعث عميق يكاد يكون غريزة حيوانية يدفعه للبقاء حيث يشعر شعورا قويا بالانتماء . وقد قال إنه يخشى كثرة الأسفار أو الارتحال إلى الأماكن الشهيرة حتى لا تبدد ذهنه تمام التبديد : « ولو وزنت الأفكار بكيفها لا بكمها لكنت حرياً أن أجد ليلة أرق وتعب أوفر محصولا من أطول الأسفار » .



الفصل الثانى عشر

عندما كان هنرى ثورو يشيد بيتاً — سواء أكان بيتاً مبنياً فى القرية أم كوخا صغيراً فى البرية — كان يخرج من يده قائماً منتصباً قويا . وعندما كان يستخدم المدراة لتحريك قارب أو يجذف فى زورق وسط المياه الثائرة لابد أن يصل بمركبه إلى حيث يريد . وعندما كان يقوم بمسح الأراضى كان يضبط الأبعاد ويمد الخطوط بدقة بالغة . وعندما كان يصنع أقلام الرصاص كان يجيد صنعها . وإذا تعاقد على أداء عمل وفى الجانب الذى يخصه من الصفقة المعقودة ، فهو يوفى بعهوده دائماً . وعندما كان ثورو يكتب جملة — والكتابة كانت عمله الحقيقى — تظل عبارته قائمة كما كتبها .

كان إمرسون يكتب عباراته لتقال ، كما كان وحده مستطيعاً أن يقولها . أما ثورو فكان يكتب عباراته لتقرأ . وكانت تبدو صارمة فى بعض الأحيان

كشمائله التى لا تعرف الهزل ، وتأتى دافئة فى بعض الأحيان كالوهج الذى فى قلبه أو ألوان الغروب التى يحب أن يرقبها . وتزحف عباراته فوق صفحاته بمثل خطوته الحازمة مصلصلة بآرائه ومعتقداته. وبين الحين والحين تبدو رقيقة كأدق إحساساته وإلهاماته ، وفيها أيضاً صوت أسلاك البرق تغنى مع هبوب الريح . وكان قيثاره المصنوع من أسلاك البرق آلتــه الموسيقية الأثيرة ، بل آثر من فلوته الأصفر .

وفى وسعك أن تلعب لعبة التصويب بالسهام مستخدماً بعض عبارات ثورو . وثمة عبارات أخرى إن أسقطتها من يدك تكسرت كصفائح الثلج الرقيقة شظايا رنانة زرقاء اللون من شدة البرودة . فقد كان فى وسع ثورو أن يكتب بأسلوب فيه صفاء مياه بحيرة والدن، أو فيه جفاف هواء الصحراء أو فيه تحطيم الجليد تحت كعب الحذاء ، أو فيه استرخاء بعد ظهر يوم من أيام شهر أغسطس . فهو أستاذ فى التعبير يستطيع أن يصوغ عبارة من ركاز معدنى منصهر ، أو ينسجها من خيوط العنكبوت والندى .

كان ثورو يفكر طويلا تفكيرا شاقا فى الكتابة . وحينما يكتب كان يدرى ماذا هو صانع . ويسخر فى جهده للكتابة حصيلة قراءاته كلها لمنظومات الشعراء وبصيرته التى شحذتهـا الملاحظة المتصلة وحذقه الحرفى كلــه .

وقد قال ثورو فى كتابه « الأسبوع » إن « أشد العبارات جاذبية قد لا تكون أحكمها ، بل أوثقها وأكملها مظهرا ، لأنها قيلت بحزم وإقناع كأنما لقائلها الحق فى أن يعرف ما يقول . . . » وأوصى بدراسة أسلوب السير وولتر رالى ، الذى كتب مؤلفه عن تاريخ العالم وهو سجين فى برج

لندن ، فقد كان يعتبر رالى ذا مكان مرموق بين كثيرين من أساتذة النثر ، « فنى أسلوبه تركيز طبيعى كأنه خطوات إنسان يمشى ، وبين عباراته فسحة للتنفس » .

فهنرى ثورو الذى يخلو كلامه من الزخرف يعتقد أن الناس ينجذبون بما فى الحديث الخالى من الزخرف من جمال بسيط . كان يؤمن بالإخلاص والقوة والخلو من الزخرف فى الكتابة . وخير طريقة لتحصيل هذه المزايا — كما قال — أن يقوم المرء بعمل يدوى يحتاج أيضاً إلى مجهود ذهنى : فالعمل المطرد باليدين بحيث يستوعب الانتباه خير وسيلة ولا جدال لنفى اللغو والعاطفية من الأسلوب فى الحديث والكتابة على السواء » .

وكان قليل الصبر على المستويات المصطنعة التى يصر البعض على استخدامها ، فيرى من الهراء تحريم انتهاء الجملة بحرف جر . فالقواعد — كما قال — وضعها الحمق ليتبعها الحمق . ولذا كان يختم عباراته كما يحلو له . وقال فى مقاله عن « أيام جون براون الأخيرة » : « رجال الأدب والمحررون والنقاد يخالون أنهم يعرفون كيف يكتبون لأنهم درسوا النحو وعلم البيان ، ولكنهم يخطئون فى ذلك خطأ فاحشاً . ففن الانشاء فن بسيط بساطة إطلاق الرصاصة فى بندقية . وروائع هذا الفن تقتضى من ورائها قوة أعظم من ذلك بكثير جدا » .

كان ثورو يعتبر أن ذروة الأدب الفنى وصل إليها الكتاب عندما كانت البداهة السديدة السافرة تتجلى من القراءة الأولى ، والحقيقة الصارمة تتجلى عند القراءة الثانية ، والجمال فيها يتجلى بالقراءة الثالثة . وكان يبغض

الكتابة الضحلة المدعية . فهناك كتب جيدة وأخرى رديئة . والرديئة لا تستحق القراءة . وكان السبب فى أنه يرى معظم الروايات رخيصة ويقول إنه لا يقرؤها إطلاقا ، هو خلوها إلا من القليل جدا من الحيـاة والفكر الواقعى .

فأفضل كاتب فى رأى ثورو هو الشاعر . وأفضل الكتابة ما كان فيها وزن أو شىء من الإيقاع الموسيقى . وكان يقول إن كل إنسان ينبغى أن يكون شاعرا لو استطاع . وثورو مثل إمرسون يستخدم لفظ « الشاعر » بأوسع معانيه للدلالة على الكاتب الذى يتعمق الحياة والعالم ببصيرته النفاذة فيصل إلى أعماق تكشف له عن جمالها الجوهرى ، ثم يعبر عن مشاعره بألفاظ لها جمالها الخاص وموسيقاها الخاصة ، سواء اتخذ ما كتبه صورة الشعر بشكله التقليدى أو بشكله غير التقليدى ، ولكن بدرجة أغنى بعناصر الشاعرية والإيقاع فى قالب نثرى .

وكان يستخدم طريقة بسيطة صارمة فى اختيار أى كتاب ، وهى أن يتساءل : أمن المستطاع أن يطالعه فى الهواء الطلق ؟ فقال فى « الأسبوع » : « وليس تزكية هينة لكتاب ما أن يثبت لامتحان غير مباشر بغير عائق من ضوء الشمس ونور النهار » .

وكان ثورو يعلم أن العبارة التى اكتمل لها عنفوان الصحة على طريقته فى التعبير شىء نادر ، ولكنه لم يحاول أن يكتب أى نوع آخر من العبارات . فجمله فيها قوة وبأس وحسم وخلو من الزخرف على النحو الذى ينشده . ولم تزل هذه الجمل ناضرة نابضة فى الوقت الحاضر على نحو ما كتبها . ونستعير لوصفها ما كتبه ذات مرة فى وصف كتابات الكلاسيكيين :

«تلك عبارات كتبت والعشب ينمو والماء يجرى ». وفى عباراته أيضا عناصر من حضور البديهة ، ومن الحكمة أحيانا ، ومن البصيرة النفاذة والحنان أو الفكاهة الوحشية . وهى عناصر لا يمكن تحديدها لأنها — لا شعوريا — بضعة مصفاة من ثورو . فهى تتصف بالتميز الخاص النابع من طريقته الفردية العميقة فى رؤية الأشياء والتعبير عما تريد التعبير به عنها . وهى صفات يضعها أفضل الكتاب فى أعمالهم لأنهم لا يستطيعون خلاف ذلك. فهكذا يرون ، وهكذا ، يتكلمون ، وهكذا هم ، وهذا ما يجعلهم مختلفين عن غيرهم من الناس وعن سائر الكتاب جميعا .

والعبارات اللافتة للذهن فى كتابة ثورو من القبيل التالى :

* معظم الناس يعيشون حياتهم فى قنوط هادىء .

* التقدم فى السن ليس مؤهلا أفضل — بل هو لا يكاد يضارع — الشباب بالنسبة للمعلم ، إن كان ما فقده بتقدمه فى السن لا يعادل ما كسبه .

* لا يكفى لكى تكون فيلسوفا أن تكون لك أفكار دقيقة بارعة ... بل لا بد أن تحب الحكمة بحيث تعيش وفق مقتضياتها حياة البساطة والنخوة والثقة .

* كل جيل يضحك من الأسالب العتيقة ، ولكنه يتبع الأساليب الجديدة بتدين .

* إنه يبدى بياض عينيه فى يوم السبت ، ويبدى سوادهما فى سائر أيام الأسبوع .

* مخترعاتنا حرية أن تكون لعبا لطيفه تصرف اهتمامنا عن الأمور الجدية .

* الإنسان الذى لا يعتقد أن كل يوم فيه ساعة أكثر بكورا ، وأوفر قداسة ، وأحفل ببشاة الفجر مما قام بتدنيسه حتى الآن فهو قانط من الحياة وماض فى طريق منحدر مظلم .

* الزمن هو الجدول الذى أمضى فيه لصيد السمك وأشرب منه ، ولكنى وأنا أشرب أبصر قاعه الرملى وأتبين مبلغ ضحالته . فتياره الهزيل ينقضى ، أما الأبدية فتبقى . فأنا حرى أن أشرب من ماء أعمق وأن أصيد أسماكى فى السماء التى ترصع النجوم قاعها المترامى .

* يشتهى الناس أن يكونوا صالحين من غير أن يصلحوا لشىء .

* لماذا نصر على أن نعيش حياتنا بكل هذا التعجل وإهدار الحياة ؟ فنحن مصرون على أن نستشعر السغب قبل أن نجوع . ويقول الناس إن غرزة إبرة فى حينها توفر تسعا ، وبذلك يقدمون على ألف غرزة إبرة فى اليوم ، اتقاء لتسع منها غدا .

* هذا مساء لذيذ يتحول فيه الجسد كله إلى إحساس واحد يشيع الحبور فى جميع المسام .

* إذا كان النهار والليل بحيث تستقبلهما بالفرح ؛ وإذا كانت الحياة

تفوح عليك بعبير كعرف الزهر والحشائش العبقة بمزيد من المرونة واللألاء والخلود ، فهذا نجاحك الحق .

* بعض الأدلة العرضية قوى جدا ، كأنما ظفرت بسمكة من سمك اللوت فى اللبن .

* مهما تكن حياتك زرية واجهها وعشها ولا تعرض عنها ولا ترمها بالعسر والشدة فإنها ليست على ما أنت عليه من السوء .

* يجمع الشباب بأدواته ومواده لينشىء قنطرة إلى القمر أو قصرا أو معبدا على الأرض . وفى النهاية يقرر الناس فى أواسط العمر أن يبنوا بهذه المواد عريشة .

* إن لم يستطع إنسان أن يساير بخطواته رفاقه فلعل السبب فى ذلك أنه يصغى لإيقاع قارع طبل مختلف .

وكانت نصيحة ثورو : اكتب كثيراً وفى موضـــوعات كثيرة . الزم الأرض . اكتب جملك وظهرك إلى الحائط . وكان يؤمن بالاقتصاد فى التعبير إيمانه بالاقتصاد فى المعيشة . ومثل وردزورث كتب عن الأمور القريبة والمألوفة وعن الحياة اليومية البسيطة التى تمر بنا فى الغالب من غير أن نلاحظها حتى يتبينها الشاعر . وفى آخر سنة من حياته كتب فى يومياته أن الكاتب الهزيل لابد له مما يظنه موضوعا عظيما ، أما العبقرى فيستطيع أن يستخدم مادة أشد من ذلك تواضعا . وكتب يقول إن شكسبير « يستطيع أن يجعل تاريخ أبروشيته أجدر بالاهتمام من تاريخ العالم يكتبه سواه » فاكتب ما تريد . واكتبه الآن وفكرتك لم تزل قوية والمنظر لم يزل حيا فى ذهنك ولم يكن ثورو يضيع الوقت جالسا هنا وهناك فى انتظار الوحى . بل كانت

صرخته : « اكتب والحرارة لم تزل متقدة فيك . فالكاتب الذى يؤجل تسجيل أفكاره يستخدم حديدا بعد أن برد تماما ليحدث به ثقبا يحتاج إلى حرارة محرقة » .

ليكن لديك ما تقوله ثم قله . وكان هذا فى اعتقاده مصدر متاعب آليرى تشاتنج، ففى أكثر الأحيان كان يلهو بخيالات لطيفة . ولقد تمنى ثورو لو كتب تشاتنج باللاتينية ، لأن ذلك سيجعله يستخدم معرفته بالنحو ويستخدم قاموسه ، ويقول على الدوام شيئا بدلا من « طرطشة » هوائية لا محصل لها ، فلم يكن لدى ثورو صبر على الكتابة الفجة ولا على رفاق فى السير يجهدون بسرعة أو رفاق فى المعسكر يتذمرون من أحمالهم الثقيلة .

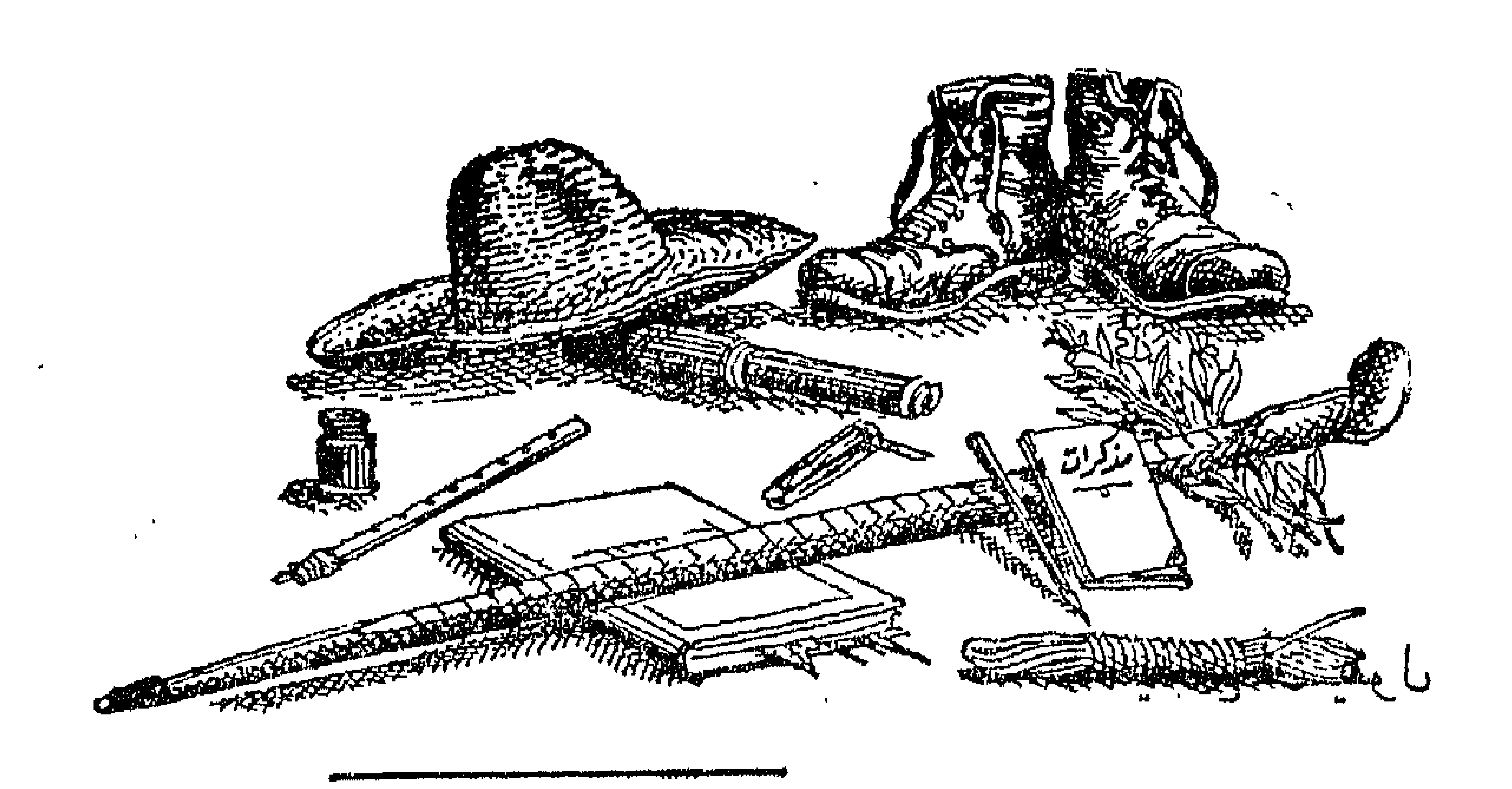
اكتب الآن ، وقل شيئا ، وقله بوضوح . وكان الوضوح مزية ثورو العظيمة اللهم إلا فى جمل عرضية ضبابية يعبر بها عن مشاعر أشد ضبابية . فالوضوح عنده يأتى أولا . وعلى أساس من الوضوح حدد موضع الالتواء والمبالغة والتهكم والفكاهة الجافة لأبناء الشمال والمناقضة الصارخة للمألوف . وقد اعترف إمرسون بهذه المزية لكتابات ثورو عندما قال : إنهما عندما يعبران عن أفكار واحدة يستخدم ثورو الصور الواقعية المحسوسة للتعبير عن المسائل التى يحاول هو شخصيا أن يبلغها إلى الناس فى « تعميمات نائمة » .

وكان ثورو — على خلاف كثيرين من الكتاب — يعرف حرفته ويعرف بالضبط ما يحاول أن يصنع . فعلى خلاف معظم الكتاب كان يعرف أخطاءه الأدبية، وهى على نحو ما تبينها، وكتب قائمة بها فى يومياته يوم ٢ من سبتمبر سنة ١٨٥٤ :

* الإفراط فى استخدام المفارقة ، أى عبارات تناقض بوضوح الرأى المقبول لدى الناس مع أنه معقول .
* البراعة ، أى مجرد إظهار المهارة .
* اللعب بالألفاظ لاستثارة الضحك .
* التقصير فى استخدام كلمات بسيطة قوية واضحة .
* استخدام جمل سائرة على ألسنة الناس حيث كان ينبغى أن يقول ما يريد بألفاظه شخصيا .
* التعقيد فى التزام الجد دائما .
* الإفراط فى استخدام « وا أسفاه » و « بالاختصار » و « فى الواقع » .

وهى قائمة أمينة وافية ، وإن كان القارىء قد يسر لأن ثورو كان فكها أحيانا بدلا من التزام الجد على الدوام ، ولأن ثورو على كثرة ما كتب فى كتبه ومقالاته ويومياته كان موجزا وواضحا بطريقة ممتعة .

أما نقائصه — حتى تلك التى قد يكون فات ثورو ذكرها — فهى سطحية ، فى حين أن مزاياه عميقة . فعبارة ثورو لها مضاء ثورو نفسه .



الفصل الثالث عشر

كيف كانت حقيقة ذلك الشاب الولوع بالمعسكرات الشاعر مساح الأراضى الصانع الماهر مراقب الطبيعة المتحمس ؟ هل كان بارداً لا يمكن الاتصال به على نحو ما كان إمرسون — بل وتشانج — يظنانه أحياناً ؟ كثيرون من رفاقه فى البلدة نظروا إليه نظرتهم إلى متلاف مضياع لحياته يفضل قضاء أيامه على نهر كونكورد أو متجولاً جيئة وذهاباً فى غابات الناس فى الوقت الذى كان ينبغى أن يوسع فيه من دائرة انتشار صناعة أسرته للأقلام الرصاص والجرافيت . ولم يدل بصوته فى الانتخابات قط . ودخل السجن حتى لا يدفع ضريبة الرأس . وهو فى نظرهم قد أخفق أن يكون معلماً فى مدرسة ولم يكن قط محاضراً شعبياً . ولم يحظ إلا بنجاح يسير باعتباره كاتباً . وكان فى نظر البعض لا يفضل إلا قليلا سكان الأكواخ الممتدة على

طول الطريق الحديدي والحطابين والعجائز الهولنديين الذين يصطادون
السمك على امتداد الشواطئ المائية ، وأولئك الذين كان يجذبهم الحديث بنفس
الروح التي يجذبها الحديث الأشخاص المحترمين . وكان إمرسون يعتقد
أنه بالإمعان في الاستمتاع بصحبة الطبيعة والتربية يمضي في الطريق الخاطئة
والجنون [illegible]

ومع أنه كان يتكلم ثورو بلطف وظل صديقه الحميم ورفيقه في المشي
والاطلاع على الجديد والاهتمامات الثقافية إلا أنه شعر بخيبة أمل في الرجل
الذي كان يربيه الشباب [illegible]
[illegible]
لقد كان إمرسون يفهم ويقدر مزايا ثورو ، ولكنه يعرف كذلك
مواطن ضعفه . وفي السيرة التخطيطية التي كتبها باعتزاز وفهم عميق صديقه
أثنى على بداهة ثورو السديدة ، وإخلاصه العميق ، واستيعابه الفوري لأي
مسألة ، وحبه المشغوف للحقيقة ، ولم يكن إمرسون شديد الاعجاب بروافية
ثورو التشككية وانتقاده بصيرة مع ذوي الفهم البطيء وعادته في التصدي لمناقضة
لجميع الآراء التي لا يطيقها ورفضه الصداقة من المعجبين الشبان الذين
اجتذبتهم كتاباته إلى كونكورد [illegible]

لقد كانت في طبيعة ثورو صفة من صفات العسكريين كما يقول إمرسون
فهو [illegible] يفتش عن الأخطاء ليفضحها وعن المغالطات ليشهر بها ، ويبدو
أنه لم يكن يشعر بذاته إلا وهو يعارض . فكان بحاجة إلى دقات الطبول كي
تحفز قواه إلى النشاط الكامل ، فلا بد له من الإحساس بالخطر [illegible] وتمسكي
[illegible] أنه لم يكن يكلفه شيئا أن يقول لا [illegible] بل كان يجد ذلك
أسهل بكثير من [illegible]

ولم تكن هذه حقائق مجردة بالطبع ، وإنما هى آراء إمرسون . بل إنه لم يتمسك على الدوام بهذه الآراء . فلابد أنها كانت أحياناً تعبيرات عن ضيقه بعد حديث ارتفعت حرارته حتى صار نزاعاً لعل ثورو خرج منه منتصراً. وإنها لظاهرة بشرية مسلية أن ثورو — على قلة ما عبر عن ذلك — كان يبدى أحياناً شكواه من إمرسون على نحو ما كان إمرسون يشكو منه .

فذات يوم من سنة ١٨٥٣ تحدث أو كما يقول حاول التحدث مع رالف والدو إمرسون وشعر أنه ضيع فى ذلك وقته لأن إمرسون تعمد الظهور بمظهر المعارض مع عدم وجود خلاف حقيقى فى الرأى فجعل « يتكلم أدراج الرياح ، ويخبرنى بما كنت أعرف » ، وبديهى أن إمرسون خرج منتصراً هذه المرة ، وأن الهزيمة كانت لا تزال تؤلم ثورو عندما جلس يحصى مكاسب اليوم وخسائره فى مكتبه بالطابق العلوى تلك الليلة ، ولعله كان يصغى وهو يكتب لأنغام البيانو التى تعزفها إحدى شقيقتيه .

ولئن كان إمرسون قد شعر أحياناً بخيبة الأمل فى ثورو ، فثورو كان يفزع أحياناً مشدوهاً من كلمات أو أفعال الرجل الذى أثر فيه تأثيراً عميقاً حتى قبل أن يلتقيا . فثورو كان يتوقع من الإله سلوكاً إلهياً، ولم يستطع أن يغفر له ما دون ذلك .

فعندما ذهب إمرسون ولويس أجاسيز وبضعة آخرون إلى أديروندا كس فى سنة ١٨٥٨ تلهوا بتصويب بنادقهم إلى عشرات من الزجاجات الفارغة. وعلى نحو ما خلافاً للمنطق بدا لثورو أن الأمر أسوأ من ذلك بكثير ؛ لأن إمرسون زود نفسه ببندقية مزدوجة فاخرة ، أحد منفذيها مخشخن والآخر أملس لصيد الطيور « وتصوروا إمرسون يصيد الطيطوى المنقط لأجاسيز

ويهشم زجاجة جعة بعد تفريغها فى جوفه ببندقيته على مسافة ثلاثين متراً ! »
واستخرج المتبارون المرحون عدة أرطال من الرصاص من داخل الشجرة التى كانت أهدافهم مستندة إليها ، وشعر ثورو بالاشمئزاز وكان كاتب فى متجر من معارفه قد صنع مثل ذلك عندما كان فى أديروندا كس ، بيد أن ثورو كان ينتظر من إمرسون أكثر مما كان ينتظره من مايك سوندرز .

وكان فى وسع إمرسون أن يغض الطرف عن معظم أخطاء ثورو على نحو ما يغضى المرء من أخطاء أصدقائه بيد أن ظرفاً آخر أحزنه ، ففى رأيه أن ثورو ولد لعظائم الأمور وللقيادة ولكنه لم يوجه قدراته العملية البارزة الوجهة التى تظهر فيها على تمامها . وكتب إمرسون فى يومياته فى يونية سنة ١٨٥١ هذه العبارة التى استخدمها بحروفها تقريباً فى سيرته التخطيطية فيما بعد « ثورو بحاجة إلى قليل من الطموح فى مزيج طبعه ، ولافتقاره إلى عنصر الطموح إذا به ينقلب من مخطط وموجه لأمريكا كلها فيصبح مجرد قائد حملة لجمع التوت البرى المرقش » .

وكان ثورو حرياً أن يدهش لو أنه طالع أو سمع نقد إمرسون . فلم تكن لديه رغبة فى أن يكون مهندساً أو محامياً ومزارعاً أو أستاذاً . بل إنه تعلم من إمرسون طموحاً من نوع مختلف جداً عن ذلك ، ألا وهو الطموح إلى المشاهدة والمعرفة وكتابة ما شاهده وعرفه . فهذا هو الطموح الذى اعترف به ثورو ،وهو الطموح النهم للحياة.

وكان ثورو جموحاً حاد القريحة . وصمته يمكن أن يكون كارثة لمن هم أكثر دبلوماسية منه ، فهو لا يدع للناس موضعاً يمسكون به منه ويستطيع أن يكون فظاً جافى الطبع مع الغرباء .

! » وفى سنة ١٨٦٠ قام شاب طموح جداً من أوهايو سيصبح فيما بعد رئيساً لتحرير مجلة الأتلانتيك الشهرية ، وينال الشهرة باعتباره من أوائل الروائيين الواقعيين فى البلاد ، برحلة للحج إلى الشرق من الولايات المتحدة فى زيارة لأقطاب الأدب الذين كان يعجب بهم ويقدسهم من بعيد . وكان هذا الشاب وليم دين هاولز قد زار إمرسون قبل ذلك فأعطاه بطاقة تقديم إلى ثورو . وفى كتابه « أصدقاء ومعارف فى دنيا الأدب » المنشور سنة ١٩٠٠ أورد هاولز ذكر هزيمته ودهشته الممزوجة بالذعر « ودخل الحجرة رجل قصير غريب الشكل طويل الجذع قصير الأطراف [illegible] الأمر الذى أدى إلى إبراز قدم طراز بنطلونه الذى تركه يهبط إلى أسفل هبوطاً شديداً . وكان وجهه نبيلاً وشعره مدفوعاً إلى الوراء وعيناه شاردتين ولملامحه معقوفة مما ذكرنى بدون كيشوت وسيرافنس ... » ومع أن هاولز حاول الكلام عن كتب ثورو وعن موضوعات كان يعلم اهتمام ثورو بها إلا أن الحديث تعثر ثم فشل نهائياً . وكتب هاولز يقول فى وصف عدم ارتياحه الذى ظل متوقداً بعد مرور سنوات طويلة : « ولم يكن ذلك هزيمة لآمالى فحسب بل كان اندحاراً تاماً لها . فشعرت بنفسى مبعثراً فكرياً بحيث لم أكد أجد السبيل إلى لم شتات قواى للانسحاب »

وكان مكتوباً لهاولز أن يصبح من صفوة الصفوة بين المهذبين الدمثين فى عالم الأدب ، ولعل ثورو كرهه من أول نظرة . وعندما يكون ثورو فى حالة نفسية غير مواتية يصبح شديد التباعد ، وكان يعلن صراحة احتقاره للمجتمع وينادى بأن ما يسميه الناس فضائل اجتماعية وحسن المعاشرة ليس عادة سوى فضائل الخنازير فى الحظائر حيث تلتصق متلاصقة التماساً للدفء ، « وهل قيمة الإنسان فى جلده حتى نحرص على لمسه ؟ » وبهذا [illegible]

ومع ذلك كان ثورو شديد الاعتماد على أصدقائه ، يتعشى معهم ويتمشى معهم ويتكلم معهم ويدعوهم إلى بيت أبيه فى كونكورد وإلى كوخه فى «والدن» أو كوخه الصغير فوق قمة الجبال البيض بل كان يذهب أحيانا إلى الحفلات وإن كان يكتب فى تقريره عنها متشفيا أنه لم يستمتع بحضورها ولعل إعلانه هذا الاحتقار للمجتمعات كان جزءا من لذة ثورو الخاصة وفى بعض الأحيان كان يبدو ضيفا شديد الانطلاق حتى إن أحد من يعرفونه ويحبونه تماما قال إنه كان أشبه بإله الرعاة والحقول الطروب فى إحدى حفلات العشاء .

وكانت عادة ثورو العجيبة المبلبلة للذهن أن يهدم صرح أى هذر قائم بهزة واحدة عنيفة من التفكير البديهى السديد ، ولا يستطيع بعد ذلك آلكوت ولا إمرسون ولا جميع فرسان المقال ومشاته أن يعيدوا بعد ذلك بناء هذا الصرح المنهار من الحديث . أتراهم يتناقشون فى أمر شخص وفى مدى بطولته ؟ عندئذ يبدى ثورو شكه فى اتصاف هذا الرجل بالبطولة إطلاقا . ويقول إن الناس فى الزمن القديم والحديث على السواء لعلهم لم يكترثوا بالاقتتال كما اكترثوا بالطعام . فأذهان الناس كانت مشغولة لا بالغزو والمجد، بل بالخبز والفطائر الحلوة .

أتراهم يناقشون حركات الإصلاح ؟ إن كونكورد ملآنة بالمهيجين ضد الرق ودعاة الاعتدال والمنادين باصلاح نظام التغذية والمجصلين الديفيين ، وثورو لا يثق بهم جميعا . ويعلن أن الله لا يعطف على الحركات الشعبية .

أتراهم يتناقشون فى السياسة ؟ إن ثورو يحتقر الساسة ، وتعليقاته

عليهم يمكن أن تكون مدبرة . وقد كتب فى ٣ من يناير سنة ١٨٥٦ فى تورية فكاهية ، ودقة كدقة الجراحين ، وسخرية رائية مشفقة يقول :

« إن الرجل الذى رفعته الدولة إلى منصب رفيع كمنصب الحاكم مثلا من مركز شريف ، ولكنه اقل احتراما ، لا يستطيع أن يعود إلى عمله السابق ومهنته المتواضعة المربحة لأن عملاءه السابقين سيشعرون بالحياء منه . وهكذا يصبح مركزه الرفيع السابق عقبة جديدة فى سبيله سواء أكان محاميا أم صاحب متجر . ولا يستطيع أن يمحو عن نفسه ما اكتسبه من رفعة فينقلب ضربا من العالة على الدولة يعيش على صدقتها . فإذا بالدولة مضطرة أمام رعاية شرفها أن تكفل له على الدوام مناصب فى نفس المستوى من الاحترام والسمو حتى لا ينحدر إلى الفاقة والعوز . فالرجل الذى كان رئيسا للجمهورية يصبح رئيسا سابقا ولا يستطيع أن يرتحل أو يقيم فى بيته حيثما اتفق ، لأن الناس سيصرون على أداء احترامهم لمكانته السابقة . وإنها لقسوة أن يتذكروا أعماله كل هذا الوقت الطويل ، فلماذا عندما يحين وقت انتهاء رياسته لا يتركون المسكين يمضى لحال سبيله ؟ » .

ولم يكن المرء بحاجة إلى أن يكون سياسيا كى يسيء إلى ثورو إن كان عقد العزم على الشعور بالإساءة ، فلم يكن يكلفه الأمر أكثر من أن يبدو وكأنه بودنج الكسترد . فذات يوم من أيام الشتاء سأله رجل أيظن ذاك الشتاء فى مثل برودة أو دفء الشتاء السابق أو الذى قبله ، ولكن وجهه كما قال ثورو لم يكن ينم على حب استطلاع حقيقى أكثر مما ينم على ذلك بودنج الكسترد . فلم يكن ذلك الرجل يرمى إلى أكثر من تجاذب الحديث ، فرد

عليه ثورو ردا خشناً مقتضبا ثم غادره . وكان فى استطاعته أن يبدو لا منطقيا بطريقة ممتعة فى بعض الأحيان .

وكان قليل الاحترام على كل حال لذكاء سواد الناس ، فغباوتهم كما قال أشبه بالتربة المتحجرة لا تستطيع أن تشقها بالمعول والرفش . وعلق على ذلك فى برود بقوله : « إن الغبى يلازمك على الدوام » فقد كانت لثورو عادة أخرى مقلقة ، ألا وهى أن يكون فى الغالب على صواب .

ويتساءل ثورو : لماذا يتظاهر بغير الحقيقة ؟ إنه يحب ما يحبه ويكره ما يكرهه بوضوح . ويعرب عن ازدرائه عندما يشعر بالازدراء . ولكنه أيضا يعرب عن إعجابه عندما يشعر بالإعجاب . فإذا ما وجد شخصا يعترف بفطنته وأمانته وإخلاصه سواء أكان شاعرا أم صياد جمبرى ، فإنه يقدره ويعلن ذلك . وسواء عنى ثورو ما يقوله فى جميع الأحوال أو لم يعنه فرأيه الصريح فى المرأة سيء . وكان يضيق بوجوب التهذيب فى محادثتها بدلا من الأمانة والصراحة . وذات مرة كلفته امرأة محاضرة أن يحمل لها منديلها عندما صحبها ، فتضمخ جيبه برائحة العطر واحتدم لهذا السبب غضبه . ولكنه إذا التقى بامرأة يعجبه عقلها وطبعها صرح بتحبيذه لها . وكان يستريح إلى الآنسة ميرى مودى إمرسون . ويكثر من زيارتها . وكانت مثله ذات ذهن مستقل وتعبر عن رأيها الخاص بلا مواربة ، ولديها الرغبة فى أن تعرف ما يجرى من الأمور وما يدور بفكر المفكرين . وكانت تصغى له أيضا ، وهذا الإصغاء يسر ثورو . وقد سجل بلهجة جادة ذات مرة ولكن بتلذذ واضح كيف أن الآنسة إمرسون التى تفضل صحبة المثقفين من الرجال على صحبة بنات جنسها قرعت امرأة ثرثارة بقولها :

« اسكتى . أريد أن أسمع ما ينطق به الرجال » . وذات مرة سجل ثورو فى فى يومياته بفرح كيف أنها وهى فى طريقها إلى اجتماع أو محاضرة وفى صحبتها امراة شابة تذمرت قائلة إنها لا تريد فى الحقيقة أن تذهب . . فلما سألتها مرافقتها لماذا تذهب إذن وهذا شعورها ، قرعتها الآنسة إمرسون بردها الحاسم قائلة بحدة : « ليس هذا من شأنك » وهذا مسلك يفهمه ثورو جيداً .

وثمة ثورو آخر يعرفه الفلاحون والعمال الطيبون والأطفال . ففى نزهاته على الأقدام ورحلاته لمسح الأراضى كان يقف دائماً ليحادث الفلاحين ويكلمهم ببساطة عن أمور يعرفها كلاهما : عن الطقس والمحصولات وشئون الريف وكان تشاننج وآلكوت يثرثران عن الأبدية وإمرسون يحلم بهما . أما الفلاحون فكانوا يعيشون إن لم يكن فى الأبدية فعلى الأقل فى سياق متصل من جيل بعد جيل فوق صعيد المزارع المفلوجة بعناية حيث تتعاقب الفصول والفجر الوضاء والظهر المشمس وليل الشتاء الطويل المعهود فى الريف . وكان ثورو يعرف هذا كله ويقدر صديقيه الفلاحين جورج مينوت وإدموند هوسمر ، وفى يومياته تسجيل لأحاديث كثيرة له معهما .

وقال ذات مرة إنه سأل أيرلنديا ما مقدار البطاطس التى يستطيع الحفر عنها فى اليوم ، وغرضه من السؤال حساب محصول الأرض من هذا النوع . فقال له الأيرلندى إنه لا يحصى ما يستخرجه ، فهو ينبش الأرض عن البطاطس « ويترك عمل اليوم يمجد نفسه » وقد أعجب هذا الجواب ثورو . فالأمريكى من أبناء الشمال حرى أن يحصى محصوله بعناية . وكتب بعد ذلك « ولكن أمانة الأيرلندى البسيطة تطيب لى » .

وكان يداخله السرور [illegible] أفخر .
وكان هناك شخص أحمق [illegible] في أعمال المساحة ، فهو الذي
يتفوق على [illegible] في الأدوات [illegible] وكان [illegible]
منها [illegible] لي أن [illegible] هذا [illegible]

وكان ثورو شغف خاص بالمسنين فكثيراً ما ذكرهم . فقرب بداية « الأسبوع » ، كتب بلطف عن رجل مسن ذى سيرة نبيلة جاء إلى كونكورد من نيوكاسل بانجلترا . ففى كل يوم معتدل الجو يشاهد هذا المسن يصيد سمك الفرش الأصفر من نهر كونكورد ، ولعله كان يحلم حينئذ بنهر التاين فى موطنه نورثمبرلند . وكان شيخاً مستقيم البدن صموتاً يختفى بما يصيده ليلا فى بيت منخفض السقف على أطراف القرية . ويعتقد ثورو أن لا أحد سواه شاهده . فما من أحد يتذكره ، ولكن ثورو ذكره .

ورجولة هؤلاء الشيوخ هى التى تبتعث إعجاب ثورو ، وكان ميله إليهم يزداد إذا شاركوه فى أساليبه وأذواقه .

وثورو كان يتهلل للأشكال والألوان والطعوم بل وأسماء التفاح البرى . فإن وجد بضعة منها فى مساء بجلل بالصقيع وهو على بعد أربعة أميال أو خمسة من بيته التقطها وملأ بها جيوبه ، ثم يأخذ وهو سائر فى « أكل تفاحة من هذا الجانب ، ثم تفاحة من الجانب الآخر ، كى أحفظ توازنى » .

وذات يوم فى أواخر شهر أكتوبر التقى ببروكس كلارك وقد قارب الثمانين وصار محدودب الظهر منحنياً يحفظ توازنه حين يمشى متثاقلا فى طريق كارلايل القديم بطريقة أخرى .

فهذا الهرم يمسك فأسه بيده ونعليه باليد الأخرى ! وفى نعليه تفاح كثير العقد وهزار ميت . ووقفا يتجاذبان الحديث والرياح الباردة تهب على قدميه العاريتين من تحت هدب بدلته البالية الممزقة. وأخذ الشيخ الطاعن فى السن يشرح له كيف وجد هذا الهزار مكسور الجناح فقتله . وكتب ثورو يقول عنه : « لقد بدا لى أنه خرج فى ذلك العصر العاصف الهواء مستكشفاً مرتادا ليرى ماذا يمكن أن يعثر عليه ، كما هو شأن أحدث الغلمان سناً . وقد سرنى أن أرى هذا المسن المفراح الذى يقبض على الحياة بيد واهنة ، ويكاد ينحنى نصفين فى مشيته يستمتع بأصيل عمره . . . فهذا الفرح الطفلى بالعثور على شىء فى الغابة أو الحقول يحمله عائدا إلى البيت فى مساء يوم من أيام أكتوبر وكأنه غنيمة تضاف إلى خزينه الشتوى..فثمة زوجة عجوز أيضاً فى البيت تشاركه فى الغنائم وتصغى لما يريه لها عن وكيفية الحصول عليها ما أشبهه بسنجاب عجوز يمشى متثاقلا إلى جحر وفى فمه بندقة » .

وكان ثورو يستريح إلى رجال من هذا القبيل ، ويستريحون إليه . ولكن الحال كانت على خلاف ذلك مع أحد مواطنى كونكورد المهمين وقد استأجره فى أبريل سنة ١٨٥٤ للقيام ببعض أعمال المساحة . فكل منهما لم يشعر بارتياح ، وإن كان ثورو قد أدرك السبب فكان أشد رحمة من المعتاد . قال: «ركبت مع من استخدمنى اثنى عشر ميلا اليوم ولزمت الصمت العميق معظم الطريق معتبرا ذلك المسلك الطبيعى البسيط . وعاملته ببساطة كما لو كان مصاباً بنزلة شعبية، ولا يستطيع الكلام، أو معاملتى لرجل مريض أو مجنون أو معتوه . ولكن العلة لم تكن سوى تصلب لا يمكن التغلب عليه لدى رجل معقول حسن النية»وثورو حين يكون فى صحبة أنداده الأدباء والمثقفين يظهر شيئا من هذا التصلب نفسه ولكن بطريقة مختلفة .

وقد أقام ثورو فى بيت إمرسون مرتين مجموعهما ثلاث سنوات . وقل أن يعرفه أحد — فيما عدا أعضاء أسرته والنزلاء من أصدقائه — كما عرفه أطفال بيت إمرسون . فالدكتور إدوارد والدو إمرسون الذى يقول إنه يتذكر ثورو منذ الوقت المبكر الذى لايستطيع أن يتذكر فيه أحدا عدا والديه وشقيقاته ومربيته قد ترك لنا نبذة عن ثورو تفيض إعزازا . ويقول الدكتور إمرسون إن ثورو كان بالنسبة لأطفال إمرسون « أخا أكبر من أفضل نوع » .

ويتذكر الدكتور إمرسون سحنة ثورو الشابة المرحة وخطوته الخفيفة عندما يدخل حجرة . فمتى دخل أقبل مع أخواته وأمسكوا به عند ركبتيه وجروه إلى المدفأة وطلبوا منه أن يحكى لهم حكاية . وكانت حكاياته أحياناً عن صباه وأحياناً أخرى عن السناجب وفئران السمك والصقور والسلاحف والمعارك بين النمل الأسود والنمل الأحمر وكانت كلها حكايات ساحرة .

وكان ثورو أيضاً ساحر الدار الذى يجعل أقلام الأطفال ومطواتهم تختفى ثم يستخرجها من آذانهم وأنوفهم . ويصنع لهم نايات من الأعشاب وأعواد أوراق الشجر واليقطين والقرع المغربى والصفصاف . ويحضر من العلية مقلاة التدفئة النحاسية الكبيرة ويفرقع فيها تلالا من الذرة ليصنع لهم فشارا على نار المدفأة .

ولما كبر أطفال إمرسون علمهم ثورو كل شىء عن الغابات والحقول وفنون المعسكرات . وفى بعض الأحيـــان كان يبدو جادا بسيطاً وقورا وديعاً . وفى أحيان أخرى كان الرفيق المرح الذى يعزف على الفلوت

أو يغني ... فوق ... الحدائق ... من ... بلا ... وهم يسيرون في
الخلاء جميعا ... يكونون ... في الشهر ... التوت أو ... يكونون
فوق القبر ... الجاف ... بين ... الخلة ... بالغابة
[illegible]
وعندما بلغت إلين إمرسون العاشرة من عمرها، وذهبت لزيارة عمها
ويلز وجته في جزيرة ستاتن، كتب ثورو إليها، وكان يعرف شيئا عن المرء وهو
وحيد بعيد عن بيته. فقال لها إن إدي (إدوارد) حظي أخيرا بحفلة عيد
ميلاده الخامس، وإنه صنع نايات من اليقطين وصفارات من الراوند
الصينيين، وإن إدي احتفل على قصبة جديدة لصيد السمك في عيد ميلاده
وهو يلوح بها الآن فوق البحيرة. وقد أقنعته أمه أن يثبت بخيطها فلينة
بدلا من الشص العمليات للصيد داخل البيت. وأخبرها أنه في شهر
يوليه والحر شديدا وأن الفلاحين والعمال على طول الخط الحديدي اضطروا
لترك العمل بضعة أيام، وفي كل يوم ... أن ... الصغيرة لمن
المدرسة إلى البيت تجري متدحرجة طافرة بمرح إلى الحقول لتلتقط الزبيب النباتي
أو عنب الثعلب [illegible]
[illegible]
... وبعد سنوات كان ثورو في بيت آل إمرسون حوالي الساعة السابعة
من مساء ... في شتاء ... إلى ... الثلج
إدوارد الذي صار في الثامنة عشرة من عمره. ... أهل ...
ليشاهدوا ذلك الكهف وطوله نحو ست أقدام وعرضه قدمان ونصف قدم ... له
الغلام أشبه ... من ... الأرض وقد حمل ... إلى الداخل
... على الجدران ... من خلال ... الكهف ...
... بلون ... الثلج ... في ...

المتأخرون وأدهشهم إدوارد عندما صرخ بأعلى صوته من أقصى نقطة داخل بيته الجليدي فبدا صوته وقد امتصه الثلج وكأنه آت من مسافة نحو ميل ولم يكد يصدق الآخرون أنه زاد بصوته على الهمس وحبوا تباعا إلى كهف إدوارد الجليدي وصرخوا بأعلى أصواتهم فلم يستطع من بالخارج أن يسمعوا إلا نبرات مخنوقة. وأدرك ثورو من ذلك أن الإنسان المقفول في الجليد قد يظل يصرخ في طلب العون ولا يسمعه من يمرون به على مسافة عشرين قدما. ولم تستطع هذه الفكرة أن تعود بهم إلى الهدوء أمدا طويلا فقد راحوا يصرخون ويضحكون مستمتعين بوقت طيب جدا وسط الجليد في ذلك المساء الصافي الهش.

وقبل أن ينفضوا الثلج عن أنفسهم ويتقاطروا إلى داخل البيت الدافئ مرة أخرى حمر الخدود نشطين بدماء العافية دفنوا المصباح المضيء في كهف صغير خاص به، واكتشفوا بسرعة أن نوره يمكن رؤيته من خلال ثلج متراكم سمكه نحو ٤٠ سنتيمترا، ويشع وهجا من حوله. وقال ثورو إن الظلمة لو كانت أحلك لكان من الجائز أن يرى الضوء من خلال ثلج أكثر سمكا. ولم يخبرنا ثورو من الذي كان هناك، ولكن من المستحب أن نتصور إمرسون وليديان وأطفالها وهنري ثورو في هذا المشهد الشتوي البيتي الإنساني الدافئ.

وبعد خمس سنوات أخرى، عقب عيد ميلاد آخر، كان إدوارد إمرسون يتأهب لمغادرة البيت للتقدم لامتحان القبول في هارفارد، واحتفالا بهذه المناسبة دعا والداه عددا ممن كانوا أصدقاءه منذ صباه للعشاء. وكان تشاننج أحدهم.

ولكن أهم ضيف فى نظر إدوارد كان ثورو ؛ فهو الذى فهم ماذا يدور بذهن الفتى . فهذه أول خطوة له فى العالم الخارجى الغريب الذى لم يسبق له الاتصال به . وتذكر ثورو إحساساته بالضياع عند مغامرته الأولى فى هذا العالم. وحينما غادروا مائدة العشاء انتحى بإدوارد جانباً وقاده إلى الباب المواجه للبستان وقال له إنه سيكون فى كمبردج قريباً فى الواقع قربا كافياً من بيته، وإنه بعد هارفارد ربما استطاع أن يقضى بقية عمره فى محيط كونكورد الهادىء . وكان ذلك عملا ينطوى على إعزاز ورقة لم ينسهما قط إدوارد إمرسون الذى قضى عمره فعلا فى كونكورد .

وثمة آخرون يعرفون هذا الجانب من هنرى ثورو أيضاً . فعندما زار دانييل ركتسون فى بدفورد الجديدة لم يتوجه لمجرد زيارة مراسله، بل ساعد الأسرة فى إصلاح زورقها وركبه مع أولاد ركتسون فى خليج بوزارد . ومثل الفأر فى « الرياح وسط أشجار الصفصاف » لم يكن أحب إلى ثورو من « اللهو والعبث ببساطة بين الزوارق » .

ويروى الدكتور إمرسون أن ثورو ذات مرة ذهب مع برونسون وألكوت وجورج وليم كيرتس لزيارة آل ركتسون . وتوجه المضيف مع ضيفيه الآخرين إلى الكوخ الخلوى لحديث جدى . أما ثورو ومسز ركتسون والأطفال فلبثوا فى حجرة الجلوس يقلبون كتاباً عن الطيور . وعندما جلست مسز ركتسون إلى البيانو وأخذت تعزف « آل كمبيل قادمون » ألقى ثورو الكتاب واندفع فى رقص فطرى مفاجىء مرتجل وجعل يقفز فوق العقبات ويتقدم بطريقة ملتوية ويتراجع بظهره فى انحناءات ، ثم يتقدم مرة أخرى بخطوات مهيبة فكان رقصاً جديرا برب

الغابات والأحراش — كما قال أحد الحاضرين — وشبيها بحركات رب الحقول والرعاة وسط الصخور والشجيرات. وفى هذه اللحظة عاد ركتسون وألكوت وكيرتس فظهر عليهم الحرج والذهول إزاء هذا العرض غير اللائق .

وتختلف رواية ركتسون لهذا الحادث اختلافا يسيراً فى التفاصيل ، إذ يقول إن ثورو كان يغنى بصوت صاخب عن توم باولاين المسكين «معبود جماعتنا » وكانت مسز ركتسون بعزفها « هايلاند لادى » هى التى أطلقت ثورو فى نزوته هذه. وهرب ركتسون ولكن ألكوت راقه المنظر فبقى يرقبه. وعندما سمعت صوفيا ثورو بهذا الأمر قالت إنها لا تعجب له . وكانت أسرته قد تعودت أن ترى هنرى يندفع فجأة فى رقصه عندما يعجز أى شىء آخر عن إرضاء نبضة الامتلاء بالحياة فيه ؛ فنى استطاعة ثورو أن يعبر عن ابتهاجه مثلما يستطيع أن يعبر عن ضيقه، وفى كثير من الأحيان كان يبدو جذلان كالجدجد « صرار الليل » .

وثورو كان يحب الموسيقى . فحتى الموسيقى البسيطة التى يعرفها ويسمعها تسكره . وكان زوج شقيقة تشاننج وهو فولر قد أعطى ثورو صندوقا موسيقيا وكان ذلك الصندوق هو الشىء الوحيد الذى بدا مساعدا على تلطيف حزنه الباقى على وفاة شقيقه . وقد كتب إلى مسز لوسى براون يقول : « بعد وفاة جون بوقت قصير استمعت إلى صندوق موسيقى ولئن كان هذا الحادث يمكن أن يبدو فى أى وقت غير متناسب مع جمال واتساق الكون ، فقد غدا فى هذا الحين مرتبطا ارتباطا لطيفا بسياق الطبيعة المطمئن عن طريق تلك النغمات المطردة فى طبقات دمثة غير جارحة يتردد صداها إلى مدى بعيد تحت السماء . . وعن قريب سيذوب كالثلج ويشدو الشحرور على

امتداد النهر الذى كان يتردد عليه شدوا مستطابا كالعهد به . وستبدو الطمأنينة السرمدية بعينها فى ذلك الوجه من وجوه الرب ، وسوف لا نحزن إذا لم يكن ذلك الوجه حزيناً ».

وقد تساءل فى يومياته بتاريخ ١٥ من يناير سنة ١٨٥٧ : «ماذا فى الموسيقى بحيث تحرك بهذه الصورة أعماق الرجل أو المرأة ؟ ترى فى نظر كم من الناس — ولعلهم الأكثرية — تبدو الحياة وكأنها لا تحتمل إلا بمشقة، فلولا خوف الموت كم من أعدادكم العديدة حرية أن تنتحر على الفور ولكن! ولكن متى سمعنا فاصلا موسيقيا أدركنا على الفور أن ثمة حياة لم يحدثنا بأمرها أحد ، ولا يبشر بوجودها مبشر أو واعظ . ولنفرض أنى أحاول وصف الصورة التى تجلوها أمامى مقطوعة موسيقية وصفا أمينا ، فعندئذ أقول أن حقل حياتى يتحول إلى سهل لا حدود له يقطعه المرء فى مجد وفخار وليس فى نهايته ظل للموت أو خيبة الآمال . وجميع أنواع الحقارات والتفاهات تتلاشى منه . . فإذا بنا وقد سمونا بالفعل فوق أنفسنا » . فالموسيقى قادرة على أن تجعل ثورو يذرف الدمع .

إن الصوت والحركة يستثيران وجدان ثورو لأنه يعيش بحواسه حياة ناصعة مرهفة ، فتجلب له حواسه الفرح . فهو حين ينزلق على الجليد يشعر كأنه يطير . وذات مرة كان ينزلق على الجليد فى اتجاه الريح شاعرا بارتفاع الثلج وهبوطه من تحته لأن الماء كان قد تصلب فتكون الثلج فى ليلة واحدة باردة حلت فجأة حتى ألفى نفسه بغير مجهود تقريبا على مسافة ثلاثة أميال ونصف ميل من البيت فى مدى ربع ساعة. فكانت السرعة تبهج روحه. وقال فى وصفها إنها تجعل الإنسان يشعر بأنه مخلوق جديد ، لعله الغزال .



كان "ثورو" حليقاً في سنوات والدن، ولكنه أطلق لحيته في أواخر حياته.

فلم تكن طبيعة ثورو مطلقا من البرود كما تصورها إمرسون وكما كان يحب فى كثير من الأحيان أن يتظاهر . فذات مرة أبصر فى يوم من أيام الشتاء غلاما صغيراً يرتدى قلنسوة ففرح وتهلل . وذلك أن الأطفال كانوا يبتحثون فى هنرى ثورو إنسانية دافئة لا يدع الآخرين يرونها على الدوام. وكان فى وسعه أن يبدى حرارة حبه وصداقته فى كتاباته ، ولكنه وجد من العسير عليه أن يعبر عن مشاعره العميقة علانية . ومن عادته غالبا أن يسجل فرحه فى يومياته فحسب . وقد كتب ما يأتى فى ٢٨ من فبراير سنة ١٨٦٠ :

مررت بغلام صغير جداً فى الشارع اليوم وعليه قلنسوة صنعت بالمنزل من جلد فأر الجبل الذى صاده أبوه أو أخوه الأكبر وقدده وقامت أمه أو أخته الكبرى بتفصيله قلنسوة لطيفة دافئة . . وكانت القلنسوة واسعة مستديرة كبيرة يمكن أن تصلح مثلا لوالد الغلام ، ولها حافة أمامية خيطت فيها من القماش وقمة القلنسوة من الجلى أنها تمثل ظهر فأر الجبل لأنها ممتدة فى العرض منكمشة فى الطول . وتبدو ناضرة بديعة كما لو كان فأر الجبل نفسه يرتديها. والصغير يلبسها ببراءة غير عالم بحقيقة ما يرتديه ، منطلقا لشأنه بخطوات قصيرة متقاربة . ولقد لمعت عيناه السوداوان من تحت القلنسوة عندما علقت على دفئها ، فكان بريق عينيه شبيها تماما ببريق عينى فأر الجبل .

ففرحة ثورو بالغلام الصغير جداً وقلنسوته تشع من كلماته . وكان قمينا أن يحتضن الطفل ويهدهده .

وفى يوم اخر من أيام الشتاء أبصر غلاما صغيراً آخر ، فكتب ما يأتى بتاريخ ٢٨ من يناير سنة ١٨٥٢ :

«أرونى اليوم جونى ريوردن وفوق قميصه الصغير طبقة واحدة من قماش مهلهل هى كل ما يقيه هذا الجو البارد ، وفى قدميه حذاء به ثقبان فى موضع الأصابع دخل منهما الجليد كما قال لى ، وليس عليه دثار . وهكذا راح يمشى كل يوم مسافة ميل إلى المدرسة فى أشد الطرق المرتفعة تعرضا للرياح الباردة . وعرفت فى ثيابه ذات الرقع التى لاتحصى بنطلونا سابقا من بنطلوناتى يبدو أن أمه كانت قد أصلحت من شأنه لكسوة غلاية الشاى بادىء الأمر . فيا لهـــذا المخلوق البشرى الصغير الذى صار مضغة طرية للمقادير وألقى به إلى العالم البارد غير متدثر إلا بورقة ممزقة من أوراق الطحلب . وإنى لأوثر أن أسمع بأن أبناء أمريكا البكر قد قتلوا جميعا على أن تشعر أصابع يديه وقدميه الصغيرة بالبرد وأنا مستمتع بالدفء » .

فهل ترى يحسب إمرسون — الذى لم يستطع أن يقرأ يوميات ثورو إلا بعد موته — أن هذا الرجل بارد العواطف ؟

وسبيل الدنيا طبعا أن نتحدث بنعومة وعذوبة إلى من يملكون السلطة ، وإلى من نأمل أن يصنعوا شيئا لتحقيق مطامحنا ورغباتنا . ومن المأمون أن نتحدث بخشونة إلى من تحت سلطاتنا أو من نعتبرهم دوننا لأنهم لايستطيعون الرد علينا وهم آمنون ، وبذلك يحق عليهم ما يصيبهم منا .

وفى هذا المجال — كما فى مجالات أخرى كثيرة من الحياة — قلب ثورو الوضع المألوف، فكان حاد الطبع مع من يعتبرون أنفسهم أعلى منه ،

أو كان يتجاهلهم تماماً . وكان شائكا جافاً مع أنداده فى الثقافة فنى مقدورهم أن يدافعوا عن أنفسهم فى المناقشة والمناظرة . وكان بسيطاً غير متكلف مع الفلاحين والحطابين الذين يعجب بهم ، وكان لطيفاً عذباً مع الأطفال ، ولم يجشم ثورو نفسه إطلاقاً إخفاء كراهيته للتصنع واستنكاره للجور أو الغطرسة. ولم يكن فى مقدوره أن يخفى إعزازه للصغار من البشر .

ولكن ثمة أشياء كان يخفيها . فنى حياته جوانب كثيراً ما قال إنه لا أحد يمكن أن يتحدث عنها . وهذا الكتاب يستمد عنوانه من فقرة جميلة فى كتابه والدن . والرجال والنساء يستجيبون لسطوره لأنها تقول بالشعر ما أحسوا به حول أنفسهم وحياتهم . وهم يحبون هذا الكتاب لما فى الكلمات من موسيقى ولما فى الفكر من تلوين وعطر ، وعلى حد تعبير ثورو ، ولومضات المعنى المراوغ الذى لا يمكن تقريره منطقياً ولم يستطع ثورو أن يقتنصه إلا بطريق المجاز . وفى تلك الفقرة يقول : « منذ أمد طويل ضاع منى كلب صيد وجواد كميت ويمامة قمرية ، ولم أزل إلى اليوم فى أثرها » .

وقد حيرت هذه الفقرة الكثيرين . وشعر إمرسون أنها تغلف بغلالة شعرية تجربة لا يريد ثورو أن يتكلم عنها ، ولذلك كان يسمى هذه الفقرة « التسجيل الصوفى لخيبة آماله » ويخمن مارك فان دورين فى كتابه «هنرى دافيد ثورو دراسة نقدية » أن هذه الفقرة تعبر عن سخط ثورو على إحدى العلاقات البشرية . وبعض الشراح ذوو العقلية الحرفية يقولون إن هذه المخلوقات الرمزية إنما هى فى الواقع جون ثورو وادموند وإلين سيدول . ولعل فرانكلين سانبورن كان أقرب الجميع عندما أول عبارة ثورو على أنها

رموز إلى العصر الذهبي ، وهو ذلك العصر الأسطورى الذى كان فيه العالم شاباً وكل شيء فيه كان جميلا عادلا .

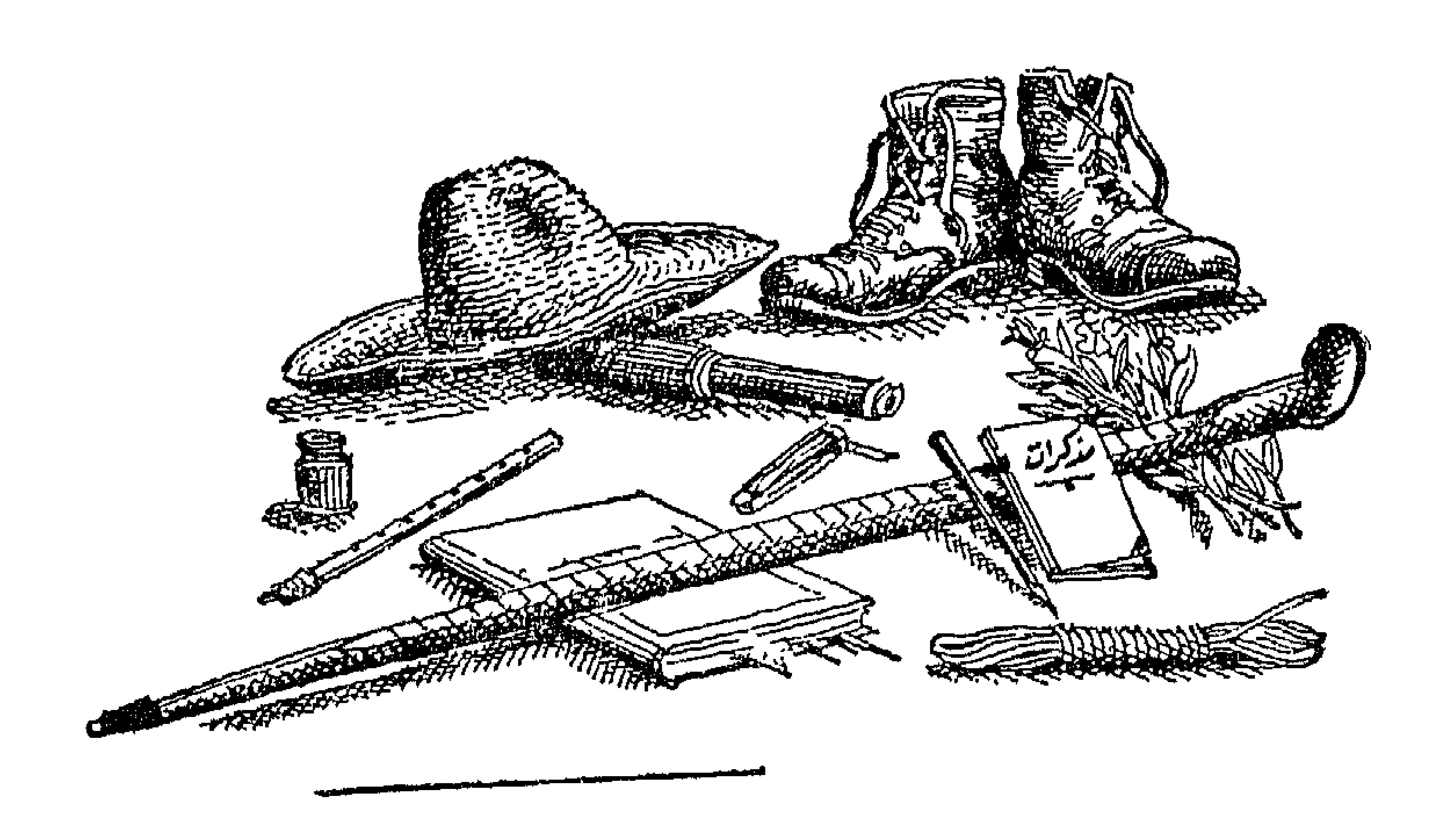
وعندما كتب ثورو هذه الكلمات فى والدن لم تكن عن تجربة شخصية فقط ،بل عن تجربة كونية أيضاً . وكثيرون من الرجال والنساء يشعرون مثل ثورو أنهم يستطيعون تذكر الفرح والسرور اللذين رأوهما يطيران على نحو ما فى وقت ما بصورة ما ، ثم ضاعا ، فهم يحاولون استرداد الجمال والفرح اللذين يروغان منهم دائما ، ويتحرقون إلى وضع أيديهم مرة أخرى على السعادة الجياشة — التى تكاد تكون مؤلمة — والتى لا يستطيعون التأكد من أنهم عرفوها بيد أنهم يشعرون أنهم فقدوها على نحو ما ويرغبون فى العثور عليها من جديد ، فيقضون جانباً عميقاً خفيا من حياتهم فى البحث عنها. والعقلاء منهم يعلمون أن هذا البحث نفسه يكاد يضاهى فى حسنه الكنز الذى قد لا يعثرون عليه مطلقاً . وفى هذه العاطفة عنصر من التصوف الدينى . ويتكرر هذا الموضوع مراراً كثيرة فى شعر وردزورث وتنيسون وت . س . إليوت .

وكان ثورو مدركا على الدوام لهذا الفقد، مشغولا على الدوام بهذا البحث وكثيراً ما يندب فى يومياته نشوات عرفها يوماً ما، ولا يستطيع استردادها

ومثل غيره من الناس حاول أن يحدد عواطفه من حيث الزمن بدقة متناهية ، وامتزجت بأشواقه نغمة الحنين . وفى ١٦ من يولية سنة ١٨٥١ كتب يقول : « فى شبابى قبل أن أفقد شيئاً من حواسى أستطيع أن أتذكر كيف كنت حياً بأكملى ، وكيف كنت أسكن بدنى باكتفاء لا يمكن

التعبير عنه ، فنشاطه وإعياؤه كلاهما كانا محببين إلى نفسي ، وهذه الأرض كانت أعظم آلة موسيقية ، وكنت المستمع لألحانها . وظللت سنوات أسير وكأني أخطو على إيقاع موسيقى تعتبر موسيقى الطرقات العسكرية بالقياس إليها ضجيجاً ونشازاً » .

وثورو كان يعلم تمام العلم أنه لم يكن الوحيد فى ذلك الشعور ، وأن رجالا ونساء آخرين يحسون فى ألم مثل إحساسه بذلك الفقدان ، ويصرون كإصرار على ذلك البحث : «وكم من رحالة حدثته عنها ، فوصفت له مسالكها وسبلها ، والنداء الذى تستجيب لدعوته ولقد لقيت شخصاً أو شخصين سمعا صوت كلب الصيد ووقع حوافر الجواد ، بل وأبصرا اليمامة تختفى خلف سحابة وأبديا من اللهفة على استعادة هذه الثلاثة وكأنهما هما اللذان فقداها » .



الفصل الرابع عشر

حدث إشكال بين ثورو والحكومة بصفة علنية مرة واحدة فقط فى سنة ١٨٤٦ عندما فضل دخول السجن على دفع الضرائب المستحقة عليه لمنظمة لا يقر مبادئها وأعمالها . وقد أوضح أسبابه وحدد مبادئه فى رسالة عن « العصيان المدنى » . وأعاد ثورو عرض فلسفة حياته وقدم الأسباب الداعية إلى أن يحيا كما عاش وبصورة أقوى فى رسالته « الحياة بدون مبادىء » . وقد ألقاها فى بادىء الأمر على صورة محاضرة فى نانتوكت ، وفى بدفورد الجديدة فى سنة ١٨٥٤ .

وفى « الحياة بدون مبادىء » سخر ثورو من العمل ، أو الأشغال ، وهو ذلك النشاط المبالغ فيه الذى يملأ به الناس أيامهم . فكل عمل كان يراه نشاطا

لا جدوى منه ولا يؤدى إلى شيء، فهو نوع من التكاسل ، أو قتل الوقت : « فأنا أعتقد أنه لا شيء — حتى ولا الجريمة — يمكن أن يكون نقيض الشعر والفلسفة ، بل ونقيض الحياة نفسها ، أكثر من هذا العمل الذى لا ينقطع » ، فالعمل لا يغل ولا حتى الفائدة المالية التى يأمل فيها الناس . وتسعة وتسعون فى المائة من التجار يخفقون . وأسوأ من هذا أن الناس يعملون فى سبيل ما يمكنهم الحصول عليه فقط ، ولا يعملون سعياً وراء إتقان شيء ما . وهكذا جعل الناس وسيلة الحياة الطيبة غاية للحياة ، وصار هدفهم العمل لمجرد العمل . « فنحن مد فوعون بقوة قاهرة من الولاء العاتى للحرفة والتجارة والصناعة والزراعة » والناس عبيد أرقاء لسعيهم المتعصب وراء العمل . وثورو يكره الرق بجميع أنواعه .

وفى معظم الأوقات كان ثورو يترك السياسة والساسة لشأنهم ويأمل أن يتركوه لشأنه . وكان يقول إنه يجد السياسة اشد سطحية وأشد مجافاة للإنسانية من أن يعنى نفسه بها ؛ فكان قانعا بتجاهل الحكومة ما تجاهلته الحكومة . ولكن الأحداث الطارئة، ورجلا واحداً، ومبدأ واحداً ، تكفلت بتغيير رأيه فعاد ثورو مرة أخرى إلى الخصومة العلنية مع الدولة، مع رأى سواد الناس . وفى هذه المرة لم تكن الدولة هى التى قامت بالهجوم ، بل كان ثورو هو الذى اندفع متصديا للمعركة ، وقد استثير حتى الأعماق ، وقد اشتعل رأسه حماسة وغضبا . ففى مارس سنة ١٨٥٧ قام فرانكلين سانبورن الذى كان نصيرا ناشطا لإلغاء الرق — بتقديم زائر إلى ثورو الذى تولى تقديمه بدوره إلى إمرسون . وكان هذا الزائر جون براون من أوساواتومى بولاية كنساس .

وقد ولد جون براون فى كونيكتيكت من أسرة عريقة بين أسر انجلترا

الجديدة ونشأ بعد ذلك فىأوهايو . وساعد أباه وهو غلام فى قيادة قطعان البقر وتوريدها للجيش إبان حرب سنة ١٨١٢ . واشتغل براون بعد ذلك صباغا فى أوهايو، وفى بنسلفانيا ، حيث ربى الأغنام أيضا ، وعمل تاجراً وسمساراً بسيطا فى تجارة الصوف باسبرنجفيلد بولاية ماساشوستس ، ومساحاً للأراضى فى كثير من الأماكن ،وتزوج وصار أبا لعشرين طفلا ، ونصيرا متوقد الحماسة لإلغاء الرق ، ومن العاملين فى إنشاء الطريق الحديدى تحت الأرض. وفى سنة ١٨٥٥ هاجر خمسةمن أولاده إلى كنساس للاشتراك فى القتال الدائر لكسبها بين صفوف الأراضى الحرة ، وكتبوا إليه يطلبون منه العون . وسافر جون براون باعتباره مساحاً للأراضى فانضم إليهم فى كنساس ومعه حمولة عربة كبيرة من الأسلحة والذخائر .

ولما كان براون يعتقد أنه مكلف من قبل السماء بتحرير العبيد فقد غدا قائداً لكتيبة من المليشيا وحارب مع أبنائهأوغاد حدود كنساس، وفى إحدى الغارات انتقموا انتقاما دمويا من هجمات هؤلاءالأوغاد وقتلوا عمدا خمسة من النخاسين . وقتل أحد أبناء براون فى مناوشة أخرى . واتجه براون شرقا فى التماس المساعدة المالية ثم عاد إلى كنساس وكون جيشه الصغير الخاص وصار يعتبر ثوريا خطرا ، وأعلنت ولايةميسورى وحكومةالولايات المتحدة كلتاهما عن مكافأة لمن يقبض عليه . فاختفى براون ورجاله فى الغابات والمخاضات . ولما كانوا أخطر من أن يقضى عليهم فقد حماهم العاطفون عليهم من القوات الحكومية التى تريد القبض عليهم. وأخذ براون يدبر مشروعات أكبر لتحرير العبيد ، فاتجه مرة أخرى شرقا لاستشارة رفاقه أنصار إلغاء الرق وليحاول الحصول على الأموال ، وتحدث إلى جمهور من أهالى كونكورد فى قاعة البلدية سنة ١٨٥٩ .

وفى أوائل ذلك الصيف استأجر براون مزرعة على مسافة خمسة أميال تقريبا من هاربرز فرى بفرجينيا الغربية واستخدمها قاعدة لعملياته . وفى ليلة ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٥٩ استولى جون براون ومعه واحد وعشرون من رجاله على مخزن أسلحة الولايات المتحدة فى هاربرز فرى وزاد عدد قواته بانضمام بضعة من العبيد ، وأسر عدداً من أهل تلك البلدة . وفى صباح اليوم التالى قطع عليه رجال المليشيا من تشارلز تاون خط الرجعة . وفى الليل وصل إلى هاربرز فرى الكولونيل روبرت لى على رأس قوة جنود بحرية الولايات المتحدة ، ورفض براون التسليم . فشن روبرت لى وجنود البحرية الهجوم فى فجر ١٨ من أكتوبر . وأسر أو جرح جروحا قاتلة سبعة من رجال براون بينهم اثنان من أولاده . وجرح براون شخصيا ، وظل يقاتل إلى جانب ابن ثالث له يجود بأنفاسه . وقبض على براون وأربعة من رجاله وسجن فى تشارلز تاون ووجهت إليه تهمة الخيانة ، وحوكم وصدر عليه الحكم بالإعدام شنقا

وطنطنت الصحف بأنباء الغارة والقبض على جون براون ، معلنة أن براون متعصب ، وابن امرأة مخبولة ، وزوج امرأة ماتت مخبولة ، وأنه شخصيا مخبول . وقد أثبتت فعلته ذلك . أما جون براون فسلك مسلكا وتمسك بالصدق والأمانة فى جميع أقواله أثناء المحاكمة . بيد أن اعتقاده المتكرر بأنه مكلف تكليفا سماويا لتحرير العبيد اتخذ دليلا جديدا على خباله . وأجمع المعتدلون من أهل الشمال والنخاسون وأصحاب الرقيق من أهل الجنوب على المطالبة بدمه . وذهل هنرى ثورو لذلك الموقف وأعلن ان ما ارتكبه جون براون إن كان خيانة فهو فى صف الخيانة . وإن كان خبالا فهو فى

صف الخبال ، فهذا إنسان نظيف قد تصدى لمجتمع قذر ، وتصدى لغباوة الدولة ورخاوتها ، فكان بطلا صنع صنيع البطل . ولكن الحكومة لم تجد ما تصنعه به سوى أن تشنقه

ومرة أخرى أصر ثورو مخالفاً نصح أصدقائه، وعلى الرغم من المعارضة القوية فى بلدته، على أن يقول ما يعتقد أنه الحق كل الحق ، وطلب أن يسمع رأيه . ففى الوقت الذى لاذ بالصمت أنصار آخرون لتحرير الرقيق وقد أفزعهم عمل براون المتهور ورد إليهم صوابهم ما تمخض عنه هذا العمل ، نرى ثورو وقد حفزه ذلك كله للإقدام على العمل ، وفى قاعة الصلاة بكنيسة الأبروشية القديمة فى كونكورد وقف ثورو ، ونبضه يدق دقاً عنيفاً ، ويداه مضمومة قبضتاهما ، وتكلم مدافعاً عن براون فى تحد . وفى رسالته هذه « دفاع عن الكابتن جون براون » شبه ثورو ذلك المحكوم عليه بالموت بفلاحى انجلترا الجديدة الذين وقفوا ضد الجنود الإنجليز النظاميين فى لكسنجتون وقنطرة كونكورد . وقال إن براون متطهر من طراز كروميل ذو خلال إسبرطية صريح مستقيم فى كلامه وأفعاله . فهو رجل مبدأ، ثم هو أيضاً كما اعترف أعداؤه أنفسهم من أشجع الرجال الذين رأوهم فى حياتهم ، فهذا الرجل الذى كان مساح أراض مثل ثورو لم يتآمر طمعاً فى الكسب بل قاتل فى سبيل ما يعلم أنه صواب ، وقد قاتل قتال رجل حر مستقل « فكان يروح ويغدو ، كما قال لنا تحت ألوية جون براون دون سواه » .

فهذا إذن نوع الفكر والعمل الذى يفهمه ثورو، ويفهم صدوره عن النوع

الأثير لديه من الرجال ، « فهو لم يقم وزناً لحياته البدنية بالقياس إلى الأمور المثالية ، ولم يعترف بالقوانين البشرية الجائرة ، بل قاومها كما أمر . وبذلك ارتفع عن تفاهات وتراب السياسة إلى مستوى الحقيقة والرجولة . وإنى لسعيد أن أحيا فى هذا العصر وأن أكون من معاصريه » .

لقد ألقى ثورو بالاعتدال أدراج الرياح . ولم يكن للاعتدال نفع كبير لديه ، فهو لا يتلطف فى انتقاء ألفاظه ، بل يرى أن الشمال المتساهل يعادل فى سوئه جنوب النخاسين وملاك الرقيـــق وبوداعة كان أهل انجلترا الجديدة يطيعون القانون فيقبضون على العبيد الفارين ويعيدونهم إلى أغلال العبودية . وكانوا يصيحون : « فلنحرر العبيد » . ثم يقومون بدور يتسم بالجبن والخور . والولايات المتحدة تبقى أربعة ملايين من الرجال والنساء فى الأغلال (وولاية ماساشوستس من الولايات التى تعاهدت على إحكام الحيلولة دون فرارهم من العبودية) . وقال ثورو لمواطنيه من أهالى كونكورد إنه غير راغب فى أن يقتل أو يقتل ، ولكنه تنبأ مقدماً بالظروف التى يصبح هذان الأمران فيها لا محيص عنهما وازدادت جرأة ثورو وعنفه كلما أمعن فى كلامه :

« إننا نتكلم عن الحكومة النيابية ، ولكن أى حكومة ممسوخة هذه التى لا تمثل فيها أنبل ملكات العقل وسائر ملكات القلب ... إن الحكومة الوحيدة التى أعترف بها ولا يعنينى أن يكون على رأسها أقل عدد ولا أن يكون جيشها صغيراً ، هى السلطة التى تقيم العدالة على الأرض ، لا تلك التى تقيم الجور » .

فليس جون براون الخائن الحقيقى ، بل الحكومة وجميع من يساندون الرق

وجميع من يتسترون على الرق عن طريق تواطؤهم على الصمت هم الخونة والطغاة ، « ومنذ نحو ثمانية عشر قرناً صلب المسيح ، وهذا الصباح شنق الكابتن براون . وهذان طرفا سلسلة وفيما بينهما حلقات كثيرة » .

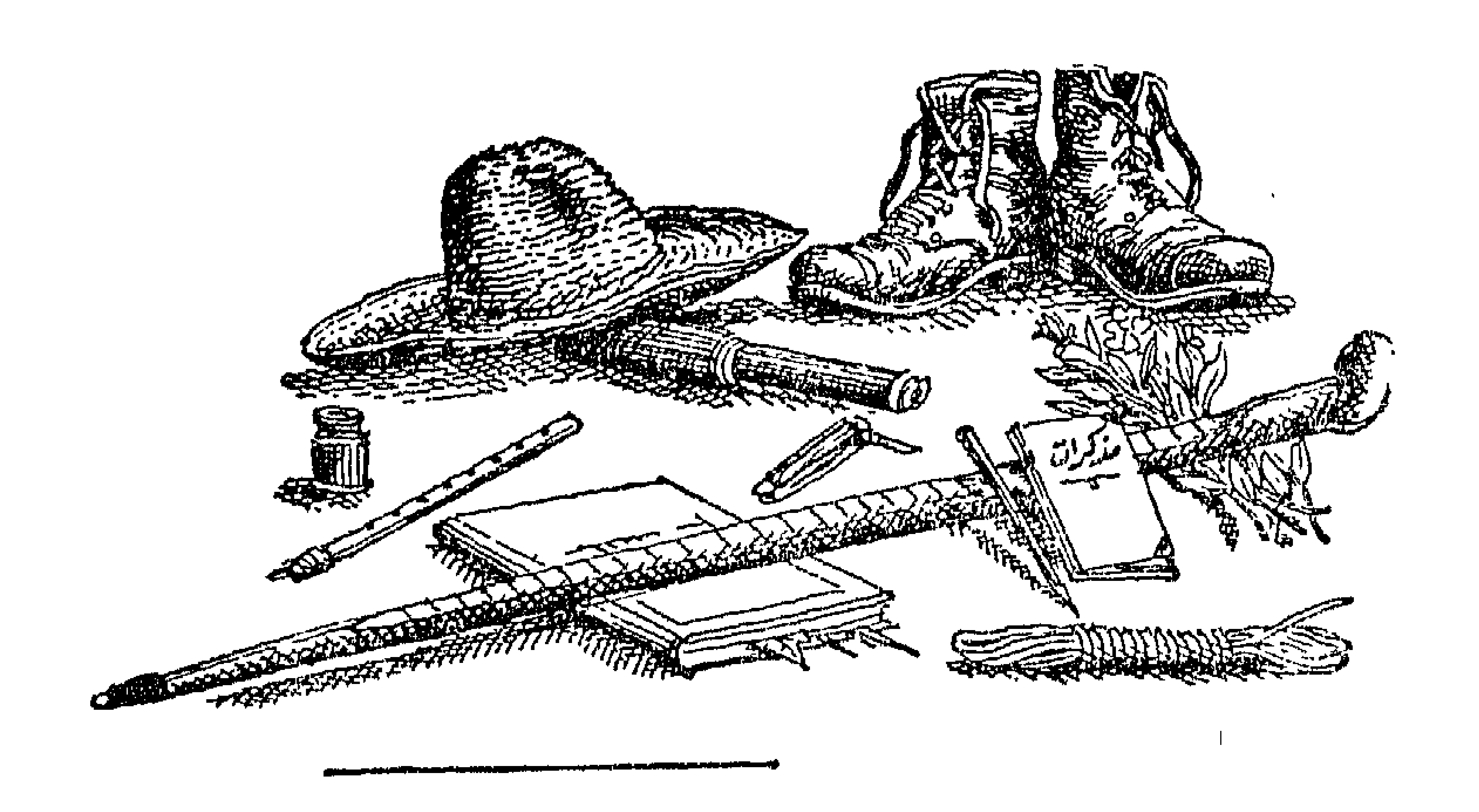
وما إن أفضى بما فى خاطره إلى أهالى كونكورد حتى كتب إلى هاريسون بليك يعرض عليه أن يعيد تلاوة رسالته : « حقيقة الكابتن براون الموجود الآن بين براثن النخاسين » فى ووِرسستر . ولم يطلب على ذلك أجراً ، بل طلب نفقاته فحسب وأعاد تلاوة كلماته النارية فى وورسستر . وبعد ذلك ألقى احتجاجه أمام جمهور أضخم بكثير فى مدينة بوسطن

وتناول ثورو وركتسون العشاء مع الكوت بعد عودة ثورو من وورسستر وبوسطن . وكرر ثورو ثناءه على براون وعلى شجاعته ونخوته الأريحية. وبعبارة أعنف من عبارته فوق المنبر ندد بحكومة الولايات المتحدة وبرئيس الجمهورية وبولاية فرجينيا بسبب الحكم الصادر بإعدام براون . وأدرك آلكوت بقدرته على التمييز الفطن أن ثمة خلالا مشتركة بين ثورو وبراون . فكانت « الرجولة القوية والصراحة المستقيمة والاستقلال هى المزايا المشتركة بينهما » كما أثبت ذلك فى خطاب له بل إن الجانب المشترك بين ثورو وبراون يتجاوز التشابه فى مظاهر خلق كل منهما ؛ ذلك أن براون أطاع تعاليم ثورو فى العصيان المدنى . ونفذ فى مجال أكبر ما قام به ثورو فى مجال مصغر قبل ذلك باثنتى عشرة سنة حين تحدى الحكومة التى تبقى أربعة ملايين إنسان فى أسر الرق . واستخدم براوان لحق الأدبى فى الخروج على القوانين الجائرة . وأقدم مدفوعاً بمبدئه ، مستهيناً بحياته

الشخصية ، على تنفيذ ما اعتبره ثورو الحق المقدس للفرد فى العمل بمقتضى أسمى مثله العليا .

ونشرت الصحف أخبار خطب ثورو على مدى واسع . ولكنه كان يريد أن يغرس كلماته فى الضمير العام عن طريق أوسع تداول مستطاع . على أنه لم يتيسر ظهور كلماته فى صورة كتاب مطبوع إلا عندما قام ناشر جديد فى بوسطن بطبعها مع خطبتين لإمرسون تحبيذاً لجون براون فى مجلد واحد بعنوان « أصداء هاربرزفرى » .

ونفذ الحكم فى جون براون فى ٢ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ . وكتب ثورو « أيام جون براون الأخيرة » وأرسلها إلى إلبا الشمالية بنيويورك كى تتلى على قبر براون فى أديروندا كس حيث أقام أصدقاؤه احتفالا تذكاريا . وأشار ثورو إلى إرسال هذه المقالة فى خطاب منه إلى صوفيا التى كانت تقضى عطلة فى الجبال البيض . وقد كتب الخطاب بالرغم من التواء فى إبهامه ، بل وبالرغم مما كان يخشى أن يكون التواء فى مخه . وحثها على أن ترى بحيرة سكوام أثناء وجودها فى هامشاير الجديدة،وقال إن أمهما وعمتهما ذهبتا إلى أكتون ، وإنه رأى هاوثورن الذى عاد إلى البلدة وقد اسمر وجهه من رحلته إلى المحيط ،إلا أنه لم يزل بسيطاً شبيهاً بالأطفال كالعهد به.وقال فى خطابه هذا لشقيقته إنه يخشى أن يكون قد أفزع الهريرات الصغيرة ففرت بسبب ما اصطنعه من الضراوة .



الفصل الخامس عشر

إن ثورو يتقدم بكتابته تقدما حثيثا . فقد أعد الآن خطة كتاب عن الهنود الحمر الذين فتنوه منذ صباه . ولديه مذكرات وملاحظات ضخمة ومجموعة من التذكارات الأثرية الهندية . ولديه تجاربه المباشرة مع الهنود الحمر الذين راقبهم عن كثب فى مين .

ومن هذا كله يستطيع أن يصنع أساس كتابه .

ووضع خطة كتاب آخر عن تاريخ كونكورد الطبيعى يتحدث فيه عن قصة صخورها وأشجارها وشجيراتها القصيرة الكثيفة وأزهارها . وعن الأرض نفسها ، فقد لبث حياته كلها يلاحظ هذه الأشياء ويسجل ملاحظاته عنها ولا يستطيع سواه أن يكتب مثل كتاب يؤلفه ثورو عن بلدته الأصلية التى عاش فيها على اختلاف أحوالها وأحواله .

ولكن عمله الأكبر سيكون يومياته ، فيومياته التي تقع في نحو ثلاثين مجلدا بخط اليد هي السجل الكامل لأفكاره ، وهي كتابه الحقيقي الذي عاشه وقد انتهى إلى الإيقان بأن من الأفضل له أن يجعل منه كلا واحدا ويقدمه للعالم على هذا النحو ، فهذا خير من سلبه وانتهابه في محاضرات ومقالات متفرقة . وفي ٢٧ من يناير سنة ١٨٥٢ كتب يقول :

« لا أرى إلا أن تطبع الأفكار المدونة في يومياتي بصورتها التي هي عليها ، فهذا أفضل وأجدى من تنسيق هذه الأفكار لإنشاء مقالات متفرقة منها . فهي على حالتها هذه مرتبطة بالحياة ولا يراها القارىء متكلفة . إنها هكذا أبسط وأقل افتعالا »

فثورو كان يريد لوحة لعمله أكبر وأعرض بقدر الإمكان. فكان يكتب ويغير ويمحو ويراجع في يومياته بحاسة التكوين التي يملكها الرسام ، موسعا أفق الرؤية ومدخلا التحسينات على التفاصيل .

كان لدى ثورو عمل يقوم به ، ولا بد أنه أدرك مثل معظم الناس أنه بحاجة إلى وقت للقيام به .فكان يمشي ويكتب ، ويعسكر في الخلاء ويكتب، ويصنع أقلام الرصاص ويكتب ، مظهراً إقدامه المعهود ومستشعراً اللذة العميقة كالعهد به دائماً . وأقلقه أنه أصبح أميل إلى الواقعية . والعلم منه إلى الشاعرية ، ومع ذلك كان يتقصى أثر الوقائع بلا هوادة .

وفي أواخـــر نوفمبر سنة ١٨٦٠ اقتحم الجليد الرطب والبرد الشديد ليحصي حلقات النمو في بقايا بعض الأشجار التي كانت قد قطعت . وكان بحاجة إلى معرفة عمر الأشجار لخدمة تاريخ كونكورد الطبيعي الذي يكتبه ،

ولو عرف عمر الأشجار التي كانت موجودة هناك لاستطاع أن يحدد تاريخ أنواع أخرى من التغيرات . وكان قد عرض نفسه مراراً كثيرة كافية لجميع أنواع الطقس بحيث تمرس بها جميعا فلم يعد يتخذ احتياطات لا لزوم لها وحوالى ٣ من ديسمبر أصيب ببرد حاد انقلب بسرعة إلى نزلة شعبية ، وكانت لديه قابلية لهذا المرض . وكانت حالته سيئة عندما رحل ليحاضر في ووتر بيرى بولاية كونيكتيكت . وازدادت حالته سوءا عند عودته . واستبقى المرض ثورو فى البيت معظم شتاء ١٨٦٠ — ١٨٦١ ، واضطر للتخلى عن مشيه اليومى. وعندما يعجز ثورو عن المشى لا يستطيع الكتابة، وبدلا من أن يتحسن فى الربيع ازدادت صحته هبوطا . وسرعان ما اتضح أن ثورو يعانى من سل رئوى .

وكان ثورو لم يزل يسمى مرضه نزلة شعبية عندما كتب إلى دانييل ركتسون فى ٢٢ مارس سنة ١٨٦١ مصراً على أن صحته لم تصب بغير ذلك المرض ، وأن روحه المعنوية لم تتأثر على الإطلاق . وهو ببساطة سجين فى البيت لا يجازف بالخروج إلا إلى مكتب بريد كونكورد فى وقت الظهيرة فى الأيام المشمسة الشديدة الصحو . وتحدث عن بليك وبراون اللذين أقبلا سيراً على الأقدام من وورسستر لرؤيته ، واستغرقت الرحلة فى الريف المكشوف المعرض للرياح القارسة يومين . وكان ألكوت الذى أصبح الآن المشرف العام على المدارس فى كونكورد قد أقام معرضا لجميع أشغال المدارس فى قاعة البلدية .

وبدلا من أن يتحسن مع قدوم ربيع انجلترا الجديدة ازدادت صحته سوءا وانتابه السعال بإلحاح حتى صار من العسير عليه أن يتكلم . وأوصاه

الطبيب بتغيير المنظر والمناخ ، واقترح عليه الذهاب إلى جنوب أوروبا أو جزر الهند الغربية.وعارض ثورو فى الذهاب إلى أوروبا لما تستلزمه مثل هذه الرحلة من وقت ونفقة ، وعارض فى الذهاب الى جزر الهند الغربية بسبب رطوبتها وحرارتها . وأخيراً قرر الارتحال الى ولايات الغرب.

ولم يستطع أحد من رفاقه المألوفين أن يذهب معه ، ولم يعد فى مقدور ثورو أن يسافر وحده . وهكذا ارتحل ثورو إلى مينسوتا مع هوراس مان الشاب ابن المربى المشهور ، فى مايو سنة ١٨٦١ . وتوقفا فى رحلتهما عند مساقط نياجرا وديترويت وشيكاغو ، ثم قضيا ثلاثة أسابيع فىمينيابوليس وسانت بول وما حولهما . وكان نهر المسيسبى هو الذى يسيطر على المنظر لدى ثورو . فهو نهر أعرض بكثير من كونكورد . وأبصر فى هذه الرحلة الكثير من الأمور الجديدة التى كانت حرية أن تستثير وجدانه فى وقت آخر ، أما الآن فهو أضعف وأفترهمة من أن يبالى بشىء . وإلى سانبورن كتب خطابا طويلا عن حادث واحد ، فقد أبحر ثورو وهوراس مان مع حاكم الولاية البالغة من العمر ثلاث سنوات ، ومندوب جديد للهنود الحمر ونحو مائة من المسافرين مصعدين فى نهر مينسوتا زهاء ثلاثمائة ميل إلى ردوود كى يشاهد ثورو بنفسه أداء الإتاوة السنوية التى تقدمها الحكومة إلى الهنود الحمر ، وغاصت السفينة عدة مرات فى رمال البر فى ذلك المجرى المائى الضيق . وعندما وصلوا إلى مكان الاجتماع أقبل الهنود الحمر لحضور الاحتفال راكبين أمهارهم ، وألقى الساسة خطبهم ورد عليها زعماء الهنود الحمر . وكتب ثورو من رودينج يقول إن خطب الهنود الحمر كانت بليغة ؛

لأن الحق كان فى جانبهم . وأدى الهنود الحمر رقصة وهم أنصاف عراة ، ثم عادت السفينة هابطة النهر .

ورجع ثورو إلى كونكورد فى يوليو سنة ١٨٦١ . وبدلا من أن تنشطه هذه الرحلة وتقويه أجهدته وأضعفته ، فلم يشعر بتحسن ، وأصبح سعاله متواصلا ، فهو على حد قوله قد ظل مريضاً أمداً طويلا بحيث نسى تقريباً كيف تكون الصحة الطيبة ، فالم يطرأ عليه تحسن سريع فسوف يضطر للسفر قريباً بحثا عن طقس أنسب لصحته من طقس كونكورد أومينسوتا .

لقد انتهت إذن حياة الخلاء بالنسبة لثورو ، وصار يدرك أنه لا سير بعد اليوم له ، ولا ملاحة زوارق ، ولا معسكرات فى العراء ، بل إن حياته الحقيقية داخل البيت انتهت أيضا فكتابته — وكان عادة يسميها باسم « شخبطة » — قد انتهى عهدها ، وإنما هو يعيد كتابة ومراجعة وتدبيج وتنسيق أعمال سابقة له ، ولكن ليس بين ما يكتبه عمل جديد . وفى شهر أكتوبر شعر بقليل من التحسن بحيث استطاع أن يستخدم عربة القاضى ابنيزر هور وجواديه فى التجوال يوما بعد يوم ، وكان هذا الجار الذى تغيب معظم فصل الخريف عن البلدة قد عرض عليه ذلك . ولاحظ ثورو أن كلب القاضى هور عرض عليه خدماته أيضاً ، وكان يصحبه فى نزهاته عادة .

كان ثورو فى طريقه إلى الموت ، وكانت أسرته وأصحابه يعرفون ذلك وكان هو أيضاً يعرفه . وسرعان ما صار على صوفيا أن تكتب له خطاباته إلى أصحابه . وكتبت أيضاً خطاباً له إلى معجب شاب كان قد كتب إليه يقول إنه قرأ وأعاد قراءة « والدن » و « الأسبوع » ، وأن أنباء مرض

ثورو هزته كما لو كانت أنباء مرض صديق عرفه منذ زمن طويل . وعن طريق صوفيا قال له ثورو : « أحسبني سوف لا أعيش شهوراً طويلة . ولكنى بطبيعة الحال لا أعلم ذلك على وجه اليقين . وأضيف إليك أنى أستمتع بوجودى كسابق العهد تماماً ولست آسفاً على شيء »

ومن المؤكد أن ثورو لم يأسف على شيء ، فلم يكن هذا طبعه . أما أنه كان مستمتعاً بوجوده كالعهد به تماماً فذلك أمر مشكوك فيه . ففى ١٠ من يناير سنة ١٨٦٢ كتب آلكوت إلى ركتسون يقول : « ليست لديك أنباء عن حالة هنرى هذا الشتاء ، وسوف يحزنك أن تسمع أنه يزداد بمرور الأيام ضعفا ، وأنه يتلاشى من أمام أنظارنا بالتدريج وهو يحظى ببعض النوم وله شهية لا بأس بها ، ويطالع فى فترات متقطعة ، ويسجل ملاحظاته على مطالعاته ، ويحب أن يرى أصحابه ، وإن كان يتحادث معهم بصعوبة . لأن صوته قد تأثر بحالة ضعفه العام » .

لقد أحزن ذلك أصحابه ؛ ولئن شعر ثورو بالحزن فهو لم يصرح بذلك ولم تظهر عليه علائمه . لقد فارقته قوة بدنه . أما قوة إرادته فلم تزل فيه ، ولذا تقبل الموت كما تقبل الحياة ، وبدا عليه التصميم — كما كان حرياً أن يقول — على أن يستوعب ما فى الموت من معنى حقيق وجدوى حقيقية فكان يعمل بأقصى ما يستطيعه من مثابرة ومشقة ويعد ملاحظاته على مغامراته فى مين للنشر فى مجلة ، وينسق أجزاء من يومياته كى تنشر على صورة كتاب . وكان يعتبر المرض — حتى المرض المميت — لا ينهض عذراً للكسل . وقال لأسرته إن الاشتغال بشيء أمر لازم للمريض لزومه للصحيح المعافى ، فكان يطلب مخطوطاته ويتناول قلمه الرصاص بيد مرتجفة ويظل يعمل فى تشذيبها إلى أن يدركه الإعياء .

وظل ثورو يتناول وجباته مع أسرته ما أمكن مساعدته على الوصول إلى مائدة الطعام ، ويقول إن الأكل على هذه الصورة أحفل بالإيناس . ولما عجز عن صعود السلالم إلى فراشه كلفهم إحضار فراش ضيق كان قد صنعه بنفسه فأنزلوه من مكتبه ووضعوه فى الرواق الأمامى للبيت .

وهناك كان يستقبل ضيوفه الكثيرين . فقد أظهرت كونكورد حرارة مودتها وإعزازها لصانع القرية الماهر ورجلها غريب الأطوار ومساح أراضيها والناقد الجرىء للكنيسة والدولة الذى قضى حياته القصيرة بأكلها فى إظهار إعزازه لكونكورد والريف المحيط بها فكان جيرانه يحضرون إليه الأزهار وأطباق الجيلى . وكان الأطفال يأتون لزيارة الصديق الذى ظل حتى النهاية صديق الأطفال . وكانت هدايا الصيد والفواكه تأتى من رجال ونساء لا تكاد الأسرة تعرفهم . والغرباء عن أسرة ثورو كانوا يرسلون هداياهم وأطيب تمنياتهم . وقال ثورو فى ذلك : « ينبغى أن أخجل من البقاء فى هذا العالم بعد أن صنع الناس لى هذا كله فلن يكون فى وسعى أن أجزى أصدقائى على صنائعهم » . وحتى السجان سام ستابلز أتى لزيارة أشهر سجنائه . وقال متعجباً لإمرسون إنه لم ير قط إنساناً يسير إلى الموت بهذا المرح

وصار ثورو الآن لطيفاً وديعاً مع من كانت كلماتهم حرية أن تستثير منه ألذع الأجوبة . فهذه عمة تقية تسأله منزعجة : « هل تصالحت مع الله يا هنرى ؟ » فكان جوابه : « لم يصل إلى علمى قط أننا كنا متخاصمين يا عمة »

وعندما تحدث أحدهم بحماسة متأججة عن العالم الآخر ، رد عليه ثورو بلهجة جافة قائلا : « حسبنا أن نشغل أنفسنا بعالم واحد فى الوقت الواحد » .

وقال صديق محاولا أن يعزيه : « إننا جميعاً على كل حال لابد أن نمضى فى هذا السبيل » . ولم يكن ثورو بحاجة إلى مثل هذا العزاء ، فقال : « عندما كنت غلاماً صغيراً جداً علمت أننى لابد أن أموت ووطنت نفسى على ذلك،ولذا لست أشعر الآن بطبيعة الحال بخيبة أمل ». ولم يتذمر ثورو مرة واحدة ولم يقل إنه راغب فى استمرار حياته ، ولكن لابد أنه كان ثمة أوقات تمنى فيها وهو متألم لو ظل حياً كى يسير ويتكلم ويكتب ويغرس أشجار الصنوبر بيديه ويفلح قطعة أرضه التى يزرعها بأنواع القثاء والشمام والبطيخ. وذات مرة عندما سمع موسيقياً يعزف فى الشارع لحناً كان مألوفاً له فى طفولته شعر أنه قد لا يسمعه بعد ذلك أبداً ، فانفجرت دموعه وقال لأمه متوسلا : « أعطه لأجلى شيئا من المال » .

وكان القاضى هور قد أتى إليه بشىء من السنابل البرية قطعها حديثاً من حديقته ؛ وأتاه صديق آخر بجرة من النوع الأثير عنده من الجيلى . وفى نحو الساعة السابعة صباح ٦ من مايو سنة ١٨٦٢ استولى القلق على ثورو وطلب أن ينقل من موضعه . وكانت أمه وأختاه معه ، وفى نحو الساعة التاسعة ضعف تنفسه ومات .

وعلى حد رواية تشاننج كانت آخر الكلمات المفهومة التى تفوه بها : « الأيل » و « الهنود الحمر » . وكان قبلها مشغولا بملاحظاته عن مين .

وكتبت صوفيا التفصيلات الأخرى لأيام أخيها الأخيرة فى خطاب إلى دانييل ركتسون .

وشيعت جنازة ثورو من كنيسة الأبروشية إلى مقبرة سليبى هولو فى كونكورد ووضع إليرى تشاننج أشعاراً تمجد ذكراه على تابوته . وتكلم إمرسون الذى أحب ثورو كثيراً فقال فى خطبته المؤثرة متنبئاً « إن البلاد لا تعلم بعد مبلغ عظمة الابن الذى فقدته اليوم ! » .

وكانت الحرب الأهلية قد أعلنت . وكانت لويزا ماى ألكوت ، التى عرفت ثورو كما عرفت أطفال إمرسون عن كثب تقريباً، قد التحقت ممرضة بمستشفى للاتحاد ، فكتبت فى شعر رقيق تقول : « لقد مات رب المراعى عندنا،وصار مزماره الملقى بجوار النهر صامتاً لا ينطق » . ومضت قصيدتها تقول : «إن الأنغام تنبعث من مزمار ثورو الذى لا تمسه الأيدى » .

وعمر إمرسون الذى كان يكبر ثورو بأربعة عشر عاماً عشرين عاما أخرى . وألكوت الذى كان يكبره بثمانية عشر عاما عاش ربع قرن آخر . وتشاننج الذى كان أصغر منه بعام ونصف عام عاش حتى القرن التالى ، فقد مات سنة ١٩٠١ .

وكان إمرسون وتشاننج وهاريسون بليك هم الذين ساعدوا صوفيا منفذة وصية ثورو الأدبية على إتمام تنسيق ومراجعة ما لم يتسع الوقت لهنرى ثورو كى يتم تنسيقه ومراجعته. وكانت هناك كمية هائلة من الأوراق . ولأول مرة فى حياته تسنى لإمرسون أن يقرأ يوميات ثورو التى أظهرت من حقيقة ذلك الرجل أكثر مما أتاحه « والدن » أو « الأسبوع »

أو ما كان ثورو يستطيع أن يميط عنه اللثام لأقرب أصدقائه . واهتز وجدان إمرسون بعمق مشاعر ثورو التى لم يخطر بباله أن تكون هكذا .

وظهرت مذكرات ثورو فى مجلة الإطلنطيق الشهرية تلك السنة . وفى تتابع سريع نشرت مجلة الإطلنطيق الرسائل التى كان ثورو مشغولا بكتابتها « ألوان الخريف » و « أثناء السير » و « التفاح البرى » و « الليل وضوء القمر » .

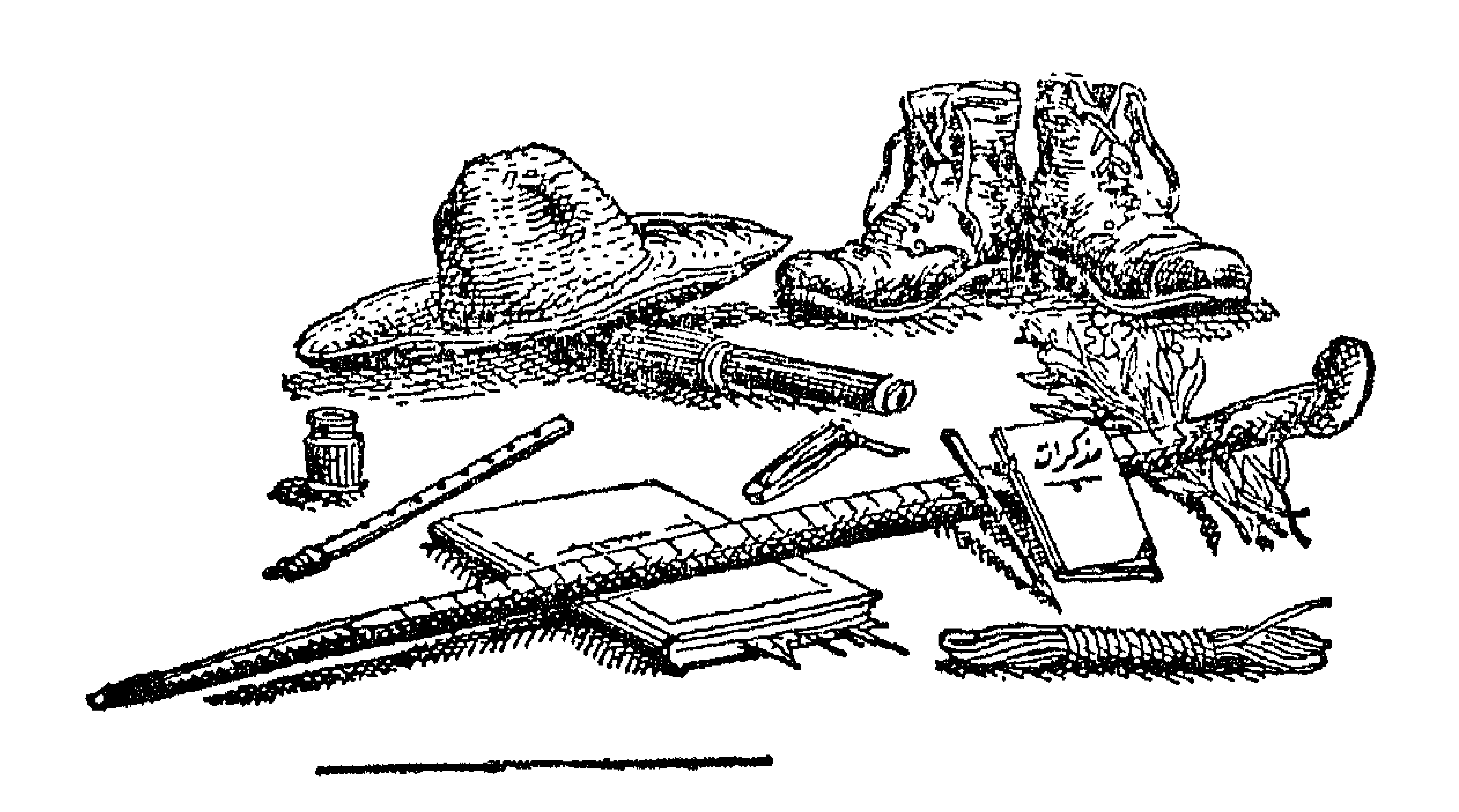
وساعد إليرى تشاننج صوفيا على أن تستخرج من يوميات ثورو أربعة كتب وتنشرها ، وهى : رحلات (١٨٦٣) وغابات مين (١٨٦٤) ورأس القد (١٨٦٥) ويانكى فى كندا (١٨٦٦) وكان إمرسون أول من أصدر مجلداً من رسائل ثورو .

ولما كان حريصاً على رسم صورة مؤثرة تهز القارىء فقد اختار لهذه المجموعة الرسائل والأشعار التى تمثل « نموذجاً كاملا للرواقية » . ولما اعترضت صوفيا قائلة إن ذلك يبدو عرضاً غير عادل لذكرى شقيقها وافقها الناشر جيمس فيلدز على ذلك ووقع الاختيار على قليل من رسائل ثورو الحافلة بحرارة المودة كى تضم إلى المجموعة بعنوان : « رسائل إلى أشخاص مختلفين » ونشرت هذه المجموعة سنة ١٨١٥ .

ولم يشهد ثورو فى حياته إلا نشر « الأسبوع » و « والدن » أما الآن فنى كل سنة يظهر مجلد جديد من عمله . وأخذت شهرته تتسع . وكان كتاب تشاننج « ثورو الشاعر الولوع بالطبيعة » أول سيرة لثورو ، وقد نشر فى بوسطن فى سنة ١٨٧٣ . وهذا الكتاب عظيم القيمة لا يقدر بثمن لما فيه

من وقائع كثيرة من حياة ثورو ، إلا أنه أسوأ ما كتبه تشاننج بأسلوب رث طنان مبهرج متكلف ، ومع ذلك لحرارة إخلاص تشاننج فى إعجابه بثورو تضىء جوانب الكتاب .

وقبل ظهور هذه السيرة ظهرت أعمال نقدية أخرى أقل مودة طافحة بالضيق والحسد بعد أن اتسعت شهرة ثورو وعظم نفوذه الأدبى ، فلم يعد فى استطاعة هؤلاء النقاد تجاهله من بعد ، وثورو كان قديراً على اصطناع الأعداء قدرته على اصطناع الأصدقاء المخلصين .



الفصل السادس عشر

لم يكن جهابذة كمبردج يحبون هنرى دافيد ثورو . كانوا يعتبرون أنفسهم رجال أدب مصقولين . وكذلك كانوا فعلا ، ويعتبرون ثورو مجرد حراث فى الحقل الأدبى الذى يزرعونه بأناقة ورقة . وكان إمرسون — دون غيره من كتاب كونكورد — مقبولا لديهم كواحد منهم تقريباً . أما ثورو فرفضوه باشمئزاز ؛ لأنه كان قروياً ظهر فجأة ليغلظ القول أكثر من مرة فى حق هارفاد وفى حق مهنتهم

وكان ثورو فى أحد أحاديثه فى بيت إمرسون قد وافق من قال إن هارفارد تعلم جميع فروع المعرفة . وأردف ذلك بقوله : ولكنها لا تعلم شيئاً من جذورها وأصولها . وفى كتابه « الأسبوع » قال إن كثيرين من الدارسين والعلماء تعودوا أن يبيعوا حق بكوريتهم بصحفة عدس من التعليم

وقال أيضاً فى «الأسبوع» إن بعض الكتب الهابطة عن الطبيعة لا تعدو أن « تسرع باستياق الطالب المثابر إلى التيه الذى يقيم فيه الأساتذة دائما » .

وحتى فى دفاعه الحار عن جون براون استخدم ثورو عادته المزعجة فى قول ما يجول بخاطره على انفراد بصورة علنية ، فاعترف أن « براون لم يذهب إلى الكلية التى اسمها هارفارد ، وهى مدرستى العتيقة التى تخرجت فيها وبهذا لم يتغذ على لبان المعرفة المبذولة هناك » .

وفى السيرة التى كتبها أوليفر ويندل هولمز أستاذ التشريح ووظائف الأعضاء فى هارفارد مؤرخا حياة إمرسون خرج عن السياق خصيصا ليقول عن ثورو متهكما إنه « نصفه خريج جامعة ، ونصفه الآخر هندى أحمر .. » ووصف ثورو الذى كان قد حط من قدر هارفارد بأنه « عدو المدنية الهدام الذى أصر على أكل الأسبرجس من الطرف الخاطىء » ، وسخر هولمز من ثورو باعتباره روبنسون كروزو بحيرة والدن وصوره بصورة غير مستحبة على أنه الرجل الذى « روى قصة الطبيعة فى عريها على نحو ما يستطيع ذلك رجل كمن مختفيا فى مخدع نومها دون سواه » .

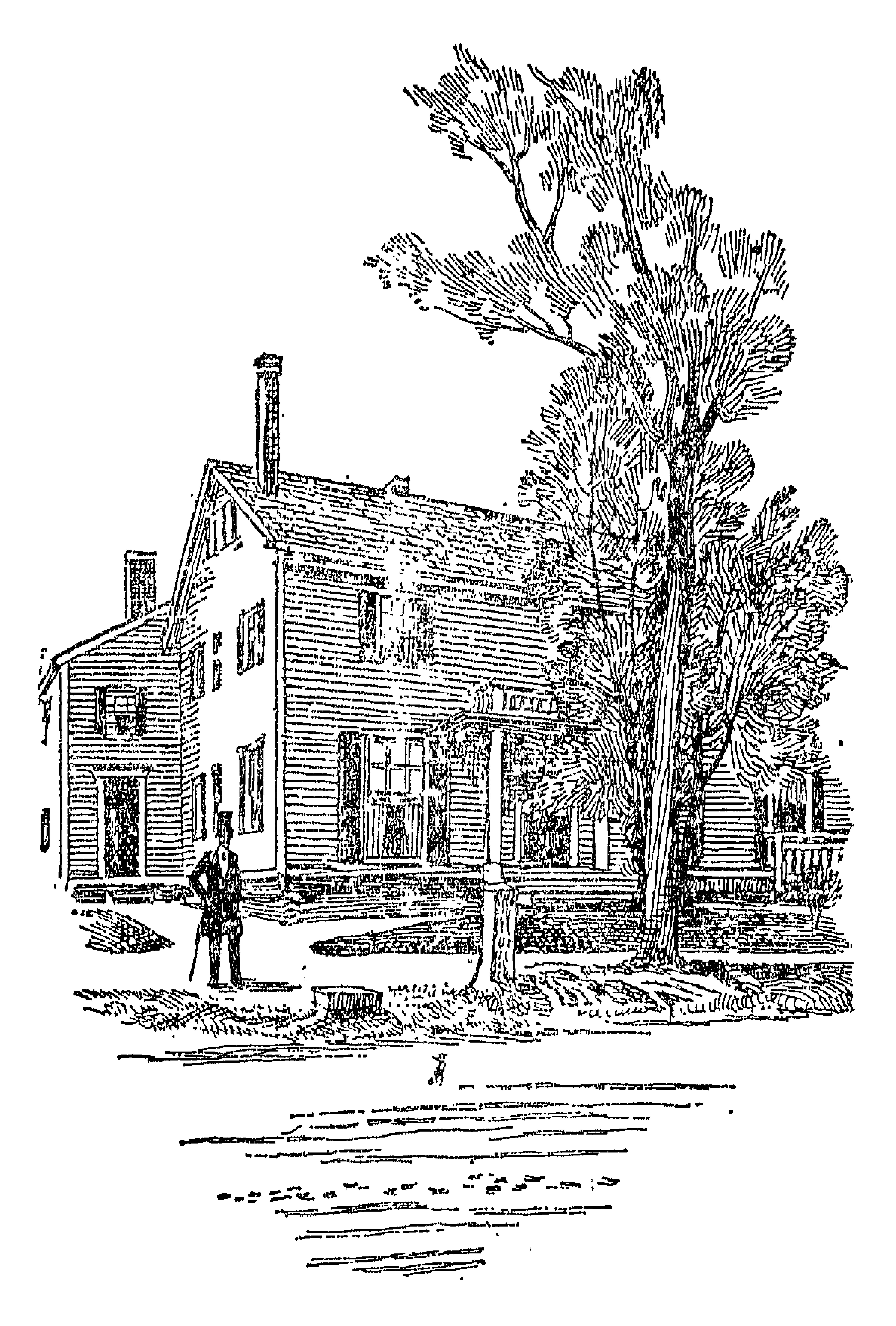
وهنرى وودزورث لونجفلو أستاذ كرسى سمث للغتين الفرنسية والإسبانية فى هارفارد كان لطيفا ولكن فى شيء من التنازل . وكان يتحمل ثورو على مائدة العشاء إكراما لصديقه وزميله فى الدراسة ناثانيل هوثورن ، إلا أنه كان يعتبره فيلسوفا آخر من فلاسفة كونكورد الذين يثيرون التفكه . وكان الشعور السائد فى كمبردج فيما يبدو أن ثورو غير مقبول اجتماعيا وأن كتبه لا قيمة لها لهذا السبب ؛ ففى هذه الكتب كان ثورو قليل الإذعان

والتقبل للسراة، وهم الملاك المتغطرسون ؛ وكان يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية ويتكلم بسلطان ويقول ما يعنيه بغير هوادة وسخريته لا ترحم كالصخر ، وحادة نافذة كالأشواك .

وجيمس راسل لوويل الذى خلف لونجفلو أستاذاً لكرسى سمث فى هارفارد أبغض هنرى ثورو منذ البداية ، أبغضه فى الكلية ، وتهكم به بعد التخرج عندما كان يقضى فترة فى الريف بكونكورد ، وندد به فى كتابه « أسطورة النقاد » وعندما كان لوويل محرراً أول لمجلة الإطلنطيق الشهرية طلب من ثورو مقالا عن غابة مين ، وقبل منه مقاله المسمى «تشيزانكوك» ثم حذف منه عبارة اعتبرها سيئة ، ثم نشر من غير أن يستشير المؤلف ما اعتبره ثورو مقالا مشوها وغضب ثورو فكتب إلى لوويل خطابا قاسيا لم يرد عليه لوويل ، ورفض ثورو أن يكتب مرة أخرى لمجلة الإطلنطيق ما ظل لوويل رئيساً لتحريرها . أما لوويل فقد شعر بأن كرامته جرحت ، ولم يغتفرها لثورو قط .

وبعد وفاة ثورو بثلاثة أعوام كتب لوويل ونشر فى مجلة أمريكا الشمالية فى أكتوبر سنة ١٨٦٥ — وكان قد غدا رئيساً لتحرير هذه المجلة فى العام السابق — مقالا الغرض منه القضاء على السمعة الشخصية والأدبية للرجل الذى أبغضه

ولما أعاد لوويل نشر هذا المقال فى كتابه « نوافذ دراساتى »(١٨٧١) بدت هذه المقالة عن ثورو تفيض بالتهكم والاستهزاء والتحقير والازدراء ، فقد وصف ثورو بأنه « نبات ليس به إلا أعضاء تأنيث ، ولم يتمخض عن



عاش "ثورو" معظم عمره في بيت آل "ثورو" بكونكورد

ثمرة إلا بلقاح من أفكار إمرسون » . بل وصفه أيضاً بأنه كان مغروراً ، كسولا ، صلفاً ، أنانياً سخط على العالم لأنه لم يعرفه ، واستهزأ بالمال لأنه كان فقيراً عاجزاً عن كسب المال بجهوده الخاصة ، وكان عديم الخيال مفتقراً إلى التمييز النقدى . بل ولم يكن أصيلا فى الملاحظة ، مجرداً من روح الفكاهة والمنطق ، فثورو على الجملة كان هزيلا سقيم العقل وبيل التفكير

وأدت هجمات لويل الخبيثة الغرض منها ، إذ يبدو أنها شفت مابنفسه وأثرت على النقاد الآخرين الذين أعادوا ترديد آراء لويل فى مقالاتهم وكتبهم الخاصة ، فصارت الموجة السائدة بين النقاد الأكاديميين هى التنقص من قدر ثورو. ولما غدا لويل معلقاً أدبياً شهيراً كسبت له أعماله السياسية الحظوة فظفر بالمناصب الدبلوماسية فى عهد الرئيسين هايس وجرفيلد. صارت لتعليقاته الجارحة أهمية مبالغ فيها ولم تزل هذه الآراء تقتبس نصوص منها بتلذذ فى دوائر المعارف وكتب المراجع . وبازدراء شديد واضح أورد هـ . ل منكن تعليقين على أدب ثورو يفيضان سخرية واستهزاء فى قاموسه الجديد للنصوص المشهورة الصادر سنة ١٩٤٢ . وأحد هذين التعليقين من لويل والآخر من ستيفنسون والاستهزاء دائماً أسهل صورة من صور السخرية . والتحقير البارع يمكن على العموم أن يجد جمهوراً يتقبله ويعجب به

وعلى اثر هجوم لويل على ثورو انبرى أصدقاء ثورو للدفاع عنه فى استنكار شديد فوصف الدكتور إدوارد والدو إمرسون مقالة لويل بأنها « تقدير ظالم متحامل خال من التعاطف لثورو بقلم رجل له من المواهب

ما يجعل إحجامه عن الإنصاف عملا يكاد لا يغتفر » . وبعد سنوات وصف وليم ليون فيلبس مقالة لوويل بأنها « نتاج عقل تبخرت منه الشاعرية والشباب » .

وانتشر الجدل الذى أثاره ظهور كتب ثورو المنشورة بعد وفاته حتى عبر المحيط الأطلنطى ، وإذا بروبرت لويس ستيفنسون ينشر فى مجلة كورنهل بعدد يونية سنة ١٨٧٩ مقالا قلد فيه لوويل تقليداً واضحاً فاتهم ثورو بالنقائص التى اكتشفها لوويل أو اختلقها . بل إن ستيفنسون تهكم بسحنة ثورو قائلا : « إن وجه ثورو النحيل بأنفه الكبير ينم حتى فى صورته المحفورة فى الخشب على ضيق أفق عقله وطباعه » . وقال ستيفنسون أيضاً إن بصيرة ثورو كانت لاذعة حمضية ، ولسبب ما تراءى له من دواعى النم أن يتمتع ثورو بمهارة « شبه حيوانية » فى أفعاله. وفى مقال يتسم بصراحته المهينة قال ستيفنسون إن ثورو يفتقر إلى شجاعة الرجولة ، فهو قد فر من عالم يعجز عن مواجهته،فهو لهذا كان قاسياً جباناً .

وانبرى الدكتور ألكسندر جاب على الفور لنجدة ثورو فى صحيفة سبكتيتور اللندنية قائلا : « أعتقد أن أرحم الفروض أن نعتبر أن دراسات مستر ر . ل . ستيفنسون لثورو لم تكن مستفيضة مستوعبة كما ينبغى . وعلى كل حال فإن أوقية واحدة من الحقيقة أفضل من مكيال ضخم من الكلام النظرى والكتابة الأنيقة » ، وأردف الدكتور جاب يسرد الحقائق ، فاضطر ستيفنسون للاعتذار عن كثير من أشد أنواع نقده لثورو قسوة فى مقدمة كتابه « دراسات مألوفة عن الناس والكتب » (١٨٨٢) .

وقال هنرى س . سولت فى مجلة تمبل بار بعدد نوفمبر سنة ١٨٨٦

مؤكداً بحرارة أن ثورو كاتب أصيل بأصدق معانى هذه الكلمة ، وأن عمله فريد فذ : « إن (والدن) وحده كاف كى يكسبه مكاناً بين الخالدين ، لأنه كتاب لا نظير له فى مادته وأسلوبه معاً ويستحق أن يكون كتاباً مقدساً فى مكتبة كل إنسان مثقف ومفكر » . وفى كتابه « حياة هنرى دافيد ثورو » الذى كتبه بعد أربع سنوات أطرى سولت تفكير ثورو الفردى المستقل وحاسة الفكاهة لديه وأحله مكاناً علياً فى الآداب الأمريكية والإنجليزية .

وبعد عودة آنى راسل ماربل إلى الولايات المتحدة أعربت عن تذمرها فى كتابها « ثورو : بيته وأصدقاؤه وكتبه » (١٩٠٢) من أن قليلين من رجال الأدب تصدى لهم الكثيرون من النقاد بمثل هذه العداوة، وعانوا ما عاناه من الافتراء

ولئن لم يكن هناك عذر لنزعة الشر ، وكان عذر المحجمين عن إنصاف ثورو ضئيلا ، فثمة تفسير كاف للالتباس الذى شعر به بعض العائبين على ثورو فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ذلك أن ثورو لم يكن حريصاً على تحسين مركزه فى المجتمع أو الدوائر الأدبية، بل كان يبدو كما يشاء حيث يشاء ، ويكتب ليعبر عن الحقيقة كما يراها بأسلوب قوى مباشر فيه كثير من الجفاء فى أحيان كثيرة ، مع الخشونة والوعورة، وكان ذلك أمراً مستغربا فى عالم الأدب المهذب فى أيامه . إن طريقته أقرب إلى طريقة الجزاء المتأخر من القرن العشرين ، وآراءه وموقفه من الآراء عموما — مع أنه لم يكن يدرى ذلك — أشبه بالأجيال التى تلته لا بجيله .

أما أن كتبه أوسع انتشاراً واستشهاداً بها فى الوقت الحاضر ، وأما أن آراءه محل مناقشات أوسع وأعمق فى أيامنا هذه مما كانت أيام حياته ، فذلك

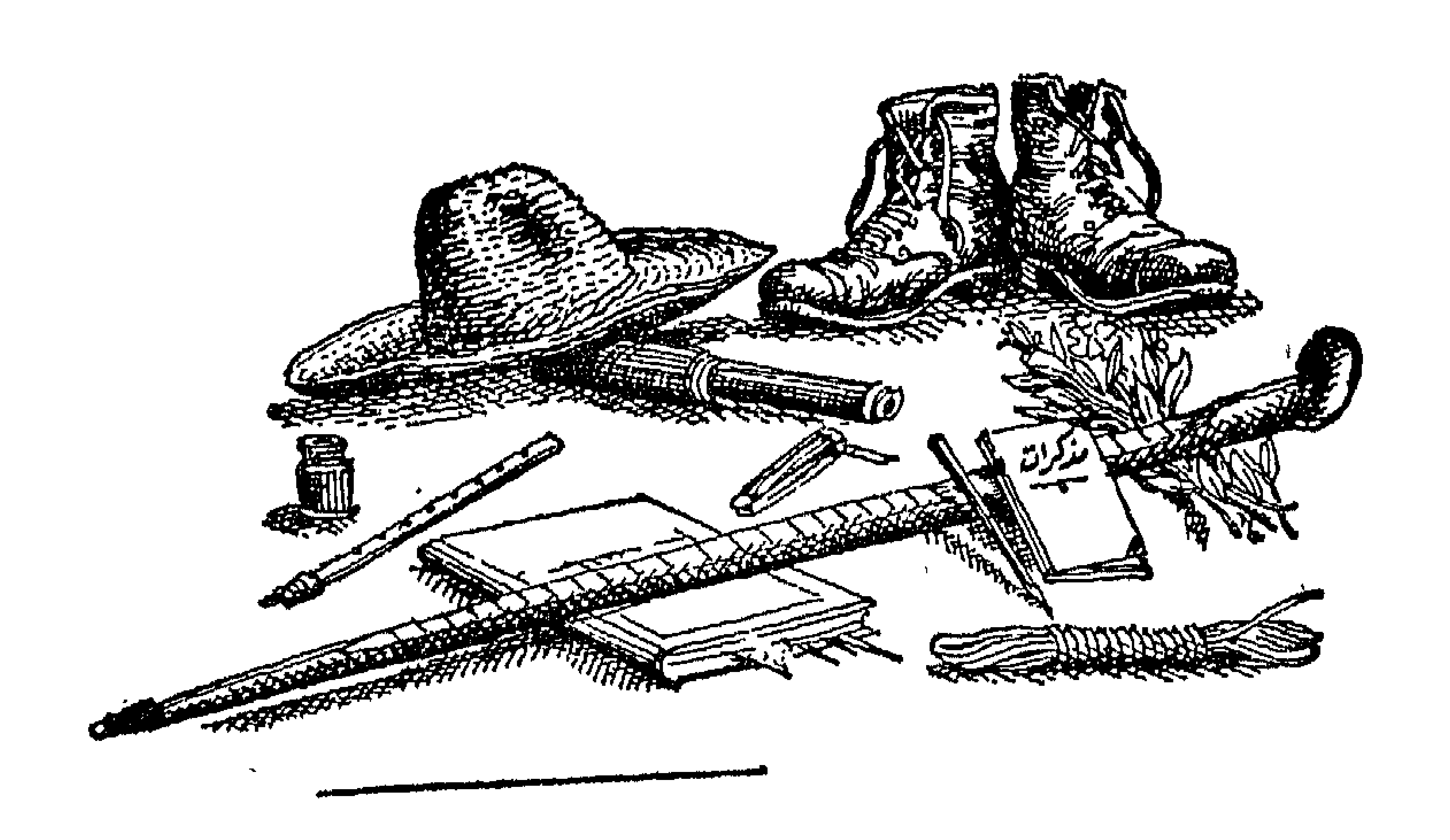
ليس من شأنه أن يثير دهشة هنرى ثورو . فقد كان يعرف أنه يفكر ويكتب عن أمور بشرية وطبيعية أساسية وباقية . ورغم فشله فى الحصول على تقدير عام كبير الشأن من الجمهور العريض إبان حياته ، فإنه كان مؤمناً بحياته وعمله . ولابد أن قُدرته على الثقة بعمله ، فى وقت كانت جميع الدلائل تشير إلى فشله ، أمر أسخط كثيرين من النقاد . فالرجل القصير الذى يظهر عدم الاكتراث البارد ويجعل من سحنته المهملة أداة تحقير للأنيقين والأدعياء الذين يعرف أن مواهبهم دون مواهبه كان فى الواقع أطول قامة مما يظنون.

وقد حاول إمرسون وهوراس جريلى أن يساعدا ثورو فى الأمور العملية ولم يوفقا كثيرا لأنه لم يسهل عليهما هذه المهمة . وكثيرا ما رآه إمرسون مسرفا فى تميزه الفردى ووعورة طبعه مفرطاً فى تشبثه واستعصائه. ولم يستطيعا أن يجعلا شخصه أو كتابته مستساغين فى حلوق المحررين الذين كانوا يجتهدون فى إرضاء قرائهم ، أما ثورو فلا يمكن أن يتنازل عن شىء استجابة لرؤساء التحرير ، بل كان يعتبرهم أجبن من أن يجرؤوا على نشر الحقائق فلا ينشروا إلا الكلام المأمون الشائع . وكان يقول إن رؤساء التحرير يكلفون القسس مراجعة المواد ليتأكدوا من أنهم لن ينشروا ما يثير استياء بعض الناس . والأولى بهم كما قال ثورو أن يعرضوا هذه المواد لا على دكاترة اللاهوت، بل على طيور التشيكادى - أشيع طيور أمريكا الشمالية - . وهكذا لم يستطع إمرسون وجريلى والآخرون الذين حاولوا مساعدة ثورو أن يحققوا له شيئاً . فقد كان جزءا من طبيعته — ولعله أيضاً جزء من جوانبه المحدودة — أن كل مايحققه لابد أن يحققه بنفسه .

ومما لا شك فيه أن ولاء أصحابه وأحاديثهم وكتاباتهم دفاعا عنه ضد

نقاد من أمثال لوويل وستيفنسون ساعدت على تصحيح بعض الأحكام الخاطئة عنه وإقامة وتقوية شهرته بعد وفاته . ومع ذلك كان ثورو شخصياً على وجه الخصوص هو الذى فرض حقيقة وجوده وقيمة كتاباته عنوة .

وظلت كتب هنرى دافيد ثورو الجديدة تصدر تباعاً ، وكل كتاب منها يثير التعليقات ومقالات العرض الأدبى ويضيف قراء جدداً إلى جمهوره المتزايد. وقبل وفاة صوفيا ثورو وسنة ١٨٧٦ سلمت ما تبقى من كتابات أخيها غير المنشورة إلى هاريسون بليك . وبوصفه ناشراً أصدر بليك أربعة مجلدات أخرى من مختارات يوميات ثورو هى : أوائل الربيع فى ماساشوستس (١٨٨١) والصيف (١٨٨٤) والشتاء (١٨٨٨) والخريف (١٨٩٢) وفى سنة ١٨٩٤ أصدر ف . ب . سانبورن خطابات هنرى دافيد ثورو الحميمة ، وفى سنة ١٨٩٥ جمع سانبورن وهنرى س . سولت ونشرا أشعار ثورو فى الطبيعة ، وصدرت مجموعة أعمال ثورو الكاملة فى أحد عشر مجلدا فى سنة ١٨٩٤ وفى هذا الوقت أصبح الناشرون لا يردون إلى المؤلف الشاب الخائب الآمال معظم طبعاته التى غرق فى الدين ليراها تخرج من المطبعة . بل إن ثورو الآن ليس بحاجة إلى إخفاء ألمه بنكتة متجهمة . وفى سنة ١٩٠٦ كان حرياً أن يندفع فى رقصه الوحشى الفطرى متواثبا قافزا ليظهر حبوره الذى يعجز عن التعبير عنه بالألفاظ ؛ فالكتاب الذى كان يريد إصداره حقاً ـــ وهو يومياته ـــ صدر من المطبعة . وبعد أكثر من نصف قرن من تاريخ الكتابة الحقيقى صدر جزء لم ينشر من قبل من هذه اليوميات يتضمن مدوناته منذ يولية ١٨٤٠ إلى يناير ١٨٤١ . وهكذا تم صدور كتاب ثورو العظيم .



الفصل السابع عشر

كان وليم إليرى تشاننج يعتقد أن ثورو مزيج من عالم التاريخ الطبيعى والشاعر ، ولكنه اعترف لإمرسون أنه لم يفهم صديقه تمام الفهم مطلقاً . وإمرسون كان مقتنعاً بأن ثورو طالب حقيقة ، وهو إما أن يكون غير مكترث للذة والألم، وإما أنه على طريقة الهنود الحمر يخفى مشاعره . و ف . ب . سانبورن لم يعرف ثورو إلا كما يعرف شاب أصغر سناً بكثير رجلا أكبر سناً وأكثر موهبة ، وقد احترف الكتابة عن ثورو وأصدقائه فى كونكورد ، بيد أنه لم تكن لديه فيما يبدو فكرة واضحة عن موضوعه . وهاريسون بليك الذى كان يبجل صديقه ومراسله كان يعتبر ثورو عالماً بالنبات والتاريخ الطبيعى . وأصدر مجلدات جمعها من يوميات ثورو تظهره فى هذا الضوء. وسام ستابلز سجان كونكورد وفلاحو كونكورد عرفوا فى

ثورو الصانع ومساح الأراضى وأحبوه كثيرا على هـــذه الصفة ، لأنهم اعتبروه فردا من نوعهم،وأن وجوده من كثير من الوجوه غريب الأطوار يثير الحيرة . وهكذا أذهل ثورو أصدقاءه الحميمين ومعارفه وجيرانه فتجاوز فهمه طاقتهم .

وثورو حرى أن يشعر بالضيق ، وربما ثار سخطه وغضبه ، إزاء هذه المحاولات لتحديده وتعريفه . ولعله أيضاً ما كان ليضيق أو يسخط ، لأنه كان يعلم أن الحقيقة البسيطة كثيرا ما تبدو محيرة للناس ، وكان يعتقد أن حقيقة أمره بسيطة جدا . فهو يعلم من هو . إنه هنرى ثورو . فقد كان برمته هنرى دافيد ثورو خالصاً نقياً كما كان يعتقد أن كل إنسان ينبغى أن يكون ذات نفسه برمته خالصاً نقياً.وهذا ما كان يقوله للناس بكلماته وأفعاله طيلة حياته. فهذا جو بوليس دليله الهندى الأحمر فى مين هو بعينه جو بوليس، وولت ويتمان كان ولت ويتمان بتمامه ، وجون براون كان جون براون لا سواه . وهكذا عرف هؤلاء الرجال وكان إعجابه بهم قائماً على هذه الوشيجة التى شعر بوجودها بينهم و بينه . فالبشر يستجيبون لبنى جنسهم .

كان يلح دائماً على المناداة بأن يكون المرء ذات نفسه ، وأن يحقق أسمى القدرات التى يملكها ، وأن يقول ويصنع ما يعتقد أنه صواب أن يقوله ويصنعه . وإذا خالفت غيرك من الناس فى الراى فقل هذا ووضح السبب. فإذا خالفت الناس فى تكتلهم ـــ أى خالفت الحكومة ـــ فافعل ذلك والزم فى فعالك الحقيقة كما تراها . وعش بسائط الحياة الصادقة الأمينة على نحو ما تعيش النباتات والحيوانات وحكماء البشر،وتجنب تعقيدات وتلفيقات الأعمال والمجتمعات . انظر بعينيك ، وسر على قدميك ، واعمل بيديك ،

وواجه الحياة على حقيقتها . وإذا اقتضى الأمر فنازلها ، واعلم أن الحيـاة وأن الله — على نحو ما يبدوان فى الطبيعة — جوهرهما الخير ، واستغن عما لا تحتاج إليه حقاً ، ولتكن حاجتك إلى أفضل ما فى الوجود : إلى الغابات والبحر والأنهار وأشجار البلوط الصغيرة الناشئة وفتران الجبـــل والأمانة التى يتميز بها البسطاء ، وأفضل الكتب وألوان الخريف والغروب والفجر الواعد بيوم أبدع إشراقا من أى يوم عرفته من قبل . وثمة شيء آخر كان ثورو يصر عليه : إن كنت صانعاً أقلام الرصاص فأحسن صنعها، وإن كنت كاتباً فأحسن الكتابة .

إن تأثير ثورو يفوق التقدير ، وهو تأثير ازداد كثيرا بازدياد تعقـــد الحياة العصرية ، فقد صارت الأمور البسيطة أصعب منالا . وفى حمأة المشاغل الدنيوية والصحافة والدعاية ورابطة هذا الشيء ومنظمة ذاك الشيء غدت البساطة نفسها غارقة لا تراها العيون . ويبدو أن الدعاية والإلحاح المتصل على المطالبة بإقامة جماعات ترعى مصالح الطوائف الخاصة قد حلت محل الفهم ، وأن اللباقة والكياسة حلتا محل الحقيقة .

إن الإذعان أصبح الطلب عليه فى ازدياد متصل فى مزيد من مجالات حياتنا . فالحكومة التى كانت على أيام ثورو غير متحكمة نسبياً صارت الآن أشد نفوذا وأشمل تأثيرا وأعظم تحديدا لحريات الأفراد ، فهى بتشكيل الناس فى كتل جماهيرية وتنظيم المجتمع لحكم الجماهير إجمالا قد حددت تحديدا ضيقاً آراء الفرد وذوقه ، وحددت تحديدا ضيقاً مجال الفروق الفردية والتعبير الفردى عن الرأى ، وهذا المحو للشخصية الفردية هو المثل الأعلى فى الدول الشمولية .

أما فى الدول الديمقراطية فقد ازداد ازديادا مطردا إخضاع الفرد والضغط على حريته عن طريق القوانين واللوائح، وبهذا الضغط المنظم تتجه الأحوال إلى إذعان الفرد لوجهة النظر السائدة بين الكثرة العددية فى المجتمع وباتجاه القيم التى عاشها ثورو ونادى بها فى كتبه إلى تلك الحال التى صارت على مقتضاها عسيرة المنال يصعب الحفاظ عليها أخذت أهمية هذه القيم فى الازدياد باعتباره مفكرا وكاتباً نادى بهذه القيم .

وقبل أن يؤلف هنرى سيدل كانبى سيرته الضخمة عن ثورو قال فى تعريفه فى كتابه « الأمريكيون الكلاسيكيون » : إنه « أحد الأصلاء القلائل فى العالم الذين تنبع غرابة أطوارهم من شدة سلامة تفكيرهم » . وبعد ظهور سيرة كانبى بثمان سنوات قال فى كتابه « سيرة أمريكية » مانصه « أى عبقرية فى النبوة جعلت ذلك الشخص الغريب الأطوار العنيد ابن الأرض الوعرة والقرية المحتشمة يرى أن الصراع البشرى الكبير المقبل سيكون بين الفرد والدولة ؟ ومن أين استمد شجاعته وعناده ؟ » .

إن تأثير ثورو فى غاندى ، وتأثيره من خلال غاندى فى ملايين الهنود وملايين آخرين من البشر فى الأمم الجديدة الناشئة فى آسيا وأفريقيا وفى الوثبة الزنجية نحو المساواة الاجتماعية والاقتصادية فى الولايات المتحدة ، سبقت الإشارة إليه . والكونت ليوتولستوى استلهم آراء ثورو فى تبسيط الحياة الإنسانية وفتنته تجربة ثورو فى والدن فحذا حذوه فى عدم الثقة بالحكومة إلى حد تحبيذ إلغائها . ومثل ثورو أيضاً لم يكن الروائى الروسى يحفل كثيرا بالكنيسة المنظمة ، بيد أنه شديد الاهتمام بالإيمان بالله . وقد قال الكونت إليا تولستوى ابن تولستوى إن حياة ثورو وآراءه : « كانت قريبة جدا إلى قلب تولستوى » .

وقد أوضح كتاب من شتى الأنواع دينهم لهنرى داڤيد ثورو فى عملهم وعبروا عن ذلك الدين فى كتبهم . فهذا ه . م . توملنسون ، وهو أحد كتاب المقالة الإنجليز الممتازين فى القرن العشرين وروائى متميز يغادر لندن وشارع فليت (شارع الصحافة) ذات يوم فى سنة ١٩٠٩ ليبحر إلى أمريكا الجنوبية فى باخرة تتسكع فى طريقها بين الموانىء ثم يرحل ألفين من الأميال على طول غابات نهرى الأمازون وماديرا . وكتابه عن هذه الرحلة « البحر والغابة » أضحى من الكلاسيكيات الصغرى ؛ فهو سرد غير متصل الحلقات يشبه كثيراً « أسبوع » ثورو . ويتساءل توملنسون: لماذا لم يرد مطلقاً « الأسبوع » فى قائمة كتب الرحلات الشهيرة ، فهو يعتبره من أفضلها . وكتابه هذا يردد من حيث التفكير والأسلوب أصداء ذلك الرجل الذى قام برحلة أبسط من هذه بكثير مع شقيقه فى سنة ١٨٣٩ . وفى يوم عيد الميلاد فى البحر عندما كان توملنسون يقيس المسافة بالميل بينه وبين لندن تساءل عن مدى جدوى هذه الإحصائيات إطلاقا لأى إنسان ، وتذكر قول ثورو إن الأمر لا يستحق عناء الدوران حول العالم لمجرد إحصاء عدد القطط فى زنزبار .

وفى سبتمبر سنة ١٩١٨ عندما كانت أوروبا فى حالة إعياء تقريباً بعد أربع سنوات من ويلات الحرب العالمية ، وقد صار الباقون على قيد الحياة من الرجال فى انجلترا فى حالة معنوية سيئة تغلب عليهم المرارة مر توملنسون مصادفة فى شارع جانبى من شوارع الضواحى كان من عادته قبل الحرب أن يتسكع فيه « مع رجل لن يكون فى مقدورى بعد الآن أن أتسكع معه ذلك التسكع المحبب » ، وفى حانوت للكتب المستعملة عثر على نسخة من طبعة كاميلوت من « والدن » وكان صديقه قد قال له إنه يريدها وعندما فتح توماسون النسخة وقعت عينه على جملة فى الفقرة الأخيرة من الكتاب : « لا يطلع

علينا إلا فجر النهار الذي يجدنا أيقاظاً » ، ويقول إنه عندما قرأ هذه الجملة شعر بطمأنينة نفسية غير معقولة تستولى عليه . وتذكر أن العالم المدمر عرف من قبل أضواء الفجر الجديدة وسوف يعرفها مراراً من بعد . ومع أنه قد أحزنه أن يعلم أنه لم يعد فى استطاعته أن يعطى النسخة لصديقه إلا أنه اشتراها له .

وكان توملنسون قاطعاً صريحاً عندما كتب مقالا فى سنة ١٩٢٦ بعنوان « أمريكيان وقيطس » ، قال فيه إنه تعرف إلى ثورو لأول مرة عن طريق قراءة مقالة ستيفنسون عنه ، فهذه المقالة « كشفت لى نقائص ستيفنسون لا نقائص ثورو » . وقال توملنسون إن ثورو هز تفكيره هزة قوية تضارع ما أحدثه فيه من التأثير أى كاتب « وهناك معلقون لحوا إلى المنابع الأصلية لكتبي، ولكن ما من أحد منهم لاحظ إطلاقا أننى لابد أن أكون قد أطلت إمعان النظر فى بحيرة والدن وأنا يافع فى صورة شبح أو رؤيا » .

وبروكس أتكنسون الذى ظل ناقداً مسرحياً فى برودواى لصحيفة النيويورك تايمز — فهو بهذا الاعتبار طارئ من عالم مختلف تماماً لا يعرف ثورو عنه شيئاً — ألفى نفسه مفتوناً أيضاً بكتاباته ، فثورو كان يحرك دماءه كما حرك دماء تولستوى وتوملنسون. وكتاب أتكنسون «هنرى ثورو اليانكى الكونى» الذى ظهر فى سنة ١٩٢٧ حافل بالحماسة للشاعر والمتصوف فى ثورو ولروح أفكاره التى بدت لأتكنسون حية شديدة التوقد فى هذا القرن العشرين.

وفى مايو سنة ١٩٢٧ اشترى إ . ب . هوايت — المشهور بكتاباته فى النيويوركر — وهو رجل مثل ثورو يعرف كيف يكتب الجملة الناصعة — نسخة من طبعة الكلاسيكيات العالمية لكتاب « والدن» ودسها فى جيبه وظل يحملها معه سنوات فى القطارات والسيارات العامة وعلى متن السفن ، يطالع صفحاتها ويعيد تلاوتها . وبلغ من ألفة وايت لوالدن أنه — كما يزعم فى

إحدى مقالاته الممتعة ــ كلما وجه إليه سؤال انبرى للإجابة دون أن يدوى بنصوص مقتبسة من ثورو . وفى يونية سنة ١٩٣٩ وجه فى إحدى مقالاته المجموعة الآن فى كتابه «لحم رجل» خطاباً إلى ثورو . وقد جاء فيه : « لقد كنت دائما راغبا فى مشاهدة بحيرة والدن . فالوصف الذى تركته لإقامتك هناك يسرك أن تعلم أنه وثيقة يزداد نصيبها من السداد والتوفيق ، لأنها تكتسب كل سنة فيما يبدو شيئا من التقدم بمقدار ما يفقد العالم من القدرة على الثبات » .

و « والدن » كتاب من الخطر أن يقرأه المرء ، فما أقل الذين طالعوه وظلوا بعد قراءته كما كانوا من قبل ، فهو صادر من عقل رجل وقلبه ، رجل عقد العزم على النفاذ إلى معنى الحياة ، وكان يشعر فى بعض الأحيان أنه نفذ إليه فعلا . فقد كان ثورو جموحا عنيدا صلب الرأى عسير القياد ، وفى وسعه أن يكون عصيا . وكان أيضا رقيقا حنونا حساساً مرهف الإدراك إلا أنه من حيث المرونة أشبه بجذور شجرة بلوط .

وكان العالم فى بعض الأحيان يخيب آماله . وأسوأ من هذا أنه فى كثير من الأحيان كان يخيب آمال نفسه . وفى أحيان أخرى كان العالم مصدر حبور له . يفعمه بسعادة لا يمكن التعبير عنها فلا يسعه إلا أن يندفع فى رقصه الوحشى المرتجل . وكان فى وسع ثورو أن يكون صارما مع العالم ومع أصدقائه صرامته مع نفسه ، بيد أنه يستطيع أن يهدر منشدا: « جذفوا يا إخوانى . . . جذفوا . . . » ، أو يندفع إلى السقيفة كى يحضر مقلاة التدفئة النحاسية ليصنع عليها جبلا من قشار الذرة فوق مدفأة إمرسون ، أو يكتب إلى صوفيا انه مستعد بكل سرور « أن يستبدل خلوده بزجاجة من الجعة الخفيفة فى هذا الجو الحار » .

وفى مقدور ثورو أن يكون مستعصى القياد كالريح ، ومع ذلك فهو حين يسير أو ينزلق على الجليد أو يجلس ببساطة ويتحدث فى رواق بيت

بكونكورد أو فى كوخه الصغير الذى بناه بيده فوق قمة الجبال البيض ، يستطيع أن يكون رفيقا مرحا

وقد اجتمعت فى أجداده دماء فرنسية وانجليزية واسكتلندية، فاجتمعت له فطنة أهل الغال والبداهة السديدة والحصافة المأثورتان عن الاسكتلنديين . ومع هذا كان « يانكى » (من أبناء الولايات الشمالية فى أمريكا) كثمرة الجوز الأمريكى .

كان أصدقاء ثورو هم إمرسون وألكوت وهاوثورن وتشاننج وغيرهم من رجال الثقافة ونسائها . وهؤلاء الأصدقاء بالاشتراك مع الغابات والحقول والجداول على قدم المساواة كانوا الحافزين له على الكتابة . فقد كانوا يسيغون حديثه عن فئران الجبل وأشجار البلوط المزيلة ومعازف أسلاك البرق لأنهم كانوا يضفون تقديرهم السخى على عمله ويمنحونه تأييد طائفة من أفضل نوابغ الأدب فى زمنه . بل إنهم فوق هذا كله كانوا يصغون إليه وهو يتكلم . وكان ثورو مثل إمرسون وكارلايل وغيرهما من المبشرين بالصمت والوحدة يحب الكلام .

وبالرغم من انس وجودهم والأنس الذى حاطته به أسرته كان ثورو يشعر أحيانا بالوحدة . وما من إنسان يستطيع أن يكتب بهذا الشعور الصادق عن الحب والصداقة كثورو الذى كتب عنهما وهو غير محروم منهما ولعله كان يريد من الحياة أكثر مما يحتاج اليه بعض الناس . ولعل ضغط الحياة فى ثورو كان يملؤه بحيوية دافئة بسبب الكبح الجزئى . فكثيرا ما كان يتكلم ويكتب باندفاع ، وقال فى « والدن » إنه يائس من اندفاعه اندفاعا يكفى للتعبير عن الحقيقة التى يقتنع بها . وفى كثير من الأحيان كان يتكلم ويكتب بأسلوب المفارقات والمتناقضات ولعله كان يرمى من وراء

ذلك الى التنفيس عن انفعالاته الخاصة بقدر ما كان يرمي إلى ترويح الآخرين وكان يكتب فى فكاهة وسخرية، والساخر يتعرض دائما لخطر أن يأخذه الناس بحروف كلامه .

وكان ثورو مجدوداً فى أصدقائه ، مجدوداً فى قدراته الكامنة والنامية ، فاستطاع أن يلزم الصمت بانقباض أو ينفجر فى طوفان من الكلام ، أو يشغل يديه بأى مهمة فيتقنها ، أو إن شاء ألف كتاباً مستقيما كشجرة التنوب قويا كالبلوط الصغير الذى كان يحبه، فقد كان ثورو مستقيما واضحاً متميزاً لايحوم ويدور حول أطراف الموضوعات مثل آلكوت ، أو تشاتنج أو مثل إمرسون فى بعض الأحيان .

لقد كان هنرى دافيد ثورو ببساطة هو هنرى دافيد ثورو . وهذا هو السر الذى عاشه وعبر عنه بكلامه ودونه ليطالعه كل إنسان ، ولكن لابد من اكتمال عناصر متباينة متوازنة محكمة التوجيه للوصول إلى تحقيق مثل هذه البساطة .

وذات مرة كان ثورو تهب نوبة من الشعور بالوحدة ، فتاقت نفسه إلى طريق خلوى عتيق جاف متعرج يستطيع أن يذرعه متهاديا فى مشيته على هواه . ولم يتمن سوى الأوز البرى من فوق رأسه ، ولا اشتاق لصحبة شيء سوى فراشة حمراء رفافة وعصفور دورى يزقزق وقد أتى على وصف مثل هذا الطريق لسديبورى أو مارلبورو فى يومياته التى كتب فيها قائلا :
« هناك أستطيع أن أمشى وأسترد الطفل الضائع فىّ من غير أن أحتاج إلى صلصلة ناقوس ، وأحسب أنه تمكن من ذلك

تواريخ بارزة فى حياة هنرى دافيد ثورو

١٨١٧ — ولد فى ١٢ من يولية بكونكورد فى ولاية ماساشوستس .

١٨٣٣ — دخل كلية هارفارد .

١٨٣٤ — بدأ يدون يومياته .

١٨٣٧ — تخرج فى هارفارد .

قابل رالف والدو إمرسون .

علم فى مدرسة بلدة كونكورد فترة قصيرة .

صنع أقلام الرصاص .

١٨٣٨ — ذهب إلى مين بحثاً عن وظيفة معلم .

فتح مدرسة خاصة فى كونكورد مع شقيقه جون ثورو .

ألقى أول محاضرة بعنوان « المجتمع » فى لقيوم كونكورد .

١٨٣٩ — رحل مع جون هابطاً نهر كونكورد ومصعداً فى نهر مريماك إلى كونكورد بولاية هامشاير الجديدة .

١٨٤١ — ذهب ليعيش سنتين فى بيت رالف والدو إمرسون.

١٨٤٢ — مات جون ثورو فى ١١ من يناير .

١٨٤٣ — ذهب لقضاء سنة فى جزيرة ستاتن بنيويورك مؤدباً لأطفال وليم إمرسون .

١٨٤٥ — بدأ تشييد كوخه فى مارس على أرض مملوكة لإمرسون على الشاطىء الشمالى الغربى لبحيرة والدن . وشرع يقيم هناك فى ٤ من يولية .

١٨٤٦ — قبض عليه فى يولية، وحبس طول الليل فى سجن كونكورد لعدم أدائه ضريبة الرأس .

١٨٤٧ — غادر بحيرة والدن فى ٦ من سبتمبر .

ذهب لقضاء سنة أخرى فى بيت إمرسون .

١٨٤٨ — حاضر فى لقيوم كونكورد عن « العصيان المدنى » .

١٨٤٩ — نشر « العصيان المدنى » فى بوسطن تحت عنوان « مقاومة الحكومة المدنية » فى مجلة الصحائف الجمالية التى تحررها اليزابيث بيبودى . نشر « أسبوع على نهرى كونكورد ومريماك » بواسطة دار جيمس مونرو وشركاه ببوسطن على نفقة ثورو

ذهب إلى رأس القد .

قابل هاريسون ج . أو . بليك من أهالى وورسستر .

١٨٥٠ — ذهب إلى جزيرة النار بنيويورك .

ذهب إلى كندا .

١٨٥٣ — ذهب مرة أخرى إلى مين .

١٨٥٤ — نشرت دار تيكنور وفيلدز ببوسطن كتابه « والدن » .

حاضر فى بدفورد الجديدة ونتتوكت عن « الحياة بدون مبدأ » .

قابل دانييل ركتسون من أهالى بدفورد الجديدة .

١٨٥٥ — ذهب مرة أخرى إلى رأس القد .

١٨٥٧ — ذهب مرة ثالثة إلى رأس القد وإلى مين .

١٨٥٩ — ذهب إلى الجبال البيض .

ألقى فى لقيوم كونكورد فى ٣٠ من أكتوبر « دفاع عن الكابتن جون براون » .

١٨٦٠ — ذهب مرة أخرى إلى الجبال البيض .

١٨٦١ — ذهب إلى مينسوتا انتجاعا للصحة فى مايو ، وعاد إلى كونكورد فى يولية .

١٨٦٢ — توفى فى ٦ مايو فى كونكورد بولاية ماساشوستس .



Canby, Henry Seidel. *Thoreau.* Boston: Houghton Mifflin Company, 1939.

Channing, William Ellery. *Thoreau, The Poet-Naturalist.* Boston: Roberts Bros., 1873.

Emerson, Edward Waldo. *Emerson in Concord.* Boston and New York: Houghton Mifflin Company, 1889.

———. *Henry Thoreau as Remembered by a Young Friend.* Boston: Houghton Mifflin Company, 1917.

Harding, Walter, and Bode, Carl. *The Correspondence of Henry David Thoreau.* New York: New York University Press, 1958.

Miller, Perry, ed. *Consciousness in Concord: Text of Thoreau's "Lost Journal," 1840–1841.* Boston: Houghton Mifflin Company, 1958.

Perry, Bliss, ed. *The Heart of Emerson's Journal.* Boston and New York: Houghton Mifflin Company, 1926.

Salt, Henry S. *Life of David Thoreau.* London: Walter Scott, 1890.

Sanborn, Franklin Benjamin. *Henry D. Thoreau.* Boston: Houghton Mifflin Company, 1882.

———, ed *The Familiar Letters of Henry David Thoreau.* (*The Writings of Henry David Thoreau*, Vol. VI.) Boston: Houghton Mifflin Company, 1906.

Thoreau, Henry David. *The Writings of Henry David Thoreau.* Walden Edition, 20 vols. Boston: Houghton Mifflin Company, 1906.

هذا الكتاب

تناول المؤلف بأسلوب شائق فى هذا الكتاب قصة حياة وأعمال هنرى دافيد ثورو ، ذلك الشاعر الأمريكى القوى ذى الحيوية الدافقة الذى آثر أن يحيا حياته على أحسن ما تراءى له .

ومن خلال فهم المؤلف ودراسته المستفيضة لأعمال ثورو نرى فى هذه السيرة الممتازة صورة صادقة حية لهنرى دافيد ثورو وما تمثله كتاباته لأبناء الزمن الحاضر .

وليس فى وسع أحد أن يقدر الألوف الكثيرة من القراء الذين هزهم إلحاح ثورو على الحياة القريبة قدر الإمكان من الفطرة حيث تبرز عذوبتها فى أجلى صورة ، وهزهم نداؤه المتكرر: تبسطوا ! تبسطوا ! وبازدياد الحياة الحديثة تعقداً زادت جاذبية دعوة ثورو الملحة إلى البساطة ، والصلة المباشرة بالحياة .

وقد اختار المؤلف مقتطفات من أعمال ثورو مما يجعل الكتاب ممتعاً للقراء المعجبين بثورو ، والذين لم يسبق لهم معرفة به .



